كاس ر. سينشتاين

الطريق إلى التطرف

اتحاد العقول وانقسامها

ترجمة

سميحة نصر دويدار



المركز القومي للترجمة

2136

الطريق إلى التطرف

اتحاد العقول وانقسامها

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2136
- الطريق إلى التطرف: اتحاد العقول وانقسامها
- كاس ر. سينشتاين
- سميحة نصر دويدار
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:
GOING TO EXTREMES: How Like Minds Unite & Divide
By: Cass R. Sunstein

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الطريق إلى التطرف

اتحاد العقول وانقسامها

تأليف: كاس. ر. سينشتاين

ترجمة: سميحة نصر دويدار

2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سينشتاين ، كاس . ر.
الطريق إلى التطرف: اتحاد العقول وانقسامها/ تأليف: كاس. ر. سينشتاين ؛ ترجمة: سميحة نصر دويدار ؛
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤
٢٨٤ ص، ٢٤ سم
١ - التطرف
(أ) دويدار، سميحة نصر (مترجم)
(ب) العنوان ٣٢٠,٥٣

رقم الإيداع: ٩٠١٢ /٢٠١٢
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977 - 216 - 095 - 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

شكر وتقدير

لقد كنت أعمل فى هذا المجال لسنوات عديدة، وإنه لمن دواعى سرورى أن أتقدم بالشكر للعديد من الأصدقاء والزمـــلاء الذين ساعدونى فى إخراج هذا العمل، ومن البخس القول بأنه لا يمكن أن يكون لهذا الكتاب وجود أو يظهر للنور دون هؤلاء الأصدقاء والزملاء.

الفضل الأول هنا للمؤلفين المشاركين فى المشاريع المختلفة التى أعطت هذا الكتاب شكلاً وجوهرًا. وفى مجال هيئات المحلفين والتعويضات الجزائية، كان لى شرف العمل مع كل من "دانيال كانيمان: Daniel-Kahneman" – "ديفيد سكادى: David Scakade" وهذا العمل كان مفيدًا للتعاون بشكل مثير للدهشة والمتعة بدرجة كبيرة، وفى مجال التصويت القضائى ديفيد سكادى، وهو أحد طلابى البارعين و"ليزا إيلمان: Lisa-Ellman" – وأندروس ساويكى: "Andres Sawicki" وهما من تلاميذى السابقين الذين بذلوا جهدًا كبيرًا لا يقدر بثمن فى إخراج هذا العمل.

وفى الآونة الآخيرة كان لى شرف التعاون مع "توماس مايلز: – Thomas Miles" فى جمع العديد من الدراسات فى مجال التصويت القضائى والسياسات التنظيمية. وكانت دراسة كولورادو نتاج تجربة قام بها كل من "ريد هاستى: "Reid Hasite" ومرة أخرى ديفيد سكادى. وفى مجال الأسس النظرية. فقد استفدت من التعاون الرائع مع "إدوارد جلايسير: Edward Glaeser" – وأنا ممتن أكثر أستطيع أن أقول؛ إن كل واحد من هؤلاء الأصدقاء رائع حقًا.

على مر السنين، استفدت أيضًا من التعليقات والانتقادات والاعتراضات التى أبداها الكثير من الزملاء فلهم منى الشكر الخاص، وقد اخترت "مارثا نوسبوم: "Martha Nussbaum" للمناقشات التى لا تعد ولا تحصى، لمعاييرها المرتفعة والثابتة، والمساعدة السخية التى لا تقدر بثمن فى الحصول على الحجج على التوالى والشكر كذلك لإريك بوسنير: "Eric Posner –، وريتشارد بوسنير: "Richard Posner" و"أدريان فيرميلى: Adrian Vermeule" – وللجميع من الأصدقاء والزملاء الرائعين، والناس لكرمهم وإخلاصهم وصدقهم الأكبر. قدم "ديفيد ماك برايد: "David Mac Bride" محررى لتقديم الدعم من خلال تعليقاته الرائعة، وكذلك تحسين الكتاب فى مراحله الأخيرة، وأخيرًا شكر خاص لـــ"جاك جولد سميث: "Jack Gold Smith وهو أيضًا زميل منذ فترة طويلة وصديق تولى عناء قراءة نسخة شبه نهائية من الكتاب، وقد أبدى العديد من التحسينات والتعليقات.

والشكر الخاص للطلبة الذين أدين لهم فى حضور ندوتى عن التطرف فى جامعة هارفارد فى خريف عام ٢٠٠٨، وكان لذكائهم وحماسهم وإبداعهم المطلق تأثير كبير على هذا الكتاب، فأنا فى غاية الامتنان لهم.

وشكرى الجزيل الذى أتوجه به إلى زوجتى "سامنثا باور: Samantha Power". وقد رأت سامنثا أن كتابًا عن التطرف يكون مفيدًا، وخاصة إذا ركز على المتطرفين الفعليين وليس على محتوى التجارب المعملية. وقد حسنت كثيرًا من تجربتها الخاصة، وشجاعتها، وفضولها، وطاقتها، وأفكارها وتعميق نقاشها هنا.

أنا فى غاية الامتنان لها لذلك. ولكن ما زلت ممتنا لها أكثر لتحملها عبء كتابة هذا الكتاب وجعلها كل يوم كما لو كان فرحًا.

توجد بعض المقاطع من هذا الكتاب مباشرة من بعض الأعمال السابقة، بما فى ذلك لماذا تحتاج المجتمعات المعارضة (كامبريدج، ماساشوستيش: مطبعة جامعة هارفارد، ٢٠٠٣) نموذج مثالى للمعلوماتية "Infotopia" ما عدد العقول المنتجة للمعرفة (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد ،٢٠٠٦) وقد ذكرت فى البداية بعض الأفكار المركزية هنا فى مأزق التداولى، لماذا تتجه الجماعات نحو التطرف (يالى ل.جى ١١٠ (٢٠٠٠): ٧١) "Yale L.J. 110 (2000): 71". وفى الآونة الأخيرة تم نشر محاضرة فى معهد أمريكان إنتربرايز سنة ٢٠٠٧، باعتبارها دراسة قصيرة، لماذا تتجه جماعات نحو التطرف (واشنطن العاصمة، معهد أمريكان إنتربرايز، ٢٠٠٨) وأنا ممتن بصفة خاصة للمستمعين فى مركز التعليم الأسترالى الدولى، ولا يفوتنى، أن أتقدم بالشكر إلى كل من "كريس ديموس: Chris Demuth" و"روبرت هان: Robert Hahn" - لتوفير بعض المنتديات المثيرة للنقاش والمناظرة التى ساعدتنى على تكوين أفكارى هنا فى بداية تشكلها.

الفصل الأول

الاستقطاب

ما الذى يفسر ظهور الفاشية فى ثلاثينيات القرن العشرين؟ ونشوء النزعة الراديكالية للحركة الطلابية فى ستينيات القرن العشرين؟ وتنامى الإرهاب الإسلامى فى تسعينيات القرن العشرين؟ والإبادة الجماعية فى رواندا سنة ١٩٩٤؟ والصراع الإثنى فى يوغوسلافيا السابقة وفى العراق؟ وأعمال التعذيب والإذلال التى مارسها الجنود الأمريكيون فى سجن أبو غريب؟ والأزمة المالية الأمريكية سنة ٢٠٠٨؟ والاعتقاد السائد على نطاق واسع فى بعض أنحاء العالم، بأن إسرائيل أو الولايات المتحدة هى المسئولة عن هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١؟ وعلى أية حال ما العلاقة بين هذه الاستفسارات مع بعضها بعضًا؟

وهنا نقطة بداية متأنية. فمنذ بضع سنوات مضت، تجمع عدد من مواطنى فرنسا فى مجموعات صغيرة لتبادل وجهات النظر حول رئيس جمهوريتهم، وحول اتجاهات الولايات المتحدة فيما يتعلق بالمساعدات الخارجية (١).

وقبل أن يبدأوا فى الكلام، كان المشاركون يميلون إلى الاعتزاز برئيس جمهوريتهم وإلى الارتياب فى نيّات الولايات المتحدة. وبعد أن تكلموا معًا، حدثت بعض الأمور الغريبة، فهؤلاء الذين بدأوا بالاعتزاز برئيس جمهوريتهم انتهوا إلى تقدير رئيسهم بدرجة لها أهمية أكبر. وإن هؤلاء الذين أعلنوا عن عدم الثقة بالولايات المتحدة تحركوا فى اتجاه أشد إيغالا فى

الارتياب. فهذه المجموعات الصغيرة من المواطنين الفرنسيين أصبحت أكثر تطرفًا. فنتيجة لمناقشاتهم مع بعضهم، أصبحوا أكثر تحمسًا لقائدهم، كما كانوا أكثر بعدًا وتشككًا فى الولايات المتحدة، من الأفراد الممثلين لهم فى فرنسا الذين لم يأتوا معًا للحديث مع بعضهم بعضًا.

تكشف هذه الرواية عن حقيقة عامة من حقائق الحياة الاجتماعية، ففى كثير من الأوقات، ينتهى الأمر بجماعات الأفراد إلى أن يفكروا فى أن يفعلوا أشياء لم يكن لأعضاء الجماعة أن يفكروا فيها أبدًا أو يفعلوها أبدًا من تلقاء أنفسهم.

ويصدق ذلك على جماعات المراهقين، الذين يكونون راغبين فى ارتكاب المخاطر التى من شأن الأفراد أن يتجنبوها. ويصدق ذلك بالتأكيد على من هم ميّالون للعنف، والذين يندرج فيهم الإرهابيون ومن يقترفون جريمة الإبادة الجماعية. ويصدق على المستثمرين وعلى المسئولين التنفيذيين فى الشركات. ويصدق على موظفى الحكومة، وعلى جماعات الجيران، وعلى المصلحين الاجتماعيين، وعلى المعارضين السياسيين، وعلى ضباط الشرطة، وعلى المنظمات الطلابية، وعلى النقابات العمالية، وعلى هيئات المحلفين. ويعتبر بعض أفضل التطورات وأسوئها فى الحياة الاجتماعية نتيجة لديناميات الجماعة، والتى بمقتضاها يقوم أعضاء التنظيمات، الصغيرة منها والكبيرة، بإقناع بعضهم بعضًا بتبنى اتجاهات جديدة.

وبطبيعة الأمر، فإن أفضل تفسيرات الفاشية ليست ملائمة لتفسير الثورات الطلابية، وحتى لو فهمنا كلاً من هذين الأمرين، فلن نكون غير قادرين على تفسير الصراع الإثنى فى العراق، أو الإبادة الجماعية فى رواندا، أو الإيذاء الجسدى والوحشية فى سجن أبو غريب، أو نظريات المؤامرة التى تشمل إسرائيل فى تهمة المتسبب فى أحداث ١١

سبتمبر، أو أزمـــة الرهـــن العقـــارى(*). فبالنسبة لأحداث معينـــة، لا تستطيع التفسيرات العامة أن تكشف إلا عن أجزاء من الصورة فقط. إلا أننى أهدف فعلاً لأن أظهر وجوه تشابه صارخة أو مذهلة بـين طائفـة كبيرة من الظواهر الاجتماعية. والتيمة أى: الفكرة المحورية التى تجمع بين هذه الظواهر تِيمة بسيطة، مَفَادُها أنه: عندما يجد الأفراد أنفسهم فى جماعات ذات أنماط من التفكير المتشابه، فإن مِن المُرَجَّح فى هذه الحالة بالـذات أن ينتقلوا إلى الحدود القصوى للتطرف. وعندما تشتمل أمثال تلـك الجماعـات على حكومات أو سلطات تأمر أعضاء الجماعة بما يفعلون، أو تَضَعُهم داخِل أدوار اجتماعية معينة، فإن أمورًا سيئةً جدًا يمكن أن تحدُث.

وفى استكشافى للسبب الذى يجعل الأمر على هـذا النحـو، آمـل أن أعرف ما يمكن عمله بشأن التطرف غير المبرر، فهو تهديد للأمن، وللسلام، وللتطور الاقتصادى، وللقرارات الحكيمة فى جميع أنواع المجالات ذلك أننى أؤكد دائمًا على أهمية ظاهرة استقطاب الجماعة، فهذه الظاهرة تقدم دروسًـا ملائمة فيما يتصل بسلوك المستهلكين، وجماعات المصالح، وسوق العقارات، والتنظيمات الريفية، والأحزاب الـسياسية، وحركـات التحـرر، والإدارات التنفيذية الحكومية، والهيئات التشريعية، والمتعصبين العنصريين، والهيئـات القضائية، ومن يصنعون السلام، ومن يشعلون الحروب، بل حتى فيما يتصل بالأمم ككل.

(*) يطلق مصطلح (sulprime crus) على أزمة الرهن العقارى فى الولايات المتحدة، وهو يشير إلى أن المديرين المساعدين لشركات التسليف العقارى مسئولون عن إخفاقات هذه الشركات، والتى أدت إلى إفلاس عدد من المصارف المالية الكبيرة، مما تسبب فى الأزمة المالية العالمية أواخر عام ٢٠٠٨ "المترجم".

- **الجماعات والتطرف**

عندما يتكلم الأفراد مع بعضهم، ما الذى يحدث؟ هل يقوم أعضاء الجماعة بتسوية خلافاتهم؟ هل يتحركون فى اتجاه منتصف المسافة بين ميول الأعضاء المنفردين؟ الإجابة الآن واضحة، وهى ليست ما يوحى به الحدس أو البديهة. وهى أن الجماعات تذهب إلى الحدود القصوى للتطرف. وبتعبير أدق، فإن من المعتاد أن ينتهى أعضاء الجماعة الذين يتشاورون فيما بينهم إلى مواقف متطرفة داخل الاتجاه العام للجماعة نفسه، وبصورة أكثر مما كانت عليه ميولهم قبل أن يبدأ هذا التشاور[٢].

هذه هى الظاهرة المعروفة باستقطاب الجماعة. واستقطاب الجماعة هو النمط المعهود فى الجماعات المتشاورة فيما بينها. وهى ليست محصورة فى فترات تاريخية معينة، أو أمم معينة، أو ثقافات معينة. وعلى العكس من ذلك، فإن استقطاب الجماعة وجد فى مئات الدراسات التى تغطى أكثر من اثنى عشر بلدًا، منها الولايات المتحدة وفرنسا، وأفغانستان، ونيوزيلندا، وتايوان، وألمانيا [٣]، وهى تقدم مفتاحًا لحل لغز التطرفية ذات الأنواع المختلفة الكثيرة .

تأمل فى أربعة أمثلة:

١- الأفراد البيض الذين يميلون إلى إظهار التعصب العرقى الملحوظ، سيظهرون تعصبًا عرقيًا أشد بعد أن يتكلموا مع بعضهم بعضًا. وعلى النقيض من ذلك، فإن الأفراد البيض الذين يميلون إلى إظهار قدرٍ قليلٍ من التعصب العرقى سوف يظهرون قدرًا أقل من التعصب العرقى بعد أن يتكلموا مع بعضهم بعضًا [٤].

٢- تصبح النزعة أو االفلسفة النسوية أكثر جاذبية عند النساء بعد أن يتكلمن مع بعضهن بعضا، على الأقل إذا بدأت النساء اللاتى يتكلمن بنزعة تميل إلى تأييد النسوية [٥].

٣- هؤلاء الذين يستحسنون المجهود الحربى المتطور باستمرار، ويرون أن الحرب تمضى على ما يرام، يصبحون أكثر تحمسًا لهذا المجهود فى المستقبل، كما يصبحون أكثر تفاؤلاً، بعد أن يتكلموا مع بعضهم بعضًا.

٤- إذا بدأ المستثمرون وهم يعتقدون أن من الأفضل دائمًا أن يستثمروا فى العقارات، فإن حرصهم على الاستثمار فى العقارات سوف يتزايد بوصفه نتيجة للمناقشات التى يتبادلونها فيما بينهم.

فى هذه الحالات وفيما لا يعد غيرها من الحالات، يميل الأفراد المتشابهون فى التفكير إلى الانتقال إلى صورة أكثر تطرفًا لما كانوا يفكرون فيه قبل أن يبدأوا الكلام. فى ضوء ذلك افترض أن جماعات مغلقة من الأفراد تميل للتمرد أو حتى للعنف، وأنها مفصولة عن غيرها من الجماعات. فقد تتحرك هذه الجماعات بحدة فى اتجاه العنف نتيجة لانعزالها الذاتى. وغالبًا ما تكون التطرفية السياسية إحدى نتائج استقطاب الجماعة [٦]، كما أن الانعزال الاجتماعى أداة أساسية لإحداث الاستقطاب.

فى الواقع، من الوسائل الواقعية لخلق جماعة متطرفة، أو طائفة دينية من أى نوع، فصل أو عزل الأعضاء عن بقية المجتمع. وبالإمكان أن يحدث هذا الفصل على نحو مادى أو سيكولوجى، وذلك عن طريق خلق إحساس بالشك فيمن هم من غير أعضاء الجماعة. وعن طريق مثل هذا الفصل،

يكون بالإمكان عدم تصديق المعلومات والآراء الخاصة بهؤلاء الموجــودين خارج نطاق الجماعة، وحينئذ لن يعوق شيء عملية الاستقطاب، نظــرًا لأن أعضاء الجماعة مستمرون فى التكلم مع بعضهم. وغالبًا ما تكون الجماعات المغلقة التى يتكلم أعضاؤها مع بعضهم تربــة خــصبة، أى بيئــة مواتيــة للحركات المتطرفة.

فالإرهابيون يصنعون، ولا يولدون، كما أن الغالــب علــى الــشبكات الإرهابية أنها تعمل هذه الطريقة نفسها. ونتيجة لذلك، يستطيع الإرهابيون أن يقوموا – بطريقة أخرى – بإقناع الأفراد العاديين بالأعمال العنيفة [٧]. بيد أن وجهة النظر هذه عن الاستقطاب تصدق تمامًا على ما هو خارج نطاق مثل هذه المجالات. إذ يحدث استقطاب الجماعة فى حيواتنا اليومية؛ فهو يطــوى بين ثناياه قراراتنا الاقتصادية، وتقييماتنا لجيراننا، بل قراراتنا الخاصة بماذا نأكل، وبماذا نشرب، وأين نعيش.

ولكى نفهم طبيعة هذه الظاهرة الأساسية وقوتها وعموميتهــا، دعنــى أوجز القول فى ثلاث دراسات اشتركت شخصيًا فيها.

الولايات الحمراء، والولايات الزرقاء

فى سنة ٢٠٠٥، قام "رايد هاستى: Raid Hastie"، و"دافيد سكادى: David-Schkade"، وأنا معهم، بإجراء تجربة صغيرة عن الديمقراطية فى كولورادو [٨].

فقد جيء بنحو ستين مواطنًا أمريكيًا معًا وجمعوا فى عشر مجموعات، كانت المجموعة تتألف من ستة أفراد فى العادة. وطلب مــن أعــضاء كــل مجموعة أن يتشاوروا فى ثلاث من أشد القضايا إثارة للخلاف فى وقتنا هذا. وهى:

- هل ينبغى أن تسمح الولايات للأزواج الذين هم من نفس الجنس أن يدخلوا النقابات العمالية المدنية؟
- هل ينبغى أن يشترك أصحاب الأعمال فى الإجراء الإيجابى عن طريق تفضيلهم لأعضاء الجماعات المحرومة بصفة تقليدية؟
- هل ينبغى أن توقع الولايات المتحدة على اتفاقية دولية لمقاومة الاحترار العالمى؟

وفقًا للتصميم الذى كانت عليه هذه التجربة، كانت المجموعات مكونة من أعضاء "ليبراليين" وأعضاء "محافظين" وكانت المجموعات الأولى من مدينة "بولدر: Boulder"، وكانت المجموعات الأخيرة من مدينة "كولورادو سبرنجز: Colorado Springs". ومن الشائع معرفته أن بولدر تميل لأن تكون ليبرالية وأن كولورادو سبرنجز تميل لأن تكون محافظة. وقد فحصت المجموعتان للتأكد من أن أعضاءها تنطبق عليهم هاتان الصورتان النمطيتان. مثال ذلك، أن أعضاء المجموعتين طلب منهم أن يكتبوا جملاً عن حكمهم على نائب الرئيس ديك تشينى.

وفى بولدر أعفى من يحبونه عن طيب خاطر - من الاشتراك فى التجربة وفى كولورادو أعفى - بالمثل - من يكرهونه، وعن طيب خاطر، من التجربة.

بهذه الطريقة، اشتملت هذه التجربة على مجموعتين من الأفراد المتشابهين فى التفكير. فأثناء المحادثات الرسمية التى جرت فى سنوات الانتخاب فى الولايات المتحدة، كونت هذه التجربة خمس مجموعات من " الولايات الزرقاء " وخمس مجموعات من "الولايات الحمراء" أى خمس

مجموعات يميل أعضاؤها أصلا للمواقف الفكرية الليبرالية عمومًا، وخمس مجموعات يميل أعضاؤها نحو المواقف الفكرية المحافظة. ومع ذلك، فإنه بخصوص القضايا التى كنا مهتمين بها، لم يتم فحص المشاركين بتاتًا. إذ لم تكن توجد طريقة لمعرفة آرائهم على وجه الدقة فى نقابات العمال المدنية، والعمل الإيجابى، وتغير المناخ. وقد طلب من المشاركين أن يذكروا آراءهم بدون ذكر أسمائهم قبل وبعد مناقشة جماعية مدتها خمس عشرة دقيقة، كما طلب منهم أن يصلوا إلى رأى نهائى مشترك قبل ذكر حكمهم النهائى الذى يحكمون به من غير ذكر أسمائهم.

وقد سجلت آراؤهم على مقياس من صفر -١٠، حيث كانت الدرجة صفرًا، تعنى "أعترض اعتراضًا قويًا جدًا"، وكانت (٥) تعنى "أعترض بدرجة طفيفة" وكانت (١٠) تعنى "أوافق موافقة قوية جدًا على المقولة أو الجملة ذات الصلة" وهى أن: الولايات المتحدة ينبغى عليها أن تسمح بالدخول فى نقابات العمال المدنية للأزواج الذين من نفس الجنس، وينبغى على أصحاب الأعمال أن يساعدوا برامج العمل الإيجابية، وينبغى على الولايات المتحدة أن توقع على اتفاقية دولية للتحكم فى الاحترار العالمى. وقد كنا مهتمين بصفة خاصة بسؤال واحد، وهو: إلى أى مدى يمكن للأحكام الشخصية التى يحكم بها الأفراد بدون ذكر أسمائهم أن تتغير نتيجة لفترة قصيرة من النقاش؟

وعندما تكشفت التجربة عن نتائجها، كان الأفراد فى كل من مجموعة بولدر ومجموعة كولورادو سبرنجز أناسًا مهذبين، ومتحمسين، ومهتمين بجوهر الأمور. فقد تعاملوا مع بعضهم بتهذيب واحترام. وقد شاهدت أفلام الفيديو الخاصة بالعديد من هذه النقاشات، وإن من العدل أن يقال إنه بالنسبة

لمعظم المشاركين، وجد منهم جهد بذلوه فى التفكير الشاق، وفى الإصغاء للآخرين، وفى أن يكونوا ملتزمين بالعقل. فماذا كانت النتيجة التى أحدثها النقاش؟ لقد وجدت ثلاث من النتائج الحاسمة.

- المزيد من التطرفية

فى كل مجموعة تقريبًا، انتهى الأمر بالأعضاء إلى مزيد من المواقف المتطرفة بعد أن تكلموا مع بعضهم. فقد كان معظم الليبراليين فى بولدر يفضلون اتفاقية دولية للسيطرة على الاحترار العالمى قبل أن يتناقشوا معًا، وزادت حماستهم بعد النقاش. وكان معظم المحافظين فى كولورادو محايدين بشأن تلك الاتفاقية قبل النقاش، وعارضوها بقوة بعد النقاش. وأدى النقاش إلى أن جعل دخول الأزواج من ذوى الجنس الواحد فى النقابات العمالية المدنية أكثر قبولاً بين الليبراليين من بولدر، كما جعلت المناقشة قضية النقابات العمالية المدنية المذكورة أقل قبولاً بين المحافظين من كولورادو سبرنجز، وبعد أن كان الليبراليون ميالين بدرجة معتدلة للعمل الإيجابى قبل المناقشة، أصبحوا يؤيدون العمل الإيجابى بقوة بعد المناقشة. وبعد أن كان المحافظون معترضين اعتراضًا راسخًا على العمل الإيجابى قبل المناقشة، أصبحوا بعد المناقشة أشد رسوخا فى اعتراضهم على العمل الإيجابى.

- قدر كبير من التنوع الداخلى

كان لهذه التجربة تأثير منفصل، وهو تأثير له نفس الأهمية بالنسبة للجماعتين المبحوثتين، فقد جعلت كلاً من الجماعات الليبرالية والجماعات المحافظة أكثر تجانسا بصورة ملحوظة، وبذلك خففت من حدة الاختلاف.

فقبل أن يبدأ الأعضاء الكلام مع بعضهم، أظهرت مجموعات كثيرة منهم قدرًا متوسطًا من الاختلاف الداخلى. وقد تم تقليل هذه الاختلافات الداخلية نتيجة لنقاش لم يزد وقته على خمس عشرة دقيقة. ولاحظ أن هذه الاختبار المبدئى يتضمن فى هذه الحالة ما حدث لأحكامهم المنسوبة لأشخاص مجهولى الأسماء. فإلى أى مدى كانت آراء الأفراد مختلفة قبل أن يتحاوروا معًا، فيما يتصل بهذه القضايا، وذلك بالمقارنة بآرائهم بعد التحاور والمناقشة، لقد أظهر أعضاء الجماعات، فيما ذكروه من أقوال أو أحكام شخصية، قدرًا كبيرًا إلى حد بعيد من الإجماع بعد المناقشة أكثر مما كانوا عليه قبل المناقشة.

- انشقاقات أكبر

يلزم منطقيًا أن النقاش وسَّع الشق أو الصدع بين الليبراليين والمحافظين فى سائر القضايا الثلاث. فقبل النقاش، كانت بعض الجماعات الليبرالية، وفيما يتصل ببعض القضايا، كانت قريبة بدرجة معتدلة من بعض الجماعات المحافظة، ولكن نتيجة المناقشة تمثلت فى إحداث المزيد من التقسيم والتباعد الجاد بينهم.

هنا إذن، إشارة أولية إلى سبب ذهاب الجماعات إلى الشطط والمغالاة أى: إلى التطرف. فعندما يتكلم الأفراد مع غيرهم ممن يشبهونهم فى التفكير، فإنهم يميلون إلى الإسهاب فى الحديث عن آرائهم المسبقة، وإلى أن يفعلوا ذلك بطريقة تخفف أو تقلل من الاختلاف الموجود داخلهم. ونحن نرى أن ذلك يحدث فى الأمور السياسية، وهو يحدث فى العائلات، وفى الشركات، وفى الكنائس، وفى معابد اليهود، وفى المنظمات الطلابية كذلك.

- القضاة الفيدراليون والاختلافات المستقطبة

على امتداد عقود كثيرة العدد، قامت الولايات المتحدة بإجراء تجربة طبيعية استثنائية حقًا، تشتمل على اختبار سلوك الجماعة، والاعتدال أو الوساطة، والتطرفية، وتشتمل هذه التجربة على قضاة فيدراليين، وزعوا- عشوائيًا - فى مجموعات تشبه - نوعًا ما- مجموعات بولدر وكولورادو سبرنجز.

فما الذى نستطيع أن نتعلمه من هذه التجربة؟ إن أوضح درس نتعلمه هو أن القضاة المتشابهين فى التفكير يصلون، وعلى نحو لا يقل عن حال المواطنين العاديين، إلى الشطط والمغالاة، وهذه نتيجة صادمة أو مدهشة، ونظرًا لأن القضاة أناس متخصصون متبحرون فى القانون، فإنه لا يفترض فيهم أن يكونوا بهذه الدرجة من سرعة التأثر بالميول أو النزعات السياسية لرفقائهم.

فى محاكم الاستئناف الفيدرالية، تتكون الهيئات القضائية من ثلاثة قضاة والتشكيلات الممكنة لهذه الهيئات أربعة تشكيلات فقط هى: (أ) ثلاثة قضاة جمهوريين معينون، (ب) ثلاثة قضاة ديمقراطيين معينون، (جـ) قاضيان جمهوريان معينان وقاضٍ ديمقراطى معين، و(د) قاضيان ديمقراطيان معينان وقاض جمهورى معين. وتعد التوزيعات الموجودة فى هذه الهيئات توزيعات عشوائية، كما أن هذه العينة كبيرة جدًا.

لهذا السبب من الممكن اختبار ما إذا كانت أصوات القضاة فى الانتخابات متأثرة بالتشكيلة التى عليها الهيئة القضائية، أى ما إذا كان القضاة الجمهوريون المعينون والقضاة الديمقراطيون المعينون يصوتون

فى الانتخابات بطريقة مختلفة اعتمادًا على ما إذا كانوا يجلسون مع المعينين من الجمهوريين أو الديمقراطيين. هل نلاحظ أى شىء يشبه استقطاب الجماعة بين القضاة الفيدراليين؟

بالنسبة للأهداف الحالية، فإن الأسئلة الرئيسية هى: كيف يدلى القضاة الجمهوريون المعينون بأصواتهم الانتخابية وهم فى هيئات تتكون فقط من قضاة معينين جمهوريين (أى هيئات تتكون الواحدة منها من ثلاثة من الجمهوريين)؟ وكيف يدلى القضاة الديمقراطيون المعينون بأصواتهم الانتخابية وهم فى هيئات تتكون فقط من قضاة معينين ديمقراطيين (أى هيئات تتكون الواحدة منها من ثلاثة من الديمقراطيين)؟ وتعتبر الهيئات المكونة من ثلاثة من الجمهوريين شبيهة قليلاً بجماعات كولورادو سبرنجز فى نزعتها المحافظة، وتعتبر الهيئات المكونة من ثلاثة من الديمقراطيين شبيهة قليلاً بجماعات بولدر فى نزعتها الليبرالية. فهل يتصرف القضاة الفيدراليون كما يتصرف المواطنون فى تجربة كولورادو؟ وبصورة أكثر تحديدًا، قد نتساءل عما إذا كان المعينون الجمهوريون، والموجودون فى الهيئات المكونة من ثلاثة جمهوريين، سيتصرفون بصورة مختلفة عن الجمهوريين المعينين فى هيئات مؤلفة من قاضيين جمهوريين وقاض ديمقراطى أو مؤلفة من قاض جمهورى واحد وقاضيين ديمقراطيين، ونتساءل عما إذا كان المعينون الديمقراطيون الموجودون فى هيئات مكونة من ثلاثة ديمقراطيين، سيتصرفون بصورة مختلفة عن المعينين الديمقراطيين الموجودين فى هيئات مؤلفة من قاضيين ديمقراطيين وقاض جمهورى أو من قاض واحد ديمقراطى وقاضيين جمهوريين. وهل يبدى القضاة المتشابهون فى التفكير أنماطًا متميزة بصفة خاصة فى الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات؟

إن ظاهرة استقطاب الجماعة تخبرنا بما يتوقع. إذ ينبغي أن يبدى كلا المعينين الديمقراطيين والجمهوريين سلوكًا متطرفًا عند وجودهم فى هيئات تكون موحدة، أى فى هيئات مكونة من ثلاثة ديمقراطيين وفى هيئات مكونة من ثلاثة جمهوريين. وحيثما يبدى المعينون الديمقراطيون والمعينون الجمهوريون اختلافًا عامًا فى أنماط الإدلاء بأصواتهم الانتخابية، فإنه سوف يتم تضخيمه إذا قارنا المعينين الديمقراطيين الموجودين فى الهيئات التى كل قضاتها الثلاثة ديمقراطيون بالمعينين الجمهوريين الموجودين فى هيئات كل قضاتها الثلاثة جمهوريون. ولاختبار هذا الزعم، قد نحتاج إلى مقارنة رقمين هما: (أ) الفارق الإجمالى بين معدلات التصويت الليبرالى للمعينين الديمقراطيين والمعدلات الخاصة بالمعينين الجمهوريين من جهة، و (ب) الفارق بين معدلات التصويت الليبرالى للمعينين الديمقراطيين الموجودين فى الهيئات التى كل قضاتها ديمقراطيون ومعدلات التصويت الليبرالى للمعينين الديمقراطيين الموجودين فى هيئات كل قضاتها جمهوريون. والفارق الأخير – وهو الفارق بين المعينين الديمقراطيين الموجودين فى هيئات مكونة من ثلاثة ديمقراطيين والمعينين الجمهوريين الموجودين فى هيئات مكونة من ثلاثة جمهوريين – نقول هذا الفارق الأخير يمكن أن يسمى " الفارق المستقطب".

وفى مجالات لا عد لها، يبدى المعينون الديمقراطيون أنماطًا ليبرالية – بالذات – فى إصدار الأحكام القضائية عند وجودهم فى هيئات كل قضاتها من الجمهوريين فإذا جمعنا كل الحالات التى تظهر فارقًا إيديولوجيًا بين هاتين المجموعتين، فإننا نجد فارقًا مقداره ١٥ فى المائة بين المعينين الجمهوريين والمعينيين الديمقراطيين فى معدلات الأحكام القضائية الليبرالية.

وهذا فارق كبير إلى حد ما. بيد أن الفارق المستقطب أعلى من ذلك بمراحل، فمقداره ٣٤ فى المائة!

كانت طريقتنا في البحث بسيطة تمامًا. فقد جمعنا عشرات آلاف الأحكام القضائية، والتى صدر معظمها فى المسائل المختلف عليها إيديولوجيا، والتى منها قضية التفرقة العنصرية، وقضية التفرقة بين الجنسين، وقضية التفرقة بسبب العجز البدنى، وقضية العمل الإيجابى، وقضية تمويل الحملات، وقضية حماية البيئة، وقضية العمل، وقضية حرية الكلام. واستعملنا اختبارت بسيطة أو واضحة لا خلاف عليها نسبيًا لتكويد أو ترميز القرارات أى: الأحكام القضائية بتسمية الحكم باسم "ليبرالى" أو "محافظ". مثال ذلك، أننا أعطينا الكود "ليبرالى" لحكم قضائى يؤيد وجود مدعٍ قانونى من الأمريكيين ذوى الأصل الأفريقى، محتجًا على ذلك بوجود التفرقة العنصرية. وبالمثل، فإننا أطلقنا وصف "الليبرالى" على حكم قضائى يتلاءم مع الصورة الذهنية النمطية الأمريكية السياسية المألوفة، باعتباره تأييد برنامج للعمل الإيجابى، أو تقييد تمويل الحملات، أو تأييد قرارٍ تنظيمى للبيئة عورض باعتبار أنه مغال فى تعديه على الحقوق، أو تأييد قرار " للمجلس القومى لعلاقات العمل لصالح الموظفين، نقول: أطلقنا وصف "الليبرالى" على أى حكم قضائى يتلاءم مع هذه الصورة الذهنية و"المرتبطة بالليبرالية". والحقيقة، أن هذه الاختبارات لما إذا كان أحد الأحكام القضائية ليبراليًا من عدمه تعد اختبارات بسيطة غير دقيقة، إلا أنه نظرًا لأن العينة كبيرة إلى حد بعيد، فإننا قادرون على تمييز الأنماط الواضحة والكاشفة، وبذلك لا يبدو أن بساطة الاختبارات تسببت فى إدخال أشكال من التشويه للواقع.

تأمل – وحسب– فى عدد قليل من الأمثلة الأساسية [٩].

- في القضايا المتصلة بحقوق الجلسيين المثليين، فإن الفارق الإجمالي بين المعينين الجمهوريين والمعينين الديمقراطيين هو ٤١ في المائة – حيث يصدر المعينون الجمهوريون أحكامًا قضائية لصالح حقوق الجلسيين المثليين ١٦ في المائة من المرات مقارنة بنسبة مئوية قدرها ٥٧ للمعينين الديمقراطيين.

لكننا حين نقارن كيف يقوم المعينون الديموقراطيون بإصدار الأحكام وهم موجودون في هيئات مكونة من ثلاثة قضاة ديمقراطيين، حين نقارن ذلك بالطريقة التي يتبعها المعينون الجمهوريون وهم موجودون في هيئات مكونة من ثلاثة قضاة جمهوريين، يتبين أن الفارق المستقطب أكثر من الضعف فمقداره ٨٦ في المائة! وفيما لدينا من مجموعة البيانات، نجد أن المعينين الجمهوريين يصدرون أحكامًا مؤيدة لحقوق الجلسيين المثليين بمعدل ١٤ في المائة من المرات التي يكونون فيها مع هيئات مكونة من ثلاثة قضاة من الجمهوريين، مقارنة بنسبة ١٠٠ في المائة بالنسبة للمعينين الديمقراطيين عندما يكونون مع هيئة مكونة من ثلاثة قضاة من الديموقراطيين.

- في القضايا التي تتضمن التمييز القائم على العجز البدني، فإن الفارق الإجمالي هو ١٨ في المائة؛ والفارق المستقطب يصل إلى قريب من الضعف، فهو نحو ٣٣ في المائة.

- في القضايا المتضمنة لقرارات أصدرتها وكالة حماية البيئة، فإن الفارق الإجمالي في إصدار الأحكام المؤيدة هو ١٥ في المائة؛ والفارق المستقطب لا يقل عن ٣٦ في المائة.

- في القضايا المتصلة بالعمل الإيجابي، فإن الفارق الإجمالي هو فارق ملحوظ يصل إلى ٢٨ في المائة؛ والفارق المستقطب هو فارق ضخم يصل إلى ٤٩ في المائة.
- في القضايا المتعلقة بالتفرقة بين الجنسين، فإن الفارق الإجمالي هو ١٧ في المائة؛ والفارق المستقطب قريب من ثلاثة أضعاف هذه النسبة، حيث يصل إلى ٤٦ في المائة.

إذا أخذ هذا الدليل كله جملة واحدة، فإن العبرة منه لا يخطئها أحد. فليس من الأمور المدهشة تمامًا أن نكتشف أن المعينين الجمهوريين والمعينين الديمقراطيين يبدون أنماطًا في إصدار الأحكام تختلف بصورة ملحوظة، فإن الفارق الإجمالي أصغر بكثير من الفارق المستقطب، وهو الفارق بين الطريقة التي يتبعها المعينون الجمهوريون في إصدار الأحكام عند جلوسهم مع معينين جمهوريين فقط، والطريقة التي يتبعها المعينون الديمقراطيون في إصدار الأحكام عند جلوسهم مع معينين ديمقراطيين فقط ووفقًا لهذا الحساب، فإن القضاة لا يبدون مختلفين اختلافًا كبيرًا عن المواطنين الموجودين في كولورادو سبرنجز وبولدر. إذ إنهم عند جلوسهم مع القضاةالآخرين ممن يشبهونهم في التفكير، فإنهم يصبحون أكثر تطرفًا.

تحفظ على ما فات: في الوقت الذي يكون فيه هذا النمط هو النمط المحوري في كثير من مجالات القانون، فإنه توجد ثلاث مجالات لا يتأثر فيها القضاة بتشكيلة الهيئة القضائية. وفي هذه المجالات، يقوم كل من المعينين الجمهوريين والمعينين الديمقراطيين بإصدار نفس الأحكام، سواء أكانوا من الأقلية أم كانوا جزءًا من الهيئة القضائية الموحدة التي كل قضاتها جمهوريون أو ديمقراطيون. وهذه المجالات الثلاثة هي: الإجهاض، وعقوبة الإعدام، والأمن القومي. فمن الواضح أن لدى القضاة في هذه القضايا

قناعات من القوة بحيث تجعلهم لا يتأثرون بما يقوله أو يفعلــه زملاؤهــم. وسوف أعود لهذه المسألة لاحقاً؛ فهى تقدم ملاحظة تحذيريــة مهمــة عــن دعاوى المحورية. ففى بعض الأحيان يشعر الأفراد شعورًا قويًا بحق، كمــا أن آراء الآخرين لا تؤثر عليهم.

- معاقبة المخطئين

هيا بنا الآن ننتقل إلى سلوك المحلفين، وبالذات، إلى الآثار التى يحدثها التشاور والتداول بينهم على الأحكام الجزائية الخاصة بالتعويــضات: وهــذا مجال فنى إلى حد ما، إلا أن فهما لحقيقة هذه التأثيرات سوف يؤدى، وهذا ما أرجوه، إلى إلقاء الضوء على عدد من القضايا التى تشتمل علــى الــسياسة والقانون، ولكنها تمتد إلى ما وراء تلك القضايا تمامًا.

فى القانون الأمريكى، تعد الأحكام الجزائية للتعويــضات ذات أهميــة كبرى فى حد ذاتها. ويساور الشركات قلق عظيم من الأحكام الجزائية غيــر المتوقعة والتى تقضى بصرف تعويضات مرتفعة جدًا فى بعــض الأحيــان، والتى تصل إلى مئات الملايين من الدولارات. فقد حاول كثير من الأفراد أن يبتكروا أساليب لتطويع الأحكام القضائية لصالحهم، كما أن المحكمة العليا قد اهتمت اهتمامًا فاعلاً بهذه المشكلة. والأمر الأهم مــن ذلــك، أن الأحكــام الجزائية للتعويضات توفر لنا مجالاً ممتازًا ندرس فيه نتائج الحوار والنقاش على سلوك الجماعة، وخاصة بالنسبة للأفراد الذين يبدون درجة من الحنــق أى: الغضب الشديد، كما أن الحنق يمثل أحد اهتماماتى فى هذه الدراسة.

عندما يبدأ أعضاء الجماعة وهم على درجة ما من الحنق، فهل تصبح الجماعات أكثر حنقًا أو أقل حنقًا بهذا الشكل؟ أى: بعد أن يتناقــشوا.

إن الإجابة تعتمد على الحركات الاجتماعية والاحتجاجات السياسية ذات الأنواع الكثيرة الاختلاف، وكما سوف نرى، تعتمد الإجابة كذلك على الضغائن، والصراع الإثنى، بل حتى على السلوك العائلى. فعندما يتم إزعاج طفل بالمدرسة عن طريق تعريضه لسلوك ظالم، فكيف نتصور رد فعل الأبوين؟ وعندما يغضب زوج من ظلم وجِّه إليه فى مكان العمل، فكيف ستتصرف الزوجة، وكيف سيؤثر عليه رد فعل زوجته؟

لكى نفهم حقيقة التجارب التى أجريت على هيئة المحلفين، والتى أجراها "دانيل كاهنمان: Daniel Kahneman" و"دافيد سكادى:- David Schkade"-، يتوجب علينا أن نبدأ بدراسة الأفراد لا الجماعات، الذين يقدر عددهم بنحو ١٠٠٠ فرد، والذين طلب منهم أن يسجلوا أحكامهم المتعلقة بالإساءة أو الإصابة التى تصيبهم من جانب شركة مدعى عليها[١٠]، أى: رفعت عليها دعاوى من العمال يطالبونها فيها بالتعويض المناسب. وكان الهدف هو فهم لماذا تكون الأحكام القضائية الجزائية بالتعويضات بهذه الدرجة من الأختلاف: لماذا تصل بعض هيئات المحلفين إلى الحكم بتعويضات مقدارها ١٠٠٠٠٠ دولار، وتصل غيرها إلى بتعويضات بمليون دولار، وذلك فى دعاوى قضائية تبدو متشابهة إلى حد ما؟ وقد طلبنا من الأفراد أن يسجلوا أحكامهم على ثلاثة مقاييس مختلفة. كان المقياس الأول مقياسًا محدودًا أو محصورًا بين القيمة (صفر) والقيمة (٦)، وهى القيم أو الدرجات التى تشتمل على درجة الإساءة أو الإصابة الموجودة فى سلوك الشركة معهم. وكانت كل نقطة أى كل درجة على امتداد هذا المقياس مبينة بوضوح، بحيث إن الدرجة "صفر" كانت تعنى "أن سلوك الشركة لم يكن سيئًا على الإطلاق" والدرجة (٦) تعنى أن سلوك الشركة كان فى غاية الإساءة والإضرار ". كما كان المقياس الثانى محدودًا أو محصورًا بين القيمة

(صفر) إلى القيمة (٦)، لكن هذا المقياس كان يقيس مستوى العقوبة التي يرغب العمال في إنزالها بالشركة، وكانت القيمة (صفر) فيه تعني أن العامل لا يرغب في إنزال أي عقوبة على الشركة، وكانت القيمة (٦) تعني إنزال "عقوبة قاسية للغاية" بالشركة. وكان المقياس الثالث هو المقياس غير المحصور، والمتعلق بالدولارات التي تدفع بوصفها كتعويضات. وكان يقيس: هل ينبغي أن تلزم الشركة بدفع ١٠٠٠٠٠ دولار؟ أم ١٠٠٠٠٠٠ دولار؟ أم ١٠٠٠٠,٠٠٠ دولار؟ أم أكثر من ذلك؟

إن نتائج دراستنا الجوهرية، والتي تشتمل على دعاوى الإصابات الشخصية، كانت نتائج صريحة أو مباشرة، فقد اتفق الأفراد على مدى الإصابة الموجودة في الإساءة التي لحقتهم من الشركة. كما أنهم متفقون في مسألة القسوة المناسبة في العقوبة المذكورة في المقياس المحصور الثاني، إلا أن المقياس الخاص بالدولارات التي تصرف باعتبارها تعويضات يخلق قدرًا كبيرًا من الاضطراب والتشويش.

لتحديد هذه الدرجات، استعملنا تقنية أو طريقة بسيطة، تم فيها تجميع إجابات الأفراد لتكوين هيئات محلفين إحصائيين، يكون حكمهم هو الحكم الذي اختاره العضو ذو الاختيار الأوسط. وبعد القيام بهذا الإجراء، وجدنا أن الجماعات الصغيرة المكونة من ستة أفراد، أو ستة محلفين إحصائيين، يتفقون عادة فيما يتصل بدرجة الإساءة وفيما يتصل بتناسب العقوبة. والأمر المهم هنا، أن هذا الاتفاق ينتشر عبر الاختلافات الديموجرافية. وبسحر الكمبيوتر، نستطيع أن نخلق هيئات محلفين إحصائيين من كل الأنواع التي يمكن تخيلها، كأن يكونوا كلهم ذكورًا، أو كلهم إناثًا، أو كلهم من البيض، أو كلهم من ذوي الأصول الإسبانية، أو كلهم من الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية، أو كلهم من الأغنياء، أو كلهم من الفقراء، أو كلهم من المتعلمين

تعليمًا جيدًا، أو كلهم من ذوى التعليم البسيط، فالديموجرافيا أى: الاعتبارات السكانية ليس لها تأثير مهم. إذ إن كل هذه الجماعات تتفق بصورة جوهرية مع بعضها.

وعلى العكس من ذلك، فإن هيئات المحلفين الإحصائيين تبدى قدرًا كبيرًا من الاختلاف فيما يتصل بالتعويضات التى تصرف بالدولارات. فالحكم الذى تحكم به هيئة من المحلفين بشأن التعويضات ليس متنبئًا جيدًا بالأحكام التى تحكم بها الهيئات الأخرى من المحلفين، لكن الديموجرافيا ليست هى مصدر هذا التغير أو الاختلاف، فليس الأمر كما لو كان الأفراد الأغنياء لا يتفقون مع الأفراد الفقراء، أو أن الأفراد المسنين لا يتفقون مع الأفراد الشباب، أو أن الرجال لا يتفقون مع النساء. فالمشكلة هى المقياس الخاص بالدولارات. والسبب فى هذا الاختلاف يرجع إلى أنه مهما كانت المجموعة السكانية للأفراد، فإنه لا يتوافر لهم إدراك واضح للطريقة التى بها يترجمون مقاصدهم من هذه الجزاءات، وذلك بتسجيلها على أحد المقاييس المحددة، وعلى المقياس الخاص بالدولارات. فهل العقوبة التى تأخذ القيمة (٦) تعنى تعويضًا قدره ٥٠,٠٠٠ دولار، أم ١٠٠,٠٠٠ دولار، أم مليون دولار، أم ١٠ ملايين دولار، أم أكثر فالأفراد لا يعرفون هذا الأمر تمامًا. فمقياس الدولارات، والمحصور عند نهايته الدنيا بالقيمة "صفر دولار" والذى ليس له – من الناحية الفعلية – حد عند النهاية العليا، ينقصه وجود المعالم المحددة التى تعطى معنى لمختلف "النقاط" الموجودة على هذا المقياس، لهذا السبب، فإن الأفراد الذين يتفقون على أن الحالة تقع على النقطة (٤) على مقياس يبدأ بالنقطة (صفر) وينتهى بالنقطة (٦) قد لا يتفقون على ترجمة هذا الرقم ترجمة مناسبة إلى رقم مناظر له من النقود أى: الدولارات.

إن هذه الدراسة التى انتهيت حالاً من تفصيل القول فيها، تضمنت جهذا لتجميع الإجابات الفردية، ولم تتضمن النقاش الجماعى. فإن أردنا أن نفهم حقيقة: كيف تتصرف هيئات المحلفين فعلاً، أو: كيف يتطور الغضب أو الحنق فى الحياة الواقعية، فإن هذا بمثابة إحباط عظيم.

لذلك، قمنا بإجراء تجربة تتبعية، حيث اشتملت على نحو ٣٠٠٠ مواطن تتوافر فيهم شروط المحلفين، بجانب ٥٠٠ من هيئات المحلفين المتناقشين مع بعضهم، وكانت كل هيئة مكونة من ستة أفراد. وكان هدفنا أن نعلم إلى أى مدى يمكن للأفراد أن يتأثروا بالاطلاع على آراء الآخرين وبمناقشتها. وإليك بيان بالطريقة التى عملت هذه الطريقة وفقًا لها. فقد قرأ الأفراد عن دعوى قضائية شخصية للتعويض عن الإصابة التى لحقت بمقدم الدعوى، وكان ما قرأوه يشتمل على الحجج التى قدمها كلا الطرفين، وهما الشركة والعامل: وقد طلب كذلك من الأفراد أن يسجلوا، وقبل أن يتناقشوا معًا فى شأن هذه الدعوى، نوعًا من "الحكم الشخصى بالعقوبة"، وكان تسجيل هذا الحكم – فى هذه الحالة – يتم على مقياس يبدأ (بصفر) وينتهى ب(٨)، حيث كان الصفر يشير للمرة الثانية إلى أن الشركة المدعى عليها ينبغى ألا تعاقب مطلقًا، وكان الرقم (٨) يشير إلى ان الشركة المدعى عليها ينبغى أن تعاقب بأقصى درجات القسوة. وبعد أن تم تسجيل الأحكام الشخصية بالعقوبات، أى: التى يمثل فيها كل حكم رأى صاحبه شخصيًا، صنف المحلفون فى مجموعات تتكون الواحدة منها من ستة أشخاص، وطلب من كل مجموعة أن تتناقش أو تتداول الرأى فيما بين أعضائها للوصول إلى "حكم قضائى عقابى" مجمع عليه. وقد تنبأ كما تنبأنا بأن هؤلاء الأفراد سيتوصلون إلى شىء من التسوية، وبأن هذه الأحكام القضائية التى تصدرها

هيئات المحلفين سوف تمثل الحد الأوسط للأحكام العقابية الشخصية للمحلفين بصفتهم الفردية، إلا أن تنبؤك هذا سيكون خطأ فادحًا.

فبدلاً من ذلك، فقد تمثلت النتيجة التى أحدثها النقاش فى خلق نوع من الانزياح أى: الانتقال نحو القسوة بالنسبة للمحلفين الذين سبق أن اختاروا العقوبة الكبيرة، وخلق نوعًا من الانزياح نحو اللين بالنسبة للمحلفين الذين سبق أن اختاروا العقوبة البسيطة. فعندما كان الحكم الأوسط للمحلفين بصفتهم الفردية هو القيمة (٤) أو ما فوقها فى المقياس ذى الثمانى نقاط، فإن الحكم القضائى لهيئة المحلفين مجتمعين معًا آل به الأمر إلى أن أصبح أعلى من ذلك الحكم الأوسط. تأمل على سبيل المثال، قضية تشتمل على حالة رجل كاد أن يغرق بسبب ركوبه يختًا تم تشييده بطريقة معيبة. فقد كان الأعضاء المحلفون بصفتهم الشخصية لكل عضو منهم غاضبين من فكرة وجود يخت مبنى بطريقة معيبة، وكانت مجموعات المحلفين بصفتهم الجمعية أشد غضبًا من متوسط غضب أعضاء هذه المجموعات. لذلك أصبحت المستويات المرتفعة فى الغضب والاستياء وفى الأحكام العقابية القاسية أعلى وأشد قسوة نتيجة للتفاعلات الجماعية.

ولكن عندما كان الحكم المتوسط للأعضاء المحلفين بصفتهم الفردية تحت القيمة (٤) كان الحكم الذى أصدرته هيئة المحلفين بصفتها الجمعية تحت ذلك الحكم المتوسط بصورة نموذجية. تأمل قضية تشتمل على حالة أحد المتسوقين الذى أصيب بسبب سقوطه عندما توقف المصعد فجأة. كان الأعضاء المحلفون بصفتهم الفردية غير منزعجين كثيرًا بسبب هذه الحادثة، حيث كانوا يرونها مجرد حادثة وليست قضية خطأ جسيم. وفى مثل تلك القضايا، كانت هيئات المحلفين أكثر تساهلاً من أعضائها من المحلفين

بصفتهم الفردية، وإليك، إذن، درس عما يحدث عندما يناقش الأفراد قضية ارتكاب الخطأ. فحين يكون أعضاء الجماعة قلقين، فسوف يكون من المحتمل أن يزدادوا قلقًا بعد أن يتحدثوا إلى بعضهم بعضًا. وحين يرى أعضاء الجماعة بصفتهم الفردية أن ما حدث ليس شأنًا مهمًا، فإنهم سوف يرون - في العادة - أن ما حدث لا يعد شيئًا أساسًا بعد فترة من النقاش.

وفى حالة التعويضات التى تصرف بالدولارات، وعلى النقيض مما سبق، كانت هيئات المحلفين أشد قسوة - وبصفة مضطردة - فى أحكام التعويضات من المحلف المتوسط. وحتى التعويضات الصغيرة كانت - بصورة نموذجية - أعلى من التعويض الذى اختاره المحلف المتوسط قبل أن يبدأ أفراد الهيئة الكلام مع بعضهم. وهنا نجد النتيجة الأشد إثارة للدهشة، وهى؛ أنه: فى ٢٧ فى المائة من القضايا، كان ما تصدره هيئة المحلفين من حكم التعويض، كان أقل تقدير له، كبيرا بنفس درجة كبر الحكم الذى أصدره أعضاء نفس هذه الهيئة قبل أن يتداولوا الرأى فيما بينهم. ومن ثم، كان الانزياح نحو المزيد من القسوة، والمزيد من التطرف، يتم الإعلان عنه - بصفة خاصة - عن طريق الدولارات التى تصرف بوصفها تعويضات. وبهذه المناسبة، فإن هذه النتيجة تستتبع أن التعويضات المالية التى قضت بها هيئات المحلفين الذين تداولوا الرأى بينهم كانت أبعد وأبعد عن إمكان التنبؤ بها من التعويضات التى قضت بها هيئات المحلفين الإحصائية.

والآن دعنى أؤكد ما توصلنا إليه من نتيجتين رئيسيتين، فالنتيجة الأولى هى؛ أنه عندما يبدأ الأفراد بمستوى مرتفع من الغضب ويميلون إلى نوع ما من ردود الفعل العدوانية، فإن الجماعات تكون أشد عدوانية من

الأفراد. والنتيجة الثانية هى؛ أنه فيما يتصل بالتعويضات المالية، فإن هيئات المحلفين تكون أكثر تطرفا – وبصورة ملحوظة – من أعضائها من "أفراد" المحلفين.

- الإقدام على المخاطر

ما الذى يحدث عندما يقوم الأفراد الميالون للمجازفات أو المخاطر بالكلام مع أفراد آخرين ميالين للمجازفات؟ الإجابة هى أنهم يصبحون أشد ميلاً لاقتحام المخاطر[١١].

تأمل، مثلاً، الأسئلة التى تدور حول الالتحاق بعمل جديد، أو الاستثمار فى بلد أجنبى، أو الفرار من معسكر لأسرى الحرب، أو السعى للمنصب السياسى[١٢]. فإنه، فيما يتصل بكثير من القرارات، يصبح كثير من أعضاء الجماعات التى تتحاور فيما بينها أشد ميلاً – وبصورة ملحوظة – لاقتحام المخاطر بعد فترة وجيزة من المناقشات الجمعية. وعلى أساس مثل هذا الدليل، أصبح قاعدة أن نعتقد أو نصدق أن تداول الرأى تسبب فى إيجاد نزعة مضطردة نحو الخطر، تؤثرعلى امتداد فترة زمنية ملحوظة، كان يظن أن النتيجة الرئيسية أو الكبرى لنقاش الجماعة فيما بينها هى إنتاج تلك النزعة نحو الخطر، وهى فكرة من شأنها أن تؤثر على جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية، وذلك لأن الغالب على الجماعات أنها تطالب بتقرير ما إذا كانت ستقامر، أم تقرر بدلاً من ذلك، أن تأخذ جانب الحذر والاحتياط. لكن الدراسات الأخيرة جعلت هذه النتيجة محل شك بالغ. بل وصل الأمر بهذه الدراسات إلى أنها أثارت السؤال عما إذا كانت الثقافة، وليست ديناميات الجماعة، هى المسئولة عن هذا النزوع نحو المخاطر. ففى كثير من نفس المجالات التى أبدى فيها الأمريكيون نزوعًا نحو الخطر، أبدى المبحوثون اليابانيون نزعة نحو الحذر[١٣]. وفى معظم الموضوعات التى ذكرناها

حالاً، أدى التحاور وتداول الرأى بمواطنى تايوان إلى أن يصبحوا أقل ميلاً للخطر - وبصورة ملحوظة - مما كانوا عليه قبل أن يبدأوا الكلام. كما أن هذه النزعة نحو الحذر لم تكن مقصورة على التايوانيين. فبين الأمريكيين، أدى التحاور أحياناً إلى إحداث نزعة للحذر بالمثل، فالأفراد المعارضون للمخاطرة أصبحوا أكثر عزوفاً عن الإقدام على مخاطر معينة بعد أن تكلموا مع بعضهم بعضاً(٤٤). ويوجد مثالان رئيسيان عن أشكال النزوع نحو الحذر، هما: قرار المرء هل يتزوج أم لا، وقراره هل يسافر بالطائرة رغم شعور المرء بآلام فى بطنه، وهو الأمر الذى قد يحتاج إلى عناية طبية. ففى هاتين الحالتين انتقل أعضاء الجماعات التى تتحاور فيما بينها إلى الأخذ بالمزيد من الحذر.

للوهلة الأولى، بدا من العسير التوفيق بين هاتين النتيجتين المتضاربتين، ولكن نبين أن هذا التوفيق أمر بسيط: فقيمة أو درجة المتوسط الموجودة قبل التحاور هى أفضل مؤشر ينبئنا باتجاه الانزياح (٤٥)، فعندما يكون أعضاء الجماعة ميالين نحو الإقدام على الخطر، فسوف نلاحظ نزوعاً للخطر. وعندما يكون الأعضاء ميالين نحو الحذر، فسوف نلاحظ نزوعاً للحذر ويترتب على ذلك أن الفارق الشديد بين المبحوثين الأمريكيين والمبحوثين التايوانيين ليس ناجماً عن أى فارق ثقافى فى الطريقة التى تتصرف الجماعات بها، إنما ينجم عن فارق فى قيم المتوسطات الموجودة قبل التحاور لكل من الأمريكيين والتايوانيين فيما يتصل بالسؤال الأساسى (٤٦). إذ إن الأمريكيين عندما يبدون متوسطاً سابقاً على التحاور يقع فى جانب الحذر، فإن تحاورهم ينقلهم فى اتجاه المزيد من الحذر، ونفس هذا الكلام يصدق على التايوانيين. وعندما تبدى الجماعات الأمريكية نزوعاً نحو الخطر، فتبدى الجماعات التايوانية نزوعاً نحو الحذر، فمرجع ذلك لا يعدو أن يكون فارقاً

فى ميولهم الأصلية. ومن ثم فإن النزوع للخطر والنزوع للحذر يندرجان كلاهما تحت فئة عامة من استقطاب الجماعة.

إنه من الأمور المغرية أن نتساءل عما إذا كان استقطاب الجماعة ثمرة من ثمار ثقافات معينة وأنماط معينة أم لا، إلا أنه كما سبق أن أشرت إليه، لا توجد أمة على سطح الأرض ثبت عدم وجود استقطاب الجماعة فيها. ومع ذلك، سوف أعود إلى بعض الطرق الخاصة بإحداث التعادل مع هذه الظاهرة.

فى معمل اختبارات السلوك، تمت البرهنة على وجود استقطاب الجماعة في سلسلة واسعة من السياقات (١٧). إلى أى مدى يبدو بعض الناس وسيمين؟ يتسبب التحاور الجماعى فى وصول هذه الجماعة إلى أحكام تتسم بالمزيد من التطرف فى الإجابة عن هذا السؤال. فإن كان الأفراد يتصورون أن امرءًا ما وسيم، فمن الراجح أن تتصور هذه الجماعة أن هذا الشخص جذاب إلى أبعد الحدود (١٨). ولا شك أن نجوم السينما يستفيدون من هذه العملية. ويحدث استقطاب الجماعة كذلك فى حالة المسائل القائمة على وقائع غامضة كمسألة: أين توجد مدينة سدوم بمنطقة البحر الميت تحت مستوى سطح البحر(١٩). بل وصل الأمر باللصوص الذين يسطون ليلاً على المنازل إلى أن يبدوا نزوعًا فى اتجاه الحذر عندما يناقشون ما ينوون القيام به من جرائم فى المستقبل(٢٠). وفى إحدى نتائج البحث الكاشفة، والتى تقع عند تقاطع علم النفس الاجتماعى بعلم النفس المعرفى، وجد أن الجماعات تقع فى مقدار أكبر، وليس فى مقدار أقل، من "الأخطاء المتعلقة بالربط بين الأشياء"، حيث تعتقد هذه الجماعات أن " أ " ومعه " ب " يكونان أرجح صدقًا من " أ " وهنا نقول: إن هذه الجماعات وجد أنها تقع، من حيث هذه الأخطاء، فى مقدار أكبر مما يقع فيه الأفراد عندما تكون معدلات خطئهم عالية، وذلك

على الرغم من أن أخطاء الجماعات تكون أقل عندما تكون معدلات الأخطاء الفردية منخفضة[٢١].

للوصول إلى إدراك لقوة استقطاب الجماعة في مجالات القانون والسياسة، أمعن النظر في عدد قليل فحسب من الدراسات الأخرى. فبعد التحاور، يؤول أمر جماعات الأشخاص إلى أن تكون أشد إيغالاً في الميل للاعتراض على السلوك غير المستقيم في ظاهر أكثر مما كان عليه حال العضو المتوسط فيها قبل أن يبدأ النقاش [٢٢]. تأمل، مثلاً، ردود الفعل المتناسبة مع ثلاثة أحداث مختلفة هي: وحشية الشرطة الموجهة للأمريكيين الأفارقة، أي ذوي الأصول الأفريقية، وحرب غير مبررة من حيث الظاهر، والتمييز بين الجنسين من جانب أحد مجالس الأحياء بإحدى المدن. ففي كل واحد من تلك السياقات، جعل التحاور أعضاء الجماعة أرجح ما يكونون في تأييدهم للفعل الاحتجاجي العدواني. فعلى سبيل المثال، انتقل الأعضاء من تأييدهم للخروج في مسيرة سلمية إلى تأييدهم لمظاهرة لا عنف فيها، كأن يعتصموا عند أحد مراكز الشرطة أو عند مجلس المدينة. ومن الأمور المثيرة للأهتمام، أن حجم الانتقال نحو رد الفعل الأشد تطرفًا كان مرتبطًا بالمتوسط الأصلي، فعندما كان الأفراد مؤيدين – في مبدأ الأمر – لإظهار رد فعل قوي، فإن النقاش الذي دار بين الجماعة أدى إلى إحداث نقلة أكبر في اتجاه تأييد المزيد من رد الفعل القوي. وكما سوف نرى، تعتبر هذه النتيجة قاعدة مضطردة داخل هذه الكتابات، أي: الدراسات المشار إليها في أول هذه الفقرة. فالانتقال نحو التطرفية يكون بمعدل أكبر غالبًا عندما يبدأ الفرد العادي بموقف متطرف إلى حد ما[٢٣].

كثيرًا ما يطلق الأشخاص أحكامًا فردية بشأن العدالة والجور، كما أنهم يطلقون تلك الأحكام في جماعات. فما الذي يحدث لأحكامنا المتعلقة بالجور

عندما نتحدث مع بعضنا؟ ينبغى أن تكون الإجابة الآن واضحة، وهى أنه عندما نكون ميالين بصفة فردية للاعتقاد بأن ظلمًا حدث، فإن تناقشنا مع بعضنا سوف يزيد اعتقاداتنا هذه حدة ويجعلنا فى غاية الغضب [٢٤]. وقد كانت الدراسات ذات الصلة بهذا الموضوع واقعية تمامًا. فقد طلب من بعض الأفراد أن يقوموا بأداء مهام مصممة لمحاكاة الأنشطة التى قد تؤدى فى أحد مواقع العمل الاقتصادى كتصنيف بنود الميزانية، وجدولة مواعيد الاجتماعات، والبحث عن إحدى الرسائل التليفونية عبر القنوات الملائمة مع تعيين المستوى الملائم للسرية. وأخيرًا فإن أداء هؤلاء الأفراد الجيد لهذه المهام يمكن أن يؤدى لمكافآت مالية. وبعد أن أتم الأفراد هذه المهام، كانوا قادرين على أن يستفسروا عن الأحكام التى حكم بها المشرفون عليهم وأن يتلقوا منهم إفادة بذلك. وقد بدت بعض إجابات المشرفين فظة وجافية، كأن يقول للفرد مثلاً: "لقد قررت ألا أقرأ رسالتك. فالتعليمات تفوض لى الأمر فى ذلك، لذلك فلا تزعجنى بإرسال أى رسائل أو تفسيرات تتعلق بأدائك لهذه المهمة" كما يقول له: "لو أنك كنت بذلت جهدًا أكبر فى عملك، لكنت قد حصلت على درجة أعلى، لذلك لن أقبل رسالتك عن هذه الدورة".

وقد طلب من الأفراد أن يعطوا درجات للمشرفين عليهم من حيث اتصافهم بصفات متعددة، كالعدالة، والتهذيب، والتحيز، وحسن القيادة. وقد تمت عمليات إعطاء هذه الدرجات فى مراحل زمنية ثلاث، اشتملت المرحلة الأولى على الدرجات التى حكم بها الأفراد بصفتهم الشخصية، واشتملت المرحلة الثانية على الحكم الإجماعى للجماعة، واشتملت المرحلة الثالثة على تقديرات الأفراد بعد المناقشة الجماعية. وقد تبين أن الأحكام التى حكمت بها الجماعة كانت فى سلبيتها، أى: فى انتقادها وغضبها أبعد بمراحل من متوسط الأحكام التى حكم بها الأفراد [٢٥]. فى بعض الحالات، قرر أعضاء

الجماعة أن السلوك فى غاية الجور فعلاً، وذلك على الرغم من أن الأفـراد كانوا يعتقدون أن هذا السلوك على درجة بسيطة من حيث الجور. ومما يثير الاهتمام، أن ما انتهت إليه الجماعات من أحكام نهائية كانـت – وبـصورة نمطية متكررة – أكثر تطرفًا من أحكام الأفراد التى حكموا بها بعد التحاور وتبادل الرأى. لكن هذه الأحكام، أى: أحكام الأفراد بعد التحاور كانت رغـم ذلك أكثر سلبية، ومن ثم أكثر تطرفًا، من أحكامهم الفردية التى حكم بها كل واحد قبل التحاور وتبادل الرأى مع غيره.

تعد هذه النتائج مشابهة بدرجة ملحوظة لتلك النتـائج التـى تتـضمن غضب المحلف، أى: عضو هيئة المحلفين، حيث كانت الجماعـات، وكمـا رأينا، أكثر حنقًا من العضو المتوسط من أعضائها، ونحن الآن لدينا مفتـاح فاعل فى حل لغز مصادر الحركات الاحتجاجية، وهو الموضوع الذى أقـوم باستكشاف معالمه فى الوقت المناسب. أما الآن، فهيا بنـا نحـاول شـرح موضوع استقطاب الجماعة.

الفصل الثانى

التطرف: لماذا ومتى؟

إن هدفى الرئيسى فى هذا الفصل هو؛ الإجابة عن سؤالين: لماذا يميل الأفراد المتشابهون إلى التعصب أو المبالغة؟ ومتى تظهر أفعالهم تلك؟ وكما سنرى فإن الإجابة عن هذه الأسئلة ترتبط بنطاق واسع من القوة الهائلة للسلطات وطبيعة الشر، وفكرة التفكير الجماعى، والتيارات الاجتماعية التى تتحرك من خلالها مجموعات كبيرة من الأفراد فى اتجاهات جديدة فيما يتصل باستثماراتهم، واختياراتهم السياسية وقناعتهم الدينية.

يعتبر تبادل المعلومات الجديدة من أهم أسباب الاستقطاب الجماعى ومفتاح التطرف فى كل أشكاله. فغالبًا ما يحدث ذلك الاستقطاب الجماعى لأن الأفراد يقولون لبعضهم بعضًا ما يعرفونه، وأن ما يعرفونه يتم تحريفه فى اتجاه يمكن التنبؤ به. إنهم عندما يسمعون لبعضهم بعضًا يبدأون الحركة.

افترض أنك فى جماعة من الناس يميلون إلى الاعتقاد بأن إسرائيل هى المعتدى الحقيقى فى الصراع فى الشرق الأوسط، وأن لحوم البقر أكل غير صحى، أو أن زواج مثلى الجنسى هى فكرة جيدة، وفى مثل هذه المجموعة سوف تسمع الكثير من الحجج لإحداث التأثير المطلوب، وبسبب التوزيع الأولى للأداء فسوف تسمع وجهات نظر معارضة أقل نسبيًا. ومن المرجح جدًا أنك تكون قد سمعت بعضًا، وليس كل، الحجج أو البراهين التى تنبثق من خلال المناقشة. وبعد أن استمعت إلى كل ما يقال فقد تتحول على الأرجح

فى اتجاه التفكير فى أن إسرائيل هى المعتدى الحقيقى، ومعارضة أكل لحوم البقر وتفضيل النقابات المدنية. وإذا لم تستطع أن تقوم بهذا التحول أو التغيير - وحتى إذا كنت غير مقتنع بما يفكر فيه الآخرون - فإن معظم أعضاء الجماعة من المحتمل أن يتأثروا بما سمعوا.

وعندما تتحرك الجماعات فإنها تفعل ذلك فى جزء كبير منه بسبب تأثير المعلومات[١]. ولحسن الحظ فإن الأفراد يميلون للرد على تلك الحجج أو البراهين التى قدمها أفراد آخرون، كما أن تجمع الحجج، فى جماعة تميل كل الميل فى اتجاه معين، سوف يكون حتمًا ضربًا من الانحراف فى اتجاه الميل الأصلى.

وبالتأكيد يمكن أن يحدث هذا فى جماعة من الأعضاء يميلون إلى دعم التنظيمات الحكومية العدوانية التى تؤثر على التغير المناخى. وسوف يسمع أعضاء الجماعة عددًا من الحجج لتأييد التنظيمات الحكومية العدوانية، وقليل من الحجج سوف يسير فى الاتجاه الآخر. وإذا استمع الأفراد ستكون لديهم نتيجة للمداولات أقوى قناعة فى نفس الاتجاه الذى بدأوا به، فإذا كان الأفراد يشعرون بالقلق إزاء تغير المناخ، فإن الحجج التى يقدمونها تميل بهم إلى قدر أكبر من القلق. وإذا بدأ الأفراد بالاعتقاد بأن تغير المناخ ما هو إلا مجرد خدعة أو أسطورة (خرافة) فإن مناقشتهم سوف تضخم وتكثف هذا الاعتقاد. وفى الواقع فإن شكلاً من أشكال "القبيلة البيئية" يعد جزءًا مهمًا من الحياة السياسية الحديثة. ولا تبالى بعض الجماعات بالمشاكل البيئية التى تهم أو ترهب الآخرين. والسبب الرئيسى فى ذلك هو؛ المعلومات التى يتعرض لها أعضاء الجماعة. فإذا سمعت أن الأغذية المعدلة وراثيًا تنطوى على أخطار جمة، وإذا كان هذا رأيًا واسع الانتشار فى المجتمع الخاص بك، فإنك

قد تنتهى إلى الشعور بالرعب والخوف. أما إذا لم تسمع شيئا عن المخاطر المرتبطة بالأغذية المعدلة وراثيا - وربما باستثناء أن هناك بعض المتعصبين الخائفين - فسوف تسخر من خوفهم. وعندما تتحرك الجماعات فى الاتجاهات الخطرة - نحو القتل والتدمير - فإن هذا يرجع فى الغالب إلى تدفق المعلومات التى تدعم هذه الحركة.

- التعزيز

إن أولئك الذين تعوزهم الثقة، والذين لا يكونون على يقين فيما ينبغى أن يفكروا فيه، هؤلاء وأولئك يميلون إلى تعديل وجهات نظرهم [٢]. افترض أنك سئلت: ما رأيك حول بعض الأسئلة والتى تفتقد المعلومات عنها؟ من المحتمل أن تتجنب التطرف. وهذا هو السبب فى أن الأفراد الأكثر حذرًا الذين لا يعرفون ماذا يفعلون، ويميلون إلى اختيار نقطة الوسط بين القطبين المتطرفين[٣]، ولكن إذا ما شارك بعض الأفراد الآخرين بوجهات نظرهم، فإنهم سوف يصبحون أكثر ثقة بأنهم على درجة من الصواب. ونتيجة لذلك فإنهم من المحتمل يكونون فى الاتجاه الأكثر تطرفا.

وفى طائفة أوسع من السياقات التجريبية، ثبت أن آراء الناس تصبح أكثر تطرفًا لمجرد تأكيدها لوجهات نظرهم الأولية ولتعزيزها، ولأنهم أصبحوا أكثر ثقة بعد التعلم من وجهات نظر شاركوا الآخرين فيها [٤]. هب أنك تشترك مع الآخرين وجهة نظرهم بأن الولايات المتحدة لا يمكن الوثوق بها، وأن هجمات ٩/١١ كانت مسرحية، وأن إيران تمثل تهديدًا خطيرًا لبقية العالم. وإذا كان الأمر كذلك فإن وجهة نظرك الخاصة سوف تستشعر بعمق بعد سماع ما يقوله الآخرون. لاحظ هنا أن هناك صلة واضحة بين هذا التفسير والاستنتاج بأن المسئولين الجمهوريين فى لجنة مكونة من ثلاثة منهم

من المرجح أن تكون أكثر تطرفا من لجنة مكونة مــن اثنــين فقــط مــن الجمهوريين، كما أن وجود تأكيد بالإجماع من اثنين آخرين فإن ذلك ســوف يزيد من الثقة وبالتالى سوف يزيد من التطرف (٥).

ما هو جدير بالملاحظة خاصة أن هذه العملية - لزيادة الثقة وزيــادة التطرف - تظهر غالبًا بنفس الطريقة فى وقت واحد لجميــع المــشاركين. لنفترض وجود مجموعة من أربعة أشخاص تميل إلى عدم الثقة فــى نيّــات الولايات المتحدة فيما يتعلق بالمساعدات الخارجية. وفى حين تتأكــد كــل وجهة نظر من خلال الثلاثة الآخرين، فإن كل عضو يمكن أن يدعى التمسك بوجهة نظره، وبدرجة عالية من الثقة والتحرك فى اتجاه أكثر تطرفًا تظهــر لدى أناس آخرين، وفى نفس الوقت فإن نفس الحركات الداخلية (من التعزيز إلى مزيد من الثقة، ومزيد من الثقة إلى مزيد من التطرف). ولكــن هــذه الخطوات لا تكون مرئية لكل مشارك. إنها تظهر ببساطة وكأن الآخــرين يعقدون وجهة نظرهم من دون أى تردد. ونتيجة لــذلك فــإن مجموعتنــا الصغيرة سوف تستنتج بعد مناقشة ليوم كامل أن نيّات الولايات المتحدة فيما يتعلق بالمساعدات الأجنبية لا يمكن الثقة بها على الإطلاق.

يظهر لنا هذا التحليل أحد الهاديات عن الأهميــة الكبــرى للــشبكات الاجتماعية، على شبكة الإنترنت وفى الحياة العادية، فى خلق حركات مــن مختلف الأنواع. ويمكن أن تعمــل الــشبكات الاجتماعيــة بوصــفها آلات للاستقطاب، لأنها تساعد على تأكيد وجهات النظــر، وبالتــالى تــضخيمها. وأولئك الذين يميلون لدعم قضية أو مرشح يتحمسون جدًا إذا ما تم دعمهــم على نطاق واسع من خلال الشبكة الاجتماعية. ففى عــام ٢٠٠٨، اســتفاد الرئيس باراك أوباما كثيرا من هذه العملية، على النحو الذى خلــق حماسًــا

شديدًا لترشيحه. إن بعضا من هذا كان مخططًا ؛ فقد استخدمت حملته بوعى كامل الشبكات الاجتماعية التى تنشر معلومات مؤيدة. ولكن جانبًا من ذلك كان تلقائيًا. فقد بذل مؤيدو أوباما وبصفة خاصة من الشباب قصارى جهودهم فى الاستفادة من مزايا الشبكات القائمة، ومحاولة خلق أو إنشاء شبكات أخرى من شأنها تحويل الفضول والتأييد المؤقت إلى حماسة شديدة ومشاركة نشطة.

وهناك مثال آخر مختلف تماما عن الإرهاب الإسلامى، والذى يدعم هو الآخر من خلال الشبكات الاجتماعية العفوية، والتى يناقش من خلالها الأفراد الذين يتشابهون فى الرأى والتفكير مع الهموم المترتبة على نتائج العنف المحتملة [٦]. وقد أوضح "مارك سيجمان: Marc Sageman" وهو أحد المتخصصين فى دراسة الإرهاب، أنه فى مراحل معينة فإن التفاعل بين "مجموعة من الأشخاص" يعمل مثل الغرفة التى يتردد فيها صوت الصدى بطريقة تجمعهم بشكل راديكالى وتصاعدى يصلون إلى النقطة التى يكونون فيها على استعداد للانضمام لأى تنظيم إرهابى. ونفس هذه العملية تحدث على شبكة الإنترنت [٧]. والقوة الرئيسية هنا ليست المواقع التى يقرأها الناس بشكل روتينى، ولكنها تتكون من الرسائل الإلكترونية المجمعة (Listservs) والمدونات الإلكترونية (blogs) والمنتديات الخاصة بالمناقشة، والتى لها أهمية حاسمة فى عملية تكوين النزعة الراديكالية [٨]. وكما سنرى بتفصيل أكبر فإن الإرهاب الإسلامى هو نتاج لجزء مهم من استقطاب الجماعة.

هذه أمثلة مأخوذة من المجال السياسى، ولكن هناك الكثير من الأمثلة الأخرى. لماذا تكتسب بعض السيارات شعبية فى بعض المناطق، ولا تكتسب هذه الشعبية فى بلدان أخرى؟ ولماذا تتمتع بعض الأطعمة بشهرة أو يعتقد

أنها صحية فى بعض الأماكن، فى حين أن هذه الأطعمة غير مقبولة أو التى يعتقد أنها غير صحية فى أماكن أخرى؟ يبين "جوزيف هامرش: Joseph Heinrich" والمؤلفون المشاركون معه "أن كثيرًا من الألمان يعتقدون أن شرب المياه بعد تناول الكرز هو نوع من السلوك القاتل، وهم يعتقدون أيضًا أن وضع الثلج فى المشروبات غير الكحولية غير صحى. أما الانجليز فإنهم – مع ذلك – يستمتعون بشرب الماء البارد بعد تناول الكرز؛ ويتمتع الأمريكيون بالمرطبات الثلجية [٩]. لماذا تحب بعض جماعات المراهقين نوعًا من الموسيقى أو تكره نوعًا آخر؟ هنا أيضًا نصادف التأثير الكبير للتواصل.

وهناك مثال أقل إثارة: ففى بعض الدول يعتقد الكثيرون أن الإرهاب العربى غير مسئول عن هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ووفقًا لمعهد "بيو: Pew للأبحاث فإن ٩٣% من الأمريكيين يعتقدون أن الإرهابيين العرب دمروا مركز التجارة العالمى، فى حين أن ١١% فقط من الكويتيين يعتقدون أن الإرهابيين العرب دمروا مركز التجارة العالمى [١٠]. فالواقع أن كثيرًا مما نعتقد فيه أو نحبه أو نكرهه فى الحياة اليومية يتأثر بتبادل المعلومات والتواصل.

– الشهرة

وقبل بضع سنوات، كنت أناقش فكرة الاستقطاب الجماعى مع فيلسوف اشتغل فى مجال حقوق الحيوان والرفق بالحيوان. وهو يلتزم برفع المعاناة عن الحيوانات، ولقد أخبرنى بالقصة التالية: منذ يوم الجمعة من أيام المؤتمر الثلاثة ونحن نتأثر بالإضاءات التى كنت أقدمها، ولكن بحلول يوم الأحد توقفنا عن التفكير المستقيم وأصبحنا أكثر تطرفًا، فبحلول الأحد بدأ الناس فى

القول بأنه لا توجد تجربة عن الحيوانات أدت لمعرفة مفيدة للبشر. وبحلول يوم الأحد أيضًا بدأ الناس فى القول بأنه من غير المقبول أكل اللحوم حتى ولو عاشت الحيوانات حياة طويلة وسعيدة وماتت بأسباب طبيعية. لقد فقد البعض منا بطريقة ما عقله. قال لى الفيلسوف: إن هذا التغير فى وجهة النظر - والذى يشكل نمطًا من الاستقطاب - لم تفسر بصورة كافية عن طريق تبادل المعلومات الجديدة أو عن طريق زيادة الثقة.

وما كان فى ذهن الفيلسوف هو تفسير ثالث، يشتمل على مفهوم المقارنة الاجتماعية. ويبدأ هذا التفسير بالقول: إن البشر يحبون أن يدركوا عن طريق الآخرين بشكل مفضل أو إيجابى، كما أنهم يحبون أن يدركوا أنفسهم أيضًا بشكل أفضل. إن آراءنا تكون إلى حد ما دالة على الطريقة التى نحب أن نقدم بها أنفسنا. صحيح أن هناك بعض الأفراد الذين يهتمون أكثر من غيرهم بالطريقة التى يقدموا بها أنفسهم. ولكننا بمجرد أن نسمع ما يعتقده البعض، فإن البعض منا سوف يكيِّف مواقفه بدرجة قليلة فى الاتجاه المسيطر، وذلك لكى نحافظ على الطريقة التى قدمنا بها أنفسنا. إننا يمكن أن نستوعب (أو نحتوى) ما لدينا من معارضة، كما أننا قد نبدى حماسة أكبر مما نشعر بالفعل لرأى الأغلبية.

ويرغب بعض الناس على سبيل المثال فى الظهور على أنهم ليسوا خجولين أو حذرين، وخاصة فى جماعة ريادة الأعمال التى لا تشيع فيها هذه الخصال فى مقابل تفضيل الجرأة والمخاطرة. ففى مجال الأعمال التجارية والصناعية يرغب الناس غالبا فى أن يظهروا باعتبارهم مغامرين. ففى هذه الجماعة يميل الناس إلى تأطير أوضاعهم، بحيث لا تظهر الخجل أو الحذر، وذلك من خلال المقارنة مع أعضاء جماعة أخرى. وعندما يسمعون ما

يعتقده أو يفكر فيه الآخرون، فإنهم سوف يكتشفون أنهم يشتغلون وضعًا مختلفًا نوعًا ما، بالإشارة إلى الجماعة التى كانوا ينشدونها. وسوف يحدث لهم تحول وفقًا لذلك(١١)، قد يكون هذا لأنهم يريدون أن يراهم الآخرون بطريقة معينة أو أن يريدوا أن يروا أنفسهم بطريقة معينة، وأن هناك ضرورة للتحول ليتمكنوا من أن يروا أنفسهم فى أقصى درجات الجاذبية.

لنفترض على سبيل المثال، أن أعضاء المجموعة يعتقدون أنهم إلى حد ما أكثر معارضة لعقوبة الإعدام من معظم الناس. مثل هؤلاء الناس قد يتحولون قليلاً بعد أن يجدوا أنفسهم فى مجموعة من الناس يعارضون بشدة عقوبة الإعدام، وذلك ببساطة للحفاظ على الطريقة المفضلة التى كانوا يظهرون بها. هل هذا المثال يبدو أنه غير واقعى؟ فلنتأمل السلوك فى الطرف الآخر المتعذر تفسيره، والذى يظهر لدى الكثير من الجمهوريين والديمقراطيين الجدل حول الانتخابات الرئاسية بين بوش وجور فى فلوريدا عام ٢٠٠٠. إن هذا الأمر يمكن أن يختلف حوله العقلاء فى ذلك الوقت. وكل طرف لديه ما يقوله. لكن العديد من الأعضاء من كلا الطرفين يتحدثون ويستمعون بعضهم إلى بعض، وكأن الطرف الآخر يحاول "سرقة الانتخابات". هذا مثال واحد لما يحدث فى الانتخابات الرئاسية كلها تقريبًا. ففى عام ٢٠٠٨، على سبيل المثال، فقد انتهى الكثيرون من مؤيدى السيناتور جون ماكين إلى مواقف لا أساس لها ولا يمكن الدفاع عنها عندما وافقوا بالرأى القائل بأن الإرهابيين قد استغلوا الرئيس أوباما، وأنه ربما يكون خائنًا لوطنه.

وتحـــدث هذه الظاهرة فى العديد من السياقات. فالناس قد لا يرغبون فى أن يبدوا متحمسين جدًا أو مقيدين للغاية فى حماستهم للنزعة

النسوية أو الزيادة فى ميزانية الدفاع الوطنى، وبالتالى فإن وجهات نظرهم تتغيرعندما يرون ما يعتقده أفراد الجماعة الأخرى. والنتيجة هى دفع موقف الجماعة فى اتجاه واحد أو آخر من الأقطاب المتطرفة، وفى اتجاه إحداث التحولات فى الأعضاء الأفراد.

لفهم أهمية المقارنة الاجتماعية، فإن علينا النظر فى النتائج المهمة التى تقول بأن أعضاء الجماعة من أصحاب الوضع المختص يصبحون دائمًا أكثر ترددا أثناء المناقشة مع وتكرار المعلومات التى لديهم[١٢]، أى المعلومات التى لديهم، ولكن الآخرين لا يملكونها. أما أعضاء المجموعة الذين يفتقرون إلى الخبرة أو يعتقد أنهم أدنى فى التسلسل الهرمى، فإنهم يرفضون بشكل خاص التأكيد على معلوماتهم التى يملكونها عبر استمرار المناقشة. وإذا افترضنا أن أحد قادة منظمة دينية قد اشتبه فى ارتكابه مخالفات، فكم من الناس ممن يرتّبون فى درجة أدنى فى استطلاع الرأى الدينى، سوف يصدقون هذا الاتهام؟

وتشير النتائج التجريبية إلى أن أعضاء الجماعة، وخاصة ذوى المكانة المتدنية منهم يبدون حساسية فى تأكيد تقديم المعلومات التى يفتقدها معظم أعضاء الجماعة. والواقع أن الأعضاء ذوى المكانة المنخفضة غالبًا ما يدلون بما لديهم من معلومات بدرجة سريعة جدًا، وذلك لأنهم لا يعرفون مصداقيتها وأهميتها، وجزئيًا لأنهم يخاطرون برفض أو استنكار المجموعة بناءً إذا ما أكدوا على رأى قد ترفضه الجماعة. ويحدث فى كثير من جماعات النقاش أو التفاوض، أن يخاطر أولئك الذين يؤكدون على المعلومات التى يملكونها، وهم يعرفون ذلك جيدًا. ويجب أن نلاحظ هنا أن أعضاء الجماعة يسيئون تقدير أداء الأعضاء الأقل مكانة، ويبالغون فى تقدير أداء الأعضاء الأكبر

مكانة إلى درجة تمنح الأعضاء الأكبر مكانة درجة من الاحترام قد لا يستحقونها فى الواقع[١٣].

وعلى نفس المنوال فإن الذين يناقشون تبادل المعلومات يحصلون على مكافآت فى شكل تعزيز أو تدعيم الإحساس بالكفاءة فى عيون الآخرين وفى عيونهم [١٤]. ومن المهم بل ربما من الواضح، إذا أخبرك شخص عن شيء ما وأنت تعرفه، فأنت قد تميل إلى أن تحب هذا الشخص أكثر قليلاً من المعتاد. ولكن من المهم بل ربما بدرجة أقل وضوحًا: إذا أخبرك شخص ما عن شيء ما أنت تعرفه، فإنك قد تميل إلى أن تحب نفسك أكثر قليلاً من المعتاد نتيجة لذلك! ففى المناقشات التى تتم وجهًا لوجه وفى المهام الكتابية، فإن الناس يعطون تقديرًا أعلى (فيما يتصل بالمعرفة والكفاءة والمصداقية) إلى أنفسهم وإلى الآخرين بعد الحصول على المعلومات التى يعرفونها بالفعل. وتنحصر المشكلة العامة فى أن الجماعات التى تناقش أو تتفاوض غالبًا ما تتحرك نحو استقطابات غير مبررة، لأنها تفشل فى أن تستخلص معلومات تدفعها فى الاتجاهات الصحيحة.

ولنأخذ مثالاً سياسيًا: لقد ظهر فى عهد رئاسة جورج بوش كثير من مظاهر الفشل، وذلك بسبب انتشار ثقافة كانت تشجع الاستقطاب بدلاً من التضارب[١٥]. ولقد عبر "سكوت ماكيدلاند Scott Mcclellan" لقد كانت طريقة بوش فى إدارة المشكلات فى العراق تؤكد على أن هذه الإدارة غير مؤهلة للقيام بهذا العمل. لقد كان معزولاً عن واقع الأحداث على الأرض، وبالتالى فقد يسقط فى فخ الاعتقاد فى رأيه الخاص. لقد فشل فى أن يقضى وقتًا كافيًا يبحث عن مدخلات مستقلة بعيدًا عن عدد كبير من الخبراء، هؤلاء الذين يقفون خلف البيت الأبيض، والذين لديهم خبرة مباشرة فى الأرض

على العراق، وكذلك، وهذا هو الأهم، أولئك الذين لهم وجهات نظر مختلفة، بما في ذلك الذين لا يوافقون على موقفه(١٦).

وعلى النقيض من ذلك فقد وصفت فترة الرئاسة للرئيس "لنكلون: Lincoln" – على أنها فترة تعتمد على فريق صحى من الخصوم(١٧)، فريق اختار فيه لنكلون عن وعى أفرادًا مختلفين، يمكن أن يتحدوا ميوله وأن يضع كل واحد منهم وجهة نظره فى مقابل وجهة النظر الأخرى من أجل إنتاج أكثر الأحكام صوابًا فى النهاية. ولكن لسوء الحظ أو حتى بوصفه نوعًا من التراجيديا، فإن إدارة بوش تحولت إلى فريق من عدم الخصوم الذين تقلص بينهم التنوع والاختلافات إلى أدنى درجة. أما فيما يتصل بحرب العراق وسياسات الضرائب والتنظيمات، والاتفاق، فقد عمل الاستقطاب الجمعى على نحو قوى، ولم يبذل قادة إدارة بوش أى جهود للتغلب عليه. فقد أدت ضغوط الشهرة، وخاصة الضغوط من النوع المزمن، إلى تأكيد التطرف والثقة والاتساق فى الآراء.

وتقدم لنا الإبادة الجماعية مثالاً صارخًا على هذه الظاهرة. فكيف يمكن للناس العاديين أن يتحولوا إلى قتلة؟ تلعب المعلومات دورًا رئيسيًا. فعندما يتم إعلام الناس أن القتل هو حق أو حتى أمرًا ضروريًا، فإن ذلك يكوّن لديهم ميلاً للقتل. وعلى حد تعبير أحد المشاركين فى الإبادة الجماعية فى رواندا: "عندما يعد لك الطريق الصحيح من خلال لاسلكي والمشورة الرسمية، فإنك تطيع بسهولة أكبر حتى لو كان الأمر هو أن تقوم بقتل جيرانك(١٨)، ولكن قائلاً آخر فسر ذلك من خلال التأكيد على أن ضغوط الشهرة تعزز القتل كذلك، ومن ثم قال: "إذا ما أثبت أنك ضعيف العريكة فإنك سوف تجد نفسك محرومًا من المكافآت بسيرك فى الاتجاه الصحيح. وإذا ضحكت لك

الأيام فى يوم ما، فإنك لا تستغرق وقتًا طويلاً حتى تعود أدراجك. وإذا ذهبت إلى البيت خالى الوفاض فإنك سوف توبَخ من زوجتك وأطفالك(١٩).

- وظيفتان للاستقطاب

علينا أن نميز بين تفسيرين مختلفين للاستقطاب الجماعى. فيشير أحد هذه التفسيرات إلى أن الاستقطاب يكشف عن المعتقدات والرغبات الخفية. أما الآخر فإنه يشير إلى أن الاستقطاب يخلق المعتقدات والرغبات الجديدة.

ويذهب التفسير الأول، إلى أن الناس فى كثير من الأحيان يملكون اهتمامات مكبوتة ومتجذرة بعمق. وهذه الاهتمامات قد لا تتحقق عادة على أرض الواقع ؛ فهى عادة تظل غير معلنة. وتكون الاهتمامات محل تفكير، ولكنها فى الحالات الأكثر تطرفًا لا تخضع إلى الفكر، بمعنى أنه لا يمكن التعبير عنها بشكل علنى دون أن تؤدى إلى بعض المخاطر التى ترتبط بعدم القبول أو حتى الاستهجان الاجتماعى (٢٠). ويمكن لنا أن نتخيل أعضاء جماعة يتحدثون بعضهم إلى بعض، وفجأة ظهرت هذه الاهتمامات المكبوتة إلى السطح. وفى الوقت الذى يتبادل فيه الناس الحكايات وردود الأفعال، فإن تلك الاهتمامات التى لا يمكن التفكير فيها تظهر فى العلن. وتكون النتيجة مزيدًا من التطرف، كلما شعر الناس بغضب ظاهر بشأن الممارسات التى تستخدم لإنتاج الصمت الذاتى(٢١). ولننظر فى حالة سياق العجز، حيث يمكن أن يكون هذا أحد التفسيرات المقبولة. فبين الأفراد الذين يعانون من العجز، تظهر الاعتراضات على الوضع القائم، ولكنها تدفن تحت السطح فى بعض الأحيان، ولكن المناقشة تجعلها تطفو فوق السطح.

ويمكن أن نقارن قضية المساواة بين النوع. إن الفكرة الكلية التى تقوم عليها عملية رفع الوعى تصمم من أجل الإشارة إلى وجود صور مدفونة (مكبوتة) من الغضب والاعتراض؛ وبمجرد أن يتكلم البشر بعضهم إلى البعض الآخر؛ يظهر الوعى عندما تطفو هذه الصور من الغضب والاعتراض على السطح. فما كان فى الماضى يكبت، ربما بسبب عدم الرغبة فى اعتراض أولئك الذين يملكون القوة، يظهر الآن فى العلن؛ فالناس يكوِّنون اهتماماتهم نتيجة للمناقشات الجماعية. وهنا نجد أن الذى كان بالأمس غير خاضع للتفكير يظهر الآن فى المجال العام. وهنا نجد أن التدبر والتفاوض يمكن أن يهما فى إحداث شكل من اكتشاف الذات؛ يتحول فيه الصوت الداخلى الصادق إلى شيء محدد المعالم[٢٢]. إن التفاوض (التدبر) يكشف عن شيء كان موجودا من قبل لا محالة.

ويمكن أن نأخذ من قضية التحرش الجنسى كاشفًا فى هذا المجال. فالمرأة لا تحب أن تتعرض للتحرش، ولكن عندما كانت هذه الممارسة غير مجرَّمة، أو حتى قبل أن تأخذ اسمها الذى نعرفه بها، فإن الغضب، الذى كانت تظهره المرأة كان واضحًا. فحالما تتحدث النساء إلى بعضهن بعضًا بشكل مفتوح، وفى خضم الحركة النسائية الباذخة، فإن الجماعة الصامتة تكون على استعداد أن تتحدث فى العلن. ولقد كانت عملية الهجوم على التحرش الجنسى غير واردة فى الماضى. وحتى العبارة نفسها. لم تكن موجودة وفى كثير من الأماكن، الآن يعتبر الدفاع عن التحرش الجنسى هو الأمر الوارد على الذهن (حتى وإن كان هناك عدد كبير من الرجال لا يعتقدون أنه أمر سيئ).

وإذا ما دخلنا إلى التفسير الثانى، فإننا نجد أن الاستقطاب الجماعى يمكن أن يظهر حتى وإن لم يكن شعورًا مبدئيًا بالمعاناة ؛ فليس هناك إلا القليل هنا من المشاعر المكبوتة هذا إذا وجدت أصلاً. إن الموجود هنا فى المقابل هو التأثيرات الاجتماعية، بما فى ذلك الجهود التى تأتى من قبل مهندسى الاستقطاب، تعمل على توسيع نطاق الاعتراضات ونمو الاحتجاج. فبالنسبة لكثير من أعضاء الجامعات فإن الآراء التى تنتهى إلى التطرف يتم تنميتها من خلال الجماعة. فالناس ليس لديهم اعتقاد عميق بأن التغيير فى الطقس يحدث، أو أن أحد المناوئين لهم يمتلك خصالاً أو يمتلك دافعية رديئة. ولكنهم عندما يتحدثون بعضهم إلى البعض الآخر فإن ميلهم لقبول هذا الاعتقاد يميل إلى الاتساع. ونجد هنا أن التدبر أو التفاوض يخلقان لدى البعض أو الكثير منهم سلسلة من الاعتراضات لم تكن موجودة من قبل.

وبإمكاننا أن نتصور هذه الظاهرة فى المجال السياسى، حيث يطور الناس اهتمامًا مبدئيًا بممارسة ما أو بشخص ما، ويميل هذا الاهتمام المبدئى إلى التوسع نتيجة للمناقشات الداخلية. ويصدق هذا التفسير الثانى بشكل جلى على بعض الأفراد ذوى الاحتياجات الخاصة والنساء، كما أننا نصادف أمثلة هامة من مجال التوحد الاثنى. كما أن المعتقدات الدينية والممارسات الدينية تنتج فى العادة وتكتسب انتشارًا بهذه الطريقة.

ويعتبر الاستقطاب الجماعى فى الغالب سلوكًا عقلانيًا من وجهة نظر أولئك الذين يخضعون له. فإذا ما كنت فى جماعة من الناس تناقش التغيير المناخى أو الزواج من نفس الجنس. سوف تسمع حينئذ عددًا من الآراء. وسوف تتأكد ميولك الأولية أو المبدئية. وسوف تجد نفسك تحسب أعضاء

الجماعة الآخرين وترغب فى أن يحبوك. وفى هذه الظروف فإن ظهور الميل التطرفى لديك قد يكون رد فعل عقلانيًا تجاه ما تعلمته وما تهتم به. ومما لا شك فيه أن هذه الصورة الواضحة للاستقطاب - من وجهة نظر أولئك الذين يقومون به - تعكس جانبًا كبيرًا من الحقيقة[٢٣]. فعندما يتحول الناس عبر الجماعات فإنهم يفعلون ذلك فى الغالب لأسباب شعورية. وتنطبق هذه النقطة بشكل كبير وفى بعض المواقف التى لا يكون فيها الشعور هو سيد الموقف؛ ويوحى ذلك بأن المتطرفين السياسيين والمتضررين لفكرة المؤامرة يمكن أن يستجيبوا بشكل عقلانى لما يسمعونه ويتعلمونه[٢٤].

ولكن هناك نقطتين جوهريتين. الأولى مفادها؛ أنه كلما تحركت دافعية الأفراد نحو تكوين اهتمام من اجل شهرتهم الخاصة، فإنه من غير المحتمل أن يتغيروا بسبب المعلومات أو الآراء الجيدة. فإذا كان أولئك الذين يؤمنون بحقوق الحيوانات قد اقتنعوا بذلك ليس بسبب ما سمعوا حول الموضوع، ولكن بسبب أنهم يرغبون فى أن يكونوا كذلك، إذا كان الأمر كذلك فإن تحولهم نحو تبنى هذه الفكرة سوف لا يكون له أى معنى فى إكسابهم قيمًا جديدة. أما النقطة الثانية فمفادها، أن الناس فى معظم الأحيان لا يبدو أنهم يرغبون فى تملك أى إحساس كافٍ بالعزلة، ومن ثم يهربون إلى الجماعات التى يجدون أنفسهم فيها. فإذا ما كنت تتعلم فى جماعة أمورًا حول اليمين أو اليسار فإنك سوف توفق استجاباتك وفقًا لما يقولونه، وذلك بسبب الميول المتقاربة لهذه الجماعة. وإذا ما كان الناس فى الشركة التى تنتمى إليها متفائلين بشأن أمر معين ورافضين لخطط الطرف المنافس، فإنك قد ترغب أن تأخذ فى اعتبارك التحيزات التى تحيط بك. وإذا ما فكر أولئك

الذين يحيطون بالرئيس أو الحاكم أن خطةه اقتصادية معينة تعتبر خطة ممتازة، فإن الرئيس أو الحاكم يجب أن يفكر فى إمكانية أن أعضاء الجماعة يمكن أن يبدأوا فى تعضيد الخطة، ولا يقتصر الأمر على عينه ممثلة من رأى الخبراء.

وفى الواقع فإننى أشك فى أن الاستقطاب الجماعى يظهر فى الغالب بسبب فشل الناس فى تكييف استجاباتهم مع التكوينات المفضلة للجماعات التى يجدون أنفسهم فيها[٢٥]. فنحن نتصرف كما لو كانت تلك الجماعات تعكس كمًا متكاملاً من المعلومات حتى ولو كان هناك تحيز منظم. ويمكن أن يدخلنا هذا الميل فى مشكلات كثيرة فى مناطق عديدة، مؤثرًا على أحكامنا ليس فقط حول السياسة ولكن أيضًا حول الصحة والنقود والدين. والواقع أن الأزمات الاقتصادية تنتج عن عمليات من هذا النوع، حيث تعمل جماعات منها تحيزاتها الخاصة على خلق فقاقيع مضاربة فى العقارات مثلاً وفى أسهم شركات الإنترنت، ومن ثم ينتج الهلع الاقتصادى.

ولنتذكر أهمية التفرقة بين نوعين مختلفين من الاستقطاب: الاستقطاب المخطط والاستقطاب التلقائى. وكما رأينا من قبل فإن هناك بعضًا من الناس الذين يعملون بمثابة مهندسين أو (منظمين) للاستقطاب: وهم يحاولون خلق جماعات من الناس المتشابهين فى عقولهم، وهم على وعى أن هذه الجماعات سوف لا تتشدد فى مواقفها فقط بل تدفعها إلى نقطة أكثر تطرفًا. ولكن قد يظهر الاستقطاب فى بعض الأحيان بشكل تلقائى، عبر الاختيارات الطوعية دون أدنى درجة من التخطيط، ولننظر مثلاً فى أنماط القراءة عند الناس والتى تعكس شكلاً لا تخطئه العين يصف الناس فيه إلى شبكات ليبرالية وأخرى محافظة[٢٦]. أو انظر إلى عالم المدونات نفسه الذى يكشف عن شكلا

مشابه من التصنيف التلقائى والاستقطاب التلقائى[٢٧]. أو انظر مـثلاً إلـى الاختيارات الجغرافية ؛ حيث يمكن أن يميل الناس المتشابهون فكريًا الـذين يتفوقون حول قضايا سياسية إلى السكن فى نفس المنطقـة، وذلـك لأنهـم يرغبون فى فعل ذلك[٢٨]. وسوف نواجه الكثير من الأمثلة حول الاستقطاب المخطط والاستقطاب التلقائى فيما بعد.

- الفائدة البلاغية والمناقشات المنحرفة

- نتيجة غامضة

فى سياق الأحكام التى أصدرتها هيئات المحلفين بشأن التعويـضات التى تصرف للمضارين، تستحق إحدى النتائج اهتماما خاصا. تذكر أن أفراد هيئة المحلفين كان يطلب منهم أن يسجلوا أحكامهم بقيمة هـذه التعويـضات بالدولارات، وذلك قبل أن يتداولوا الرأى فيما بينهم، ويطلب منهم بعـدها أن يتشاوروا مع بعضهم ليتوصلوا إلى أحكام بقيمة التعويـضات بالـدولارات. وتمثلت النتيجة الرئيسية لهذا الإجراء فى جعل جميع التعويـضات تقريبـا تتصاعد فى قيمتها، بمعنى أن التعويض النقدى بالدولارات، والذى يتحكم به هيئة المحلفين كان يزيد – بصورة نمطية متكررة – على متوسط التعويضات التى يحكم بها أفراد المحلفين[٢٩]. وهنا توجد مسألة أخرى. وهى أن تـأثير تداول الرأى فى إحداث الزيادة فى التعويضات النقدية كان أشد بروزا فـى حالة التعويضات المرتفعة. مثال ذلك، أن الحكم الفردى المتوسط، فى القضية التى تشتمل على اليخت المعيب، كان يقضى بدفع تعويض قدره ٤٥٠,٠٠٠ دولار، بينما كان متوسط حكم هيئة المحلفين مليون دولار فى نفـس هـذه القضية. بيد أن التعويضات قد تصاعدت أو ارتفعت كذلك فى حالة الأحكـام الصادرة بتعويضات منخفضة.

ها هنا اللغز الغامض: لماذا ترتفع جميع التعويضات؟ لماذا لا تنخفض التعويضات المنخفضة على الأقل؟ إن تفسيرا مغريا، مما يتماشى مع مفهوم استقطاب الجماعة، مؤداه؛ أن أى تعويض متوسط إيجابى يوحى بوجود نزعة نحو العقوبة التى تنزل بالمتسبب فى الضرر، وذلك قبل تبادل الرأى بين أعضاء هيئة المحلفين. وكما يحدث عادة، فإن تداول الرأى يفاقم هذه النزعة عن طريق إحداث زيادة فى قيمة التعويض. ولكن حتى إذا كان هذا التفسير صحيحا، فإنه يبدو - إلى حد ما - غير محدد بصورة كافية. والحقيقة اللافتة للنظر هنا هى؛ أن هؤلاء الذين يدافعون عن تقديم التعويضات المرتفعة يبدو أن لديهم تفوقًا بلاغيًا مؤثرًا تلقائيًا يتميزون به على هؤلاء الذين يدعون إلى تقديم تعويضات منخفضة. والاحتمال المثير للاهتمام هنا هو؛ أنه يحدث فى مجالات كثيرة أن تحظى وجهة نظر ما بتفوق بلاغى مؤثر تتميز به على وجهات النظر الأخرى، مع ما يترتب على ذلك التفوق فى التأثير من نتائج تتعلق بالفكر والسلوك، أى بفكر الناس وسلوكهم.

قام "دانيال كاهنمان: Daniel Kahneman"، و"دافيد سكيد: - David Schkade"-، وأنا معهم، بإجراء دراسة لاحقة عززت تصورنا هذا، على الأقل فيما يتصل بالتعويضات عن الأضرار، والتى يحكم بها لعقوبة على الجهة المتسببة فى الضرر. فقد طلبنا من مجموعة كبيرة من الطلبة الذين يدرسون القانون أن يشاركوا فى تجربة قصيرة غريبة. فأخبرناهم أنهم مطلوب منهم أن يفترضوا أنهم جالسون فى إحدى هيئات المحلفين التى أخفق أعضاؤها فى الوصول إلى اتفاق بشأن مسألة العقوبة المناسبة، حيث يؤيد بعض أفرادها الحكم بتعويض كبير، ويؤيد الآخرون الحكم بتعويض

منخفض. وقد طلبنا من نصف هؤلاء الطلبة أن يبتكروا حججا من شأنها أن تؤيد الحكم بتعويض مرتفع مفترضين أنهم لا يعلمون شيئا عن هذه القضية الخاصة. صدق أو لا تصدق، فقد بلور طلبة القانون عددا من هذه الحجج. مثال ذلك، أنهم أكدوا على ضرورة ردع هذا المسيء بعينه، وعلى ضرورة ردع غيره من المسيئين المحتملين، وعلى أهمية الاستيثاق من أن الطرف المصاب بالضرر تلقى المزيد من المال.

وسألنا النصف الآخر من الطلبة أن يبتكروا حججا من شأنها أن تؤيد الحكم بتعويض منخفض، مفترضين للمرة الثانية أنهم لا يعلمون شيئا عن هذه القضية الخاصة. وهنا، كذلك، بلور طلبة القانون عددا من هذه الحجج. حيث أكدوا على الخطر المتمثل فى أن من شأن الحكم بتعويضات ضخمة أن تمنع الشركات من الاشتراك فى النشاط الخيرى، وأكدوا على الخطر المتمثل فى أن التعويض الكبير قد يذهب معظمه إلى المحامين، وأكدوا على حقيقة أن الشخص المصاب ينبغى ألا يحصل على تعويض كبير غير مرتقب. وعندئذ سألنا كلتا المجموعتين عما إذا كان من الأسهل أن يدعوا إلى تقديم تعويض مرتفع أو أن يدعوا إلى دفع تعويض منخفض.

كانت الإجابة واضحة: إذ يرى معظم هؤلاء الأفراد أن من الأسهل، ولو من الناحية المجردة فقط، أن يطالبوا بدفع تعويضات مرتفعة يحكم بها باعتبارها عقوبة على الشركات، فذلك أسهل من أن يطالبوا بدفع تعويضات منخفضة (٣٠). فهؤلاء الذين يطالبون بدفع تعويضات مرتفعة يحظون بتفوق تلقائى بلاغى مؤثر فى النفوس. بل إنه حتى لو كان طلبة القانون لا يعلمون شيئا على الإطلاق عن حقائق القضايا التى يرفعها الأفراد للمطالبة بالتعويضات، فإنهم يستطيعون أن يقدموا حججا جذابة أو مقنعة لصالح الحكم

بتعويضات مرتفعة. وإن من الأمور الشديدة الصعوبة تقديم حجج تبدو معقولة للمطالبة بتعويضات منخفضة. ذلك أن هؤلاء الذين يسعون للحصول على تعويضات مرتفعة يحظون بتفوق ذاتى فى التأثير على النفوس.

- الأطباء، والإيثاريون، والآخرون

اكتشف التفوق البلاغى المؤثر فى النفوس، فى مجالات تبدو بعيدة عنه فى ظاهرها. بافتراض أن مجموعة من الأطباء مشغولون بتحديد ما الخطوات التى تتبع لإنقاذ المرضى الذين يبدو عليهم أنهم هالكون أو على وشك الموت. فهل العلماء الأطباء - بصفتهم الفردية - أقل احتمالا، أم أكثر احتمالا، لتأييد بذل الجهود البطولية لإنقاذ المرضى من الأطباء الموجودين ضمن فريق طبى؟

إن الدليل ليوحى بأن الأطباء، بصفتهم أفرادا، أقل احتمالا لأن يؤيدوا بذل جهود بطولية، من الأطباء الموجودين ضمن فريق طبى. ويتمثل السبب الظاهر لهذا الموقف فى أنه فى حالات الخلاف والتنازع، يحظى هؤلاء الذين يؤيدون بذل مثل تلك الجهود بتفوق بلاغى مؤثر فى النفوس، على هؤلاء الذين لا يؤيدون هذا الموقف[٣١]. فالأطباء لا يريدون أن يظهروا، أمام بعضهم بعضا، وكأنهم راغبون فى التخلى عن أحد المرضى والحكم عليه بالموت، حتى عندما تكون فرصة النجاح منخفضة. فبالنسبة لكثير من الأطباء الذين يعملون فى مجموعات، يوحى التخلى عن المريض باستخفاف الأطباء بقدسية الحياة الإنسانية، وبفقدان الالتزام الراسخ، بل قد يوحى بفقدان الطبيب لثقته بكفاءته الشخصية. ومن ثم فإن فرق الأطباء تكون راغبة فى

بذل المزيد لإنقاذ الناس بدرجة أكبر مما يكون عليه الأطباء بصفتهم الفردية. وبمعنى ما، يتبين أن الفرق الطبية أى: الأطباء المجتمعين معا يكونون أكثر تطرفا. لاحظ هنا حالة المرضى وأعضاء العائلة كذلك.

يتصرف الأفراد بصورة مختلفة جدا عن الفرق فى لعبة الديكتاتور، وهى تجربة يستخدمها العلماء الاجتماعيون فى دراسة الأنانية والغيرية، أى الإيثار وحب الآخرين[٣٢]. وفى هذه اللعبة تخبر إحدى المبحوثات بأن بإمكانها أن تقسم مبلغا من المال، وليكن ١٠ دولارات مثلا، بينها وبين شخص غريب. فما الذى ستفعله هذه المبحوثة؟ إن التنبؤ الاقتصادى المعيارى يقول: إن معظم المبحوثين سوف يحتفظون لأنفسهم بكل هذا المال أو بأغلبه، فلماذا ينبغى علينا أن نتقاسم المال مع أشخاص هم غرباء عنا تماما؟ إلا أنه يتبين أن هذا التنبؤ الاقتصادى المعيارى خطأ. إذ إن أغلب الأفراد يفضلون الاحتفاظ بما بين ٦ دولارات و ٨ دولارات، ويعطون الباقى للشخص الغريب[٣٣]. ومع ذلك، فإن سؤالى هنا ليس عن السلوك الفردى، ولكن عن مدى تأثر السلوك فى لعبة الديكتاتور إذا جمعوا فى هيئة فرق، أى إذا اتخذ الناس قراراتهم وهم فى جماعات وليسوا بصفتهم الفردية. فهل الجماعات أكثر إيثارية من الأفراد؟ الإجابة هى: أن أعضاء الجماعة يفضلون الاقتسامات المتساوية للمال بدرجة أعلى من أعضائها بصفتهم الفردية [٣٤]. فبمجرد أن يجمع الأفراد فى جماعة، فإنهم يبدون تحولا ملحوظا فى اتجاه المزيد من السخاء والكرم.

لماذا يكون ذلك؟ تشير إجابة مناسبة إلى وجود نوع من التفوق البلاغى المؤثر فى النفوس، وهو شعور يزدرى الأنانية حتى داخل الجماعة التى تكون فى وضع يمكنها من الانتفاع بالأنانية. وأنت إذا كنت ضمن فريق من الأفراد الذين يقررون مدى كونك أنانيا، فمن الراجح أنك تكون أقل أنانية مما تكون عليه فى حد ذاتك – وما ذلك إلا لأنك لا تريد أن تبدو أنانيا بصفة خاصة. تخيل، مثلا، أنك تتداول الرأى مع مجموعة من الأفراد بشأن مقدار المال الذى يقدم فى وجوه البر والإحسان، هنا تكون الفرص مناسبة أى: أن الاحتمالات تكون قوية لأن يؤول أمر هذه المجموعة إلى أن تصبح أكثر برا وإحسانا من الفرد المتوسط، وما ذلك إلا لأن الأفراد لا يريدون أن يبدوا طماعين. ذلك أن اهتمام الأفراد بسمعتهم الحسنة يقوم بدور كبير فى هذا المقام. كما أن صورة المرء عند نفسه لها أهميتها. فمن الذى يريد أن يشعر أنه شخص طماع؟

وبطبيعة الأمر، فإن النتائج المذكورة هنا من شأنها أن تتغير، إن كان لدى الفريق المشترك فى لعبة الديكتاتور سبب ما ليكون معاديا لهؤلاء الذين سيستفيدون من سخائهم. وإن بإمكاننا أن نتخيل بسهولة إحدى الصور المغايرة للعبة الديكتاتور، والتى يقرر فيها، مثلا، أفراد جماعة دينية فقيرة نسبيا مقدار المال الذى يخصصونه لجماعة دينية أخرى يظنون أنها معادية لهم وأكثر منهم ثراء بمراحل. ففى هذه الصورة المغايرة، يكون من شأن التفوق البلاغى المؤثر فى النفوس أن يحبذ الاتصاف بالمزيد من الأنانية.

- لماذا يحدث التفوق البلاغى المؤثر؟ ومتى يحدث؟

إن كل ما ذكرناه من قبل يترك بعض الأسئلة من غير إجابة. فما الذى ينتج التفوق البلاغى المؤثر فى النفوس؟ ومتى نرى هذا الوضع؟ وإلى أى مدى يمكننا أن نعرف ما الاتجاه الذى سيمضى فيه هذا التفوق؟

إن أبسط إجابة تشير إلى المعايير الخاصة التى تسود داخل الجماعة، والمعايير، بطبيعة الأمر، تتباين عبر الزمان والمكان وبين معظم الأمريكيين، تقوم المعايير الحالية بتسهيل الدعوة إلى المطالبة بالتعويضات الجزائية المرتفعة باعتبارها عقوبة للشركات على ما تتسبب فيه من ضرر جسيم لأحد العاملين بها، بيد أنه من اليسير علينا أن نتخيل مجتمعات فرعية داخل أمريكا مراكز إدارة الشركات، يسير فيها التفوق البلاغى المؤثر فى الطريق الآخر تماما. فى مثل تلك الجماعات، يقل توقع نقصان مستوى العقوبة، لا أن يزداد، وذلك نتيجة للتفاعلات الاجتماعية بين أعضاء هذه المراكز. وبطبيعة الأمر، فإن المعايير الاجتماعية والتأثيرات أو مظاهر النفوذ التى يحظى بها أصحاب السمعة الحسنة تقول: إن هذه المعايير وتلك التأثيرات مترابطة مع بعضها ترابطًا وثيقًا. وبإدخال المعايير الحالية فى الحسبان، فإن معظم هيئات المحلفين تعلم أنه من المرجح أن تبدو شاذة فى أعين الناس إن أرادت أن تفرض عقوبة ضئيلة جزاء على ضرر جسيم حقا تسببت فيه شركة ما.

وعلى أية حال، من السهل أن نتخيل سياقات أخرى كثيرة يكون لجانب أو لآخر فيها تفوق نظرى تلقائى يؤثر فى النفوس. تأمل المجادلات التى تدور حول مسألة العقوبات المفروضة على الاتجار فى المخدرات، والمجادلات حول مسألة تغيير معدلات الضرائب. ففى المجادلات السياسية الأمريكية المعاصرة، تكون لهؤلاء الذين يحبذون العقوبات الأغلى على الاتجار فى المخدرات والضرائب الأدنى، أسبقية قوية. ولو أن جماعة تدافع

عن الإبقاء على المعدلات الحالية للضرائب، وأن جماعة أخرى تدافع عن تقليلها، فسوف تكون الجماعة الثانية هى المنتصرة. ولو أن بعض الناس يدافعون عن تخفيض العقوبات المفروضة على المخالفات الإجرامية، فإنه يتوجب عليهم أن تكون عندهم بعض الحجج ذات القوة غير العادية حتى يقنعوا الآخرين بموقفهم، أو تخيل نقاشا يدور داخل إحدى الشركات حول إمكان الدخول فى مغامرة من عدمه، أو نقاشا داخل أسرة حول اتخاذ بعض الاحتياطات لتفادى أحد التهديدات التى تواجه أعضاء الأسرة من الجريمة المنتشرة فى الحى السكنى الذى يعيشون فيه، مثلا، أو من الاقتصاد الردىء، أو من عربة ليست آمنة بشكل واضح. فإن مثل تلك الشركة يترجح أن يؤول أمرها إلى القيام بهذه المغامرة، وما ذلك إلا لأن من يحبذون القيام بالمغامرات لهم تفوق مؤثر فى النفوس، ولنفس هذا السبب، فإن مثل تلك العائلة يترجح أن تميل إلى اتخاذ الاحتياطات المذكورة.

وبطبيعة الأمر، فإنه توجد حدود للنتائج التى يحدثها التفوق فى التأثير فى النفوس. فلا يريد أى شخص عاقل أن تختفى الضرائب، أو أن تفرض أحكام الإعدام على جرائم المخدرات الصغيرة، ولكن حين يكون التفوق فى التأثير النفسى متضمنا، فإن ما تقوم به الجماعة من تداول الآراء سيتسبب فى إحداث تغييرات مهمة فى الأحكام الفردية. فمما لا شك فيه، أن سلوك السلطة - والذى يتضمن الأمن القومى، وتنظيم فرض الضرائب، والعقوبات الجنائية - يتأثر بمظاهر التفوق فى التأثير النفسى. ويمكن تفسير كثير من الحركات أى: التغييرات فى المواقف التى تحدث داخل هيئات المحلفين بعبارات مماثلة لما يحدث فى السلطة التشريعية. والحقيقة، أن المعايير الحاكمة تتباين من بلد لآخر. ففى المملكة المتحدة وألمانيا، مثلا، تكون

الدعوة لزيادة الضرائب أسهل بكثير مما هى عليه فى الولايات المتحدة، خاصة إذا كانت هذه الضرائب المرتفعة مفروضة على السلوك الملوث؛ وذلك لأن من يعارضون فرض الضرائب لا يتمتعون بأسبقية قوية فى التأثير النفسى. وفى بعض البلدان من العالم، يكون لمن يقاومون أشكال الحظر التى تفرض على الإجهاض تفوق فى التأثير النفسى، وفى بلدان أخرى من العالم يعانون من سوء حظ شديد فى هذا الشأن.

هل تعد أشكال التفوق فى التأثير النفسى غير مفيدة أم ضارة؟ من الناحية المجردة، لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال بصورة معقولة. فالتحولات فى المواقف والاتجاهات، بما فيها الحركات المتطرفة، يجب أن تقيَّم على أساس استحقاقاتها الواقعية بدون تأثر بالعواطف. فربما تكون التعويضات الجزائية المرتفعة التى تعقب تداول الرأى بين المحلفين أكبر بصورة واضحة. وهكذا، ، قد يكون شأن تحولات اتجاهات الأطباء نحو المزيد من اتخاذ الإجراءات البطولية، وكذلك قد يكون شأن تحولات اتجاهات الجماعات التى تقرر توزيع الأموال بطريقة أكثر قربًا للمساواة. فكل ما فى الأمر أن أشكال التفوق فى التأثير النفسى موجودة، وأنها تساعد فى تفسير الحركات الاجتماعية، بما فيها الحركات المتطرفة. وسيكون الأمر ضربة حظ مدهشة لو أن مثل تلك الحركات كانت -على الدوام - حركات حميدة لا ضرر منها. فحينما تتحول الجماعات إلى جماعات عنيفة، مثلا، فغالبًا ما يحدث ذلك لأن شكلا من أشكال التفوق فى التأثير النفسى يعمل لصالح هؤلاء الذين يضغطون للتحرك نحو المزيد من ردود الأفعال الحادة على ما ينزل بهم من مظالم حقيقية أو متخيلة.

- تطرف أشد وتطرف أقل

ليس استقطاب الجماعة ثابتا اجتماعيا. فهو قابل للزيادة أو للنقصان، بل حتى للإزالة، من خلال ما يتصف به أعضاء الجماعة، أو يتصف بموقفهم، من سمات خاصة.

- المتطرفون أكثر تحركا

تذكر أنه جاء فى الدراسة التى تناولت الاحتجاجات، أن الأفراد الذين يبدأون احتجاجاتهم بوجهة نظر شديدة التطرف، إنما يبدون هذا التحول البالغ فى اتجاههم نتيجة للنقاش الذى يدور داخل الجماعة. وهذه المسألة عامة تماما: فالمتطرفون عرضة - بالذات - لاستقطاب الجماعة. إذ إن الأفراد حينما يبدأون انطلاقا من وجهة نظر متطرفة ويوضعون فى جماعة من الأفراد ذوى التفكير المتشابه، فمن الراجح أن يغالوا - خصوصا - فى الاسترسال أو التمادى فى الاتجاه نحو ما بدأوا به[٣٥]. من وجهة نظر متطرفة، وهنا درس فيما يتصل بمصادر الإرهاب والعنف السياسي بصورة عامة. ونظرا لوجود صلة بين الجراءة والتطرف، فإن الجراءة التى يتصف بها أعضاء محددون تقوم كذلك بدور مهم، ذلك أن الأفراد الجرءاء يكونون أكثر عرضة للاستقطاب[٣٦].

. تذكر أن الأفراد يلطفون من حدة آرائهم إذا كانوا غير متأكدين من كونها صحيحة أم لا. كما أنه فى حالة تساوى الأمور الأخرى، يحظى الأفراد الجرءاء بنوع من التفوق المؤثر فى الحوارات الاجتماعية. ويترتب على ذلك أنه إذا كان أعضاء الجماعة يميلون إلى التطرف، وإذا كانت الجماعة خاضعة للأفراد الجرءاء، فإن من الراجح جدا أن يتحول اتجاه هذه الجماعة نحو المزيد من التطرف. وفى مقالة رائعة يكتب "رسل هاردين:

"Russel Hardin" أن المتطرفين يعانون من نوع من المعرفـــة الـــشلاء [٣٧]. فهو يذهب إلى أن الغالب على أحوال المتطرفين أنهم بعيدون عن أن يكونوا حمقى أو لا عقلانيين. والمشكلة هى أنهم يعرفون القليـــل جـــدا، وأن مـــا يعرفونه يعزز نزعتهم للتطرف. ولا يشك أحد فى أن بعـــض المتطـــرفين يعرفون قدرا عظيما من الأمور؛ وأحيانا ما يكون التطرف قابلا للدفاع عنــــه بل قد يكون أمرا سليما. فقد كان الثوريون الأمريكيون متطرفين، وكذلك كان "مارتن لوثر كنج الصغير: Martin Luther"، و"نلـــسون مانـــدلا: Nelson-Mandela" – إلا أنه عندما تقوم الجماعات بحركات متطرفة غير مبـــررة – فى اتجاه الإرهاب، مثلا، أو فى اتجاه الإبادة الجماعية – فإن المعرفة الشلاء تكون غالبا هى السبب، فهؤلاء الذين ينطلقون من موقف متطرف سيكونون جميعا أكثر تعرضا للتأثيرات النفسية التى نناقشها هنا.

إن وجهة النظر العامة – والتى ترى أن المتطرفين بالـــذات عرضـــة للمزيد من التحولات الملحوظة فى الاتجاهات – ليست مقصورة على أشـــد المتطرفين وضوحًا فى تطرفهم. فوجهة النظر هذه تنطبق بالتأكيد على عالم الأعمال. فأعضاء مجلس إدارة شركة ما، من الميالين إلى الإقـــدام علـــى المخاطر غير العادية، يندرجون فى نفس الفئة؛ والكارثة التى نزلت بـــشركة "إنرون: Enron" حدثت فى جزء منها نتيجة لاستقطاب الجماعة. وتحـــدث نفس هذه العمليات فيما بين أعضاء تنظيم طلابى ملتزم، مثلا، بالدفاع عـــن حقوق المثليين أو بتخفيض استثمارات إحدى الجامعات فى السودان. وهكذا، الشأن بالنسبة لحكومة عازمة على أن تتفادى الحرب، أو عازمة على إشعال الحرب. وقد سبق لى أن طرحت رأيا مفاده؛ أن المحاورات التى دارت بين أعضاء الحكومة الأمريكية برئاسة "جورج دبليو. بوش:George W. Bush"، والتى بلغت ذروتها فى حرب العراق، تعد مثالا واضحا على ذلـــك[٣٨].

ومن الأمور المأساوية أن ذلك التحرك المتطرف فى اتجاه الحرب إنما دعمته النزعة المتطرفة السابقة لهذه الحكومة، كما دعمه غياب الأصوات المخالفة، والذى يتولد من الضغط المكثف الذى يوجه إلى من يميلون إلى رفض الخط الذى يسير فيه هذا الحزب.

- يزيد التماسك والروابط الوجدانية الاستقطاب

عندما يعتقد أعضاء الجماعة أن لهم هوية مشتركة، وبينهم درجة عالية من التضامن أو التماسك، فسيوجد الاستقطاب الحاد[٣٩]. ومن أسباب ذلك أن الأفراد إذا شعروا بأن أحد العوامل يوحدهم (كعامل للأسرة، أو عامل الميول السياسية، أو عامل القناعات الدينية)، فسوف يتم إخماد الخلاف بينهم. وإذا كان الأعضاء - بصفتهم الفردية - يميلون إلى أن يروا الآخرين ودودين، ومحبوبين، ومشابهين لهم، فإن حجم واحتمال التحول فى الاتجاهات سيزدادان[٤٠]. ذلك أن وجود مثل هذه الروابط يقلل من عدد الآراء المختلفة، كما أنه يزيد من حدة التأثيرات الاجتماعية على حرية الاختيار. ومن المعانى الضمنية الواضحة هنا، أن من الراجح أن تزيد الأخطاء عندما يكون أعضاء الجماعة موحدين - فى الأغلب - من خلال العاطفة أو الوجدان وليس من خلال التركيز على مهمة أو هدف محدد ؛ وهنا يقل احتمال أن تجد الآراء البديلة فرصتها للتعبير إلى حد بعيد. وعلى النقيض من ذلك، يقل احتمال تحول مواقف الأفراد نحو التطرف إذا كان الاتجاه الذى يدعون للسير فى اتجاه ينادى به أعضاء جماعة معادية أو أعضاء يعتبرون مختلفين من بعض الوجوه، ذلك أن الشعور بالانتماء للجماعة يؤثر على مدى الاستقطاب. وفى نفس هذا المعنى، يميل التباعد الحسى إلى التخفيف من شدة الاستقطاب؛ ويميل الشعور بالمصير المشترك، والتشابه السائد بين أعضاء الجماعة

إلى زيادة الاستقطاب، وذلك كما يحدث عند تقديم جماعة غريبة منافسة لتتعرف إليها الجماعة.

قامت تجربة شيقة بالفحص الدقيق للآثار التى يحدثها التماهى مع الجماعة، أى التوحد معها فى الاستقطاب(٤١). فقد أعطى بعض الأفراد تعليمات تم فيها إظهار عضوية الجماعة بشكل بارز، وهى الحالة الخاصة بالانغماس فى الجماعة، بينما لم يعط أفراد آخرون مثل هذه التعليمات وهى الحالة الفردية. وشاهد ذلك، أن من كانوا فى حالة الانغماس فى الجماعة أخبروا بأن جماعتهم تتكون فقط من طلبة السنة الدراسية الأولى بقسم علم النفس، كما أخبروا بأنه يجرى اختبارهم بصفتهم أعضاء جماعة وليس بصفتهم الفردية كل على حدة. وكانت القضايا ذات الصلة التى سئلوا فيها تتضمن موضوعات: العمل الإيجابى، والإعانات الحكومية للمسرح، وخصخصة الصناعات المؤممة، وإنشاء محطات القوة النووية على مراحل مخططة. وكانت النتائج مذهلة. إذ إن الاستقطاب حدث بصفة عامة، إلا أنه كان أشد بشكل ملحوظ عندما كان يتم التأكيد على أهمية هوية الجماعة. وتبين هذه التجربة أن الاستقطاب يترجح حدوثه ترجحا كبيرا، كما يترجح أن يكون أكثر تطرفا، عندما يتم إظهار عضوية الجماعة بشكل بارز(*).

(*) هذه التجربة، بهذا العرض، ليس فيها ما يدل صراحة، أو مباشرة، على أن الاستقطاب يزداد معدل حدوثه، ويزداد معدل كونه متطرفا، فى حالة إظهار عضوية الجماعة بشكل بارز. خاصة وأنه لم يرد فى العرض المذكور لتفاصيل هذه التجربة، ما يثبت أن النتائج كانت مذهلة، كما أنه لم ترد فيها أى إشارة للنتائج الخاصة بأفراد المجموعة الأخرى التى اختبر أعضاؤها بصفتهم الفردية، ولم يختبروا بصفتهم الجماعية. "المترجم".

قارن ذلك بتجربة وثيقة الصلة، صممت للتعرف على: إلى أى مــدى يمكن إخماد الاستقطاب [٤٢]. اشتملت هذه التجربة على تـشكيل جماعــات تتكون كل واحدة منها من أربعة أشخاص. بدأ القــائمون علــى التجربــة باختبارات للتحقق من أن كل هذه الجماعات تشتمل على أعداد متساوية مــن الأفراد الذين لهم مواقف متنازعة بشأن القضايا السياسية التالية، هل ينبغــى حظر التدخين فى الأماكن العامة أم لا؟ وهل التمييز بين الجنسين من شئون الماضى أم لا، وهل تنتهك الرقابة على المواد التى تقدم للبــالغين الحريــات الإنسانية أم لا؟ وقد سجلت الأحكام التى يحكم بها ا لأفراد على مقياس يبــدأ من زائد+ 4 والدال على الموافقة القوية، ويمر بالصفر والدال علــى الحيــاد وينتهى بناقص -4 والدال على الاعتراض القوى. وفى نصف الحالات وهم الأفراد الذين فى الحالة غير المصنفة أى: غير المقسمة إلى فئتين. لم ينبــه الأفراد إلى أن الجماعة تتألف من مجموعتين فرعيتين منقسمتين بالتــساوى. وفى النصف الثانى وهم الأفراد الذين فى الحالة المصنفة أى المقــسمة إلــى فئتين، أخبر الأفراد بأنهم سيجدون انقساما حادا فى جماعتهم، والتــى بهــا مجموعتان فرعيتان مقسمتان بالتساوى، وقد أخبر كل فرد فى هذه الجماعــة بالجماعة التى هو عضو فيها، كما طلب منهم أن يجلسوا إلى مائــدة بحيــث تكون كل مجموعة فرعية جالسة على جانب فى مواجهة المجموعة الفرعية الأخرى.

فى الحالة غير المصنفة، أى غير المقسمة إلى فئتين، أدى النقاش إلى اختزال حاد للفجوة القائمة بين الجانبين. أى بين المجموعتين، وكانت النتيجة متمثلة فى التقاء الآراء حول منطقة الوسط بين هذين الموقفين المتعارضين. إلا أن الأمور كانت مختلفة جدا فى الحالة المصنفة أو المقسمة إلى فئتــين. فتحول الاتجاهات هنا نحو الوسط كان أقل وضوحا إلى حــد بعيــد، كمــا

ازدادت الحالات التى كاد ينعدم فيها هذا التحول تماما. وموجز القــول: إن لفت أنضار الأفراد إلى عضويتهم فى الجماعة يجعلهــم أقــل احتمــالا لأن يغيروا اتجاهاتهم صوب المسار الذى يستحثهم عليه أفراد مــن الجماعــات المختلفة عن جماعتهم. وتقدم هذه التجربة الصغيرة درسا كبيرا، وهو؛ أنــه إذا أخبر الأفراد بأنه يتم تعريفهم تبعا لعضويتهم فــى جماعــة معينــة — كالكاثوليك، أو اليهود، أو الروس، أو الديمقراطيين، أو المحافظين — فسيقل احتمال اتصالاتهم بعناية لمن يتم تعريفهم تبعا لاعتبارات مغايرة.

- الخروج

بمرور الوقت، يمكن تقوية استقطاب الجماعة عن طريــق الخــروج، حيث إن الأعضاء المعتدلين يتركون الجماعة لأنهم لا يرضون بالاتجاه الذى تسير فيه الأمور. ويؤكد "مارك سيجمان: Mark Sageman" على أهمية هذه الحقيقة. فعندما يتحرك أعضاء الجماعة فى اتجاه إمكانية العنــف، يوجــد موقف من الفرز الاختيارى والانتقاء الشخصى، وهو موقف "لا يبقــى فيــه داخل الجماعة إلا المؤمنون الصادقون". ويرى هؤلاء المؤمنــون أنفــسهم باعتبارهم "أفضل الأصدقاء وباعتبارهم أسرة بديلة"[٤٣]. وهنا توجــد أشــد الظروف خطرا بالنسبة للجميع. فالجماعات لا تضم إلا المتطرفين، حيــث تربطهم روابط المحبة والتضامن، ولا يميلون للمناقشات إلا بــين بعــضهم بعضا.

والقضية الأعم هنا هى، أنه عندما يكون بعض الأفراد ميالين بالخروج من الجماعة، يزداد احتمال تحول الجماعة إلى المزيد من التطــرف. إذ إن الأمر سيؤول بالجماعة إلى أن يصغر حجمها، وأن يصبح أعضاؤها أكثــر تشابها فى التفكير، وأكثر رغبة فى اتخاذ الإجراءات المتطرفة. وفى نوع من

أنواع الدائرة الخبيثة، فإن نفس هذه الحقيقة تعنى ضمنا أن النقاشات الداخلية سوف تستمر فى إفراز المزيد من النزعة المتطرفة. وإن ما حدث لاتحادات الطلاب فى الولايات المتحدة من تحولات فى اتجاهاتها فى ستينيات القرن العشرين- من الأشكال المعتدلة نسبيا من الفكر اليسارى إلى الراديكالية الفعلية بل وإلى العنف كذلك - تقول: إن هذه التحولات قابلة لأن تفسر جزئيا فى ضوء هذه الاعتبارات. وفى الحقيقة، يتناسب هذا التفسير مع بعض ديناميات البيت الأبيض تحت رئاسة الرئيس جورج دبليو بوش، حيث ترك رجال الحكم المعتدلون والمخالفون الحكومة، مما أدى إلى ظهور فريق اللا متنافسين.

ويترتب على ذلك، وعلى نحو له دلالته وأهميته، أن الجماعة تكون أكثر احتمالا لإظهار الانتقال إلى التطرف إذا سهلت على الأفراد الخروج منها. فإنه إذا لم يبق فيها إلا الموالون أو المخلصون، فإن عضو الجماعة المتوسط سيكون أكثر تطرفا، كما أن النقاش سوف يتسبب فى إحداث نقلات متطرفة بصورة متزايدة. أما تعسير الخروج من الجماعة فإنه يحول دون تقلص حجم الجماعة. لكنه - بالإضافة إلى ذلك - يضمن أن الجماعة سوف تشتمل على أفراد يفضلون الاعتدال المعقول أو النسبى، ويميلون إلى ضبط أو كبح تحركها نحو مظاهر الشطط والغلو.

توجد صلة واضحة بين هذه الآراء "وما قدمه" ألبرت هيرشمان: "Albert Hirschman- من تحليل مهم لمسألة الخروج ومسألة الصوت بوصفهما ردود أفعال للاعتراض على الجماعات والمنظمات(٤٤). فهيرشمان يبين أنه إذا كان الخروج من الجماعة متاحا بلا قيد، فقد يخرج الأفراد

ببساطة ولا يستعملون أصواتهم، أى آراءهم لضمان الأداء الجيد لعمل الجماعة. وهو يقدم المثال الخاص بالمنافسة بين المدارس العامة، أى الحكومية والمدارس الخاصة. فلو أن المدارس الحكومية انهارت أو تدهورت، فلعل الأفراد يخرجون منها مفضلين عليها المدارس الخاصة. وستفرض هذه النتيجة ضغطا ما صوب تحسين مستوى المدارس الحكومية، إلا أنها سوف تتسبب كذلك فيما هو أهم من ذلك، وهو "فقدان المدارس الحكومية لهؤلاء الأعضاء الدائمين الذين من شأنهم أن يكونوا أشد إلحاحا وعزما على خوض معركة ضد هذا التدهور لو لم يتوافر لهم البديل المتمثل فى المدارس الخاصة"(٤٥).

وما يصدق على المدارس يصدق أيضا على الجماعات التى تميل للتوجه نحو الشطط والغلو. ذلك أن سهولة اختيار الخروج سيقلل عدد الأصوات المخالفة، ومن ثم يؤدى إلى إحداث راديكالية أشد. وفى نفس الوقت، فإن صعوبة الخروج، وحال ارتباطها بالضغوط الاجتماعية القوية، قد تقلل الخلاف كذلك، خاصة لأن الأرجح أن الأعضاء الراغبين فى الخروج يكونون معتمدين اعتمادا كبيرا على حسن نية أعضاء الجماعة.

– الأعضاء المطلعون والحقائق

عندما يكون فرد أو أكثر من فرد فى الجماعة واثقين من أنهم يعرفون الإجابة الصحيحة عن سؤال واقعى، فمن المرجح إلى حد بعيد أن يتغير موقف الجماعة فتسير فى الاتجاه نحو الدقة (٤٦). وبالنسبة لمثل هذه المسائل، والتى توصف أحيانا بأنها "مسائل وجدتها"، فإن الجماعات تحسن التصرف، إذ لا يحدث فيها استقطاب. ولهذا السبب تميل الجماعات إلى أن تنجز أعمالها بطريقة تثير الإعجاب عندما تواجه المواقف الغامضة. ففى حالة المواقف

الغامضة، يندر أن يتطرف الأعضاء. فهم يوافقون على الإجابة الصحيحة بمجرد الإعلان عنها، ذلك أنه إذا وجدت المعرفة المباشرة للإجابة الصحيحة، فستصل الجماعات إليها. ففى حالة "مسائل وجدتها"، والتى تكون الإجابة الصحيحة عنها واضحة عند الجميع بمجرد الكشف عنها، فالظاهر أن تداول الرأى بين الأفراد يؤدى إلى الوصول للدقة وليس للتطرف.

افترض، مثلا، أن السؤال هو: كم عدد البشر الموجودين فى العالم سنة ١٩٤٠، أو عن عدد المرات التى أحرز فيها لاعب كرة السلة "بارى بوندز: Barry Bonds أهدافا صحيحة بصورة متعاقبة، أو عن المسافة بين باريس ولندن. وافترض كذلك أن امرءا أو عددا قليلا من الأفراد يعرفون الإجابة الصحيحة. فإن حدث ذلك، وجدت فرصة طيبة لهذه الجماعة فلا تتعرض للاستقطاب، بل تتلاقى - بدلاً من ذلك - على هذه الإجابة. وحينما يقع الأمر على هذا النحو، فإن السبب واضح. ذلك أن الشخص الذى يكون واثقا من أنه يعرف الإجابة سيتكلم بتأكيد وقوة مقنعة، وقد يكون مقنعا لهذا السبب بالذات. شاهد ذلك أنه إذا كان أحد أعضاء جماعة ما متأكدًا من أن بارى بوندز أحرز أهدافا صحيحة بصورة متعاقبة فى كرة السلة عددها ٧٦٦ هدفًا وكان باقى الأعضاء غير متأكدين، فمن الراجح إلى حد كبير أن يؤول أمر الجماعة إلى الموافقة على أنه، أى بارى بوندز، قد أحرز ٧٦٦ هدفًا صحيحًا بصورة متعاقبة.

وبطبيعة الأمر، ليس حتما أن النتيجة ستكون باتفاق على الحقيقة. والضغوط الاجتماعية يمكنها أن تفضى بالأفراد إلى تشويش الرؤية حتى فى أبسط القضايا الواقعية. وتبين دراسة رائعة أن بإمكان ضغوط الأغلبية أن تكون بالغة القوة، أى شديدة التأثير حتى فى المسائل الواقعية التى يعرف

عنها بعض الناس الإجابة الصحيحة[٤٧]. اشتملت هذه الدراسة على ١٢٠٠ شخص، حيث شكلت مجموعات مكونة من أربعة أعضاء، وخمسة أعضاء، وستة أعضاء. وطرح على الأفراد أسئلة من النوع الذى يجاب عنه بكلمة صحيح أو خطأ، وتتضمن هذه الأسئلة مجال الفن، والشعر، والرأى العام، والجغرافيا، وعلم الاقتصاد، والسياسة. ثم طلب منهم بعد ذلك أن يتجمعوا فى جماعات، حيث قامت هذه الجماعات بمناقشة هذه الأسئلة وقدمت الأجوبة عنها. وقد قامت الأغلبية بدور كبير فى تقرير الأجوبة التى قدمتها الجماعة. كما أن الحقيقة قامت بدور ما إلا أنه كان دورا أقل. وعندما كانت أغلبية الأفراد فى الجماعة تقدم الإجابة الصحيحة، فإن قرار الجماعة كان يتحرك فى اتجاه الأغلبية فى ٧٩ فى المائة من الحالات. وإذا قدمت أغلبية الأفراد فى الجماعة إجابة خاطئة، فإن قرار الجماعة - على الرغم من ذلك - كان يتحرك فى اتجاه الأغلبية فى ٥٦ فى المائة من الحالات.

وهنا كان للحقيقة تأثير ما - إذ إن ٧٩ فى المائة أعلى من ٥٦ فى المائة - إلا أن الحكم الذى حكمت به الأغلبية كان هو صاحب التأثير المسيطر أو الغالب. ونظرا لأن الأغلبية كانت هى المؤثرة حتى عندما كانت على خطأ، فإن قرار الجماعة الأوسط كان أعلى قليلا فقط - فى أغلب الحالات - من القرار الفردى الأوسط (٦٦ فى المائة لقرار الجماعة الأوسط فى مقابل ٦٢ فى المائة للقرار الفردى المتوسط).

تبين هذه الدراسة أن الجماعة قد تخطئ حتى عندما يعرف بعض أعضائها الحقيقة. ومع ذلك، ففى بعض الحالات سيكون أعضاء الجماعة الجاهلون مترددين، وسيتحدث الأعضاء المطلعون بثقة. وهذا الوضع كاف لتعزيز التلاقى على الحقيقة، وليس لتعزيز الاستقطاب.

- المجموعات الفرعية متماثلة التعارض

لنعد إلى دراستنا عن المعتقدات السياسية فى مدينة بولدر ومدينة كولورادو سبرنجز. ما الذى كان يمكن أن يحدث لو أننا كنا قد خلطنا بين أفراد من هذين المكانين؟ من ردود الفعل المحفوفة بالمخاطر على هذا السؤال أن يقال: إن الإجابة تقع فى المكان الأوسط لاتجاهات المبحوثين قبل أن يتحاوروا معا. فإذا كان العضو المتوسط من أعضاء الجماعة يحبذ العلاقات الجنسية بين شخصين من نفس الجنس، فقد يتغير اتجاه معظم الأفراد صوب هذه الوجهة، وذلك حتى لو جمع بين أفراد من بولدر بأفراد من كولورادو سبرنجز.

من الراجح إلى حد كبير، أن يحدث هذا الوضع، إلا أننا لا نستطيع أن نتأكد من ذلك. والسبب يرجع إلى أن الاستقطاب قد لا يوجد إذا كانت الجماعة ذات الصلة تتكون من أفراد سحبوا بالتساوى من مجموعتين متعارضتين[٤٨]، وافترض أن الأفراد الذين كانوا فى بداية الأمر وقبل التشاور مع غيرهم يحبذون الأخذ بالاحتياط، افترض أنهم وضعوا مع الأفراد الذين كانوا فى بداية الأمر يفضلون المجازفة. فإن الأمر كذلك، فإن من الراجح إلى حد كبير أن الحكم الذى تنتهى إليه الجماعة ككل سوف يتحرك صوب الوسط. وأدخل فى حسبانك دراسة [٤٩] لجماعات مكونة كل واحدة من ستة أشخاص، صممت خصيصا لتضم مجموعتين فرعيتين، كل مجموعة مكونة من ثلاثة أفراد، وأنها كانت فى بداية الأمر تضم الآخذين بالمواقف المتعارضة، لذلك تمثلت نتيجة النقاش بينهم فى إحداث تحرك نحو المركز أو الوسط. ومن أسباب ذلك وجود المعرفة ذات الصلة لدى كلا الاتجاهين.

وليس غريبا أن هذه الدراسة التى أجريت على الجماعات الفرعية المتماثلة فى تعارضها مع بعضها وجدت أقوى حالات عدم الاستقطاب مرتبطة بمسائل الواقع الغامضة التى ليس لها مهد عاطفى عند أعضاء هذه الجماعات والتى منها مثلا: مسألة سكان الولايات المتحدة سنة ١٩٠٠. ووجدت هذه الدراسة أن أقل حالات عدم الاستقطاب مرتبطة بالمسائل العامة الشديدة الظهور مثال ذلك: هل عقوبة الإعدام لها ما يبررها أم لا؟ وفى الحالات التى من هذا النوع، يتشبث الأفراد - بشكل واضح - بما كانوا يؤمنون به من قبل. ويقل الاستقطاب بدرجة معتدلة فى المسائل المتعلقة بالذوق الشخصى - ومن أمثلة هذه المسائل تفضيل كرة السلة أم كرة القدم، أو تفضيل الألوان الخاصة بطلاء حجرات المنزل. ويترتب على ذلك أن يكون من غير المحتمل أن ينعدم الاستقطاب فى حالة المسائل التى يطول أمد الجدال بشأنها. فالناس، فيما يتصل بمثل هذه المسائل أقل احتمالا - بدرجة واضحة - لأن يغيروا اتجاهاتهم مطلقا، ومرجع ذلك - جزئيا - أن هذه الحجج المختلف عليها معروفة لكل فرد، وأنه لن يظهر شيء جديد من خلال النقاش.

والآن يمكننا تقديم أربع نتائج تتصل بما قد يحدث داخل الجماعات المختلطة:

١- بالنسبة لكثير من المسائل ولكثير من الجماعات، تعد وجهة النظر المتوسطة، والتى توجد قبل تداول الآراء، تعد أفضل مؤشر للتنبؤ بالمسار الذى يسير فيه التحول فى الاتجاهات، فهذا هو - فى الواقع - ما لاحظناه فى دراستنا عن التعويضات الجزائية عن الأضرار، والتى تحكم بها هيئات المحلفين.

٢- عندما تضم الجماعات مجموعات فرعية متساوية فى تعارضها مع بعضها، ولا تتشبث بمواقفها تشبثا شديدا، وينصت كل واحد للآخر، فإن الأعضاء سوف يتحول اتجاههم صوب الوسط، وسينعدم استقطابهم. وستكون نتيجة الخلط إنتاج التوسط أو الاعتدال.

٣- عندما يعالج الأفراد مشكلات من نوع "مشكلات وجدتها"، وهى المشكلات التى تكون فيها الإجابة الصحيحة، وبمجرد إعلانها، واضحة لمعظم الأفراد أو لهم جميعا، فإن الجماعات المختلطة سوف تجد الإجابة الصحيحة.

٤- فى بعض الأحيان سيظل الأفراد فى نفس الموقف الذى هم فيه تمامًا.

فهؤلاء الذين لهم وجهات نظر دفاعية راسخة بشأن عقوبة الإعدام، أو بشأن الصراع فى الشرق الأوسط، أو بشأن الإجهاض قد يكونون غير ميالين كثيرًا لسماع ما لدى خصومهم من كلام يقولونه. تساعد هذه الملخصات الصغيرة على شرح متى يزداد رجحان حدوث واحدة أو غيرها من تلك النتائج. والاستقطاب القياسى سيحدث عند وجود ميل واضح المعالم للسير فى اتجاه ما قبل تداول الآراء، وعندما يتوفر للأفراد تفتح ذهنى كاف لأن يجعل من الراجح أن يصغى كل واحد منهم للآخر. وسينعدم الاستقطاب إذا قسم أعضاء الجماعة نصفين متساويين، وإذا كان الأفراد راغبين فى الإنصات إلى بعضهم. وسوف يلتقى الأفراد على الحقيقة إذا عرفوها بعد ما يعلنها واحد منهم. ولن يحدث تحرك ما فى المواقف إذا كان الأفراد يعرفون ما يفكرون فيه، ويرون أن هؤلاء المخالفين لهم أشرار أو أغبياء.

وفى هذا الصدد، لنعد إلى دراستنا عن سلوك القضاة. ففى كل قضية تقريبا، نلاحظ النمط المتكرر الذى سبق أن وصفته بالتفصيل، وهو النمط الذى يختلف فيه المعينون من الديمقراطيين عن المعينين من الجمهوريين، والذى فيه يكون هذا الاختلاف ملحوظا بدرجة واضحة فى هيئات المحلفين المكونة من أعضاء كلهم ديمقراطيون فى مقابل هيئات المحلفين المكونة من أعضاء كلهم جمهوريون. ولكن كما رأينا، فإن هذا النمط لا يلاحظ دائما. ففى ثلاث قضايا، تختلف هاتان الفئتان من الأعضاء المعينين فعلا، إلا أنهما لا يحدث فيهما استقطاب. فسلوكهم الانتخابى يظل على ما هو عليه بصرف النظر عما إذا كانوا يجلسون مع واحد أو اثنين من حزبهم، أو كانوا يجلسون فى هيئة محلفين ليس فيها واحد من حزبهم. ومقدما، ما الذى يدور فى ذهنك عما تكونه هذه القضايا الثلاث؟

تذكر الإجابة على هذا السؤال وهى؛ أن هذه القضايا هى قضية الإجهاض، وقضية عقوبة الإعدام، وقضية الأمن القومى. ففى تلك المجالات، لا يستطيع المعينون من الديمقراطيين ومن الجمهوريين أن يؤثروا على بعضهم أبدا. ويوجد فى هذا المقام درس كبير فيما يتصل بالمجالات التى تكون فيها معتقدات الأفراد، وتفضيلاتهم، وقيمهم بالغة الرسوخ والثبات لدرجة أن المؤثرات الاجتماعية تكون عاجزة عن أن تؤثر عليهم. والواقع أنه توجد محكمة واحدة للاستئناف مكونة من اثنى عشر عضوا لا يتأثر فيها المعينون من الجمهوريين والمعينون من الديمقراطيين ببعضهم عموما، ولا تبدى فيها هاتين الفئتين من المعينين أنماط تصويت شديدة التطرف عند جلوس أعضائهما فى هيئات محلفين مكونة من أعضاء لهم نفس الاتجاه السياسى. وأنا أتحدث هنا عن محكمة الولايات المتحدة للاستئناف عن

الدائرة السادسة، والتى فيها – ووفقا لمجموعة من المعارف غير الرسمية – لا يحب المعينون من الديمقراطيين – فى الواقع – المعينين من الجمهوريين. ويميل تحليلنا الإحصائى إلى تأييد هذه المجموعة من المعارف غير الرسمية.

– الفهم المتحيز

إن مجموعة أخرى من النتائج الإمبريقية لتتصل اتصالاً مباشرًا بطبيعة الاستقطاب وحدوده. افترض أنك شكلت جماعة من الأفراد يحبذ نصفها عقوبة الإعدام، ويرفض نصفها الآخر هذه العقوبة. وافترض أنك قدمت للجماعة بأكملها مجموعة من القراءات المهمة المتوازنة، والتى تعرض حججًا فى كلا الاتجاهين. فما النتيجة التى تميل للتنبؤ بها؟ يتصور كثير من الناس أننا سوف نلاحظ مزيدًا من الاعتدال، ومن ثم سنلاحظ نقص أو انعدام الاستقطاب. فبعد رؤية "كل جماعة" للحجج المعقولة لدى الطرف الآخر، قد تتحرك كلتا الجماعتين نحو الشك، وبهذا المعنى تتحركان نحو المركز.

من الأمور المدهشة، أن هذا ليس ما يلاحظ عادةً.[٥٠] فبعد قراءة المواد المتوازنة التى تعرض الحجج فى كلا الاتجاهين، يزداد المعارضون لعقوبة الإعدام قوةً فى معارضتهم، أى يصبحون أكثر تطرفًا. كما يتصلب المدافعون عن عقوبة الإعدام فى موقفهم. ذلك أن الناس، على الأقل فى بعض القضايا، يبدون نوعا من "الفهم المتحيز"[٥١]. فهم عند قراءتهم لمجموعة من الحجج، ينقصون من أهمية الآراء غير الملائمة لهم بوصفها آراء ساذجة أو غبية، ويجدون أن الآراء الملائمة لهم آراء ذكية ولائقة. ومن ثم فإنهم يتشددون فى قناعتهم الأصلية.

إن للعثور على الفهم المتحيز دلالات ضمنية مهمة فى كثير من القضايا فى مجال الأمور السياسية وغيرها من الأمور. فكثيرًا ما يتجاهل الناس البرهان المضاد القوى. "شاهد ذلك أن" بعض الحركات المتطرفة تزدهر حتى عندما يكون أعضاؤها محاطين بمعرفة تبدو متناقضة تمامًا مع معتقداتهم. وتلك المعلومات يمكن أن ينتقص من قدرها، ويحدث ذلك فعلاً، بوصفها مجرد دعاية؛ والحقيقة أن نفس وجود هذه المعرفة "التى تعتبر دعاية" يستغل فى دعم الاعتقادات المتطرفة لدى الأفراد. ونظرًا لأننا وثيقو الصلة بالوطن، فإن مشاعرنا، ومخاوفنا، وأحكامنا، وتفصيلاتنا تظل ثابتة فى أغلب الأحيان، كما أننا نحافظ على ثقتنا بهذه الأمور، حتى عندما نعرف ما يكفى لنغير اتجاهاتنا.

والمتطرفون مخلصون إخلاصًا شديدًا لمعتقداتهم، وعندما يدركون الدليل الذى يمضى فى الاتجاه الآخر "المضاد لاتجاههم"، أو الدليل الذى يبدو متوازنًا، فإن بإمكانهم أن يظلوا أكثر إخلاصًا لمعتقداتهم وليس أقل إخلاصًا.

لذلك فإننا عندما كنا نرجو أن يقل استقطاب الجماعات المختلطة، حيث يتم مواجهتها بالمعلومات المتوازنة، فإن عكس ذلك هو الذى يحدث أحيانًا. افترض أن الجماعة تضم خمسة أفراد يخافون بشدة من تغير المناخ وخمسة أفراد يعتقدون أن هذه المخاطر ضئيلة. بعد تحادثهم معًا، وبعد سماعهم للمعلومات المتوازنة، قد يوجد عند الأفراد العشرة كلهم إخلاص أشد لما كانوا يؤمنون به قبل أن يبدأوا التحادث معًا، كما أن هاتين الجماعتين ستكونان أشد انفصالاً وتباعدًا، وليس أقل انفصالاً وتباعدًا. وسوف أعود قريبًا للتعرض للملابسات التى تحدث فيها هذه النتيجة البائسة.

وإليك نتيجة مزعجة بصفة خاصة. "وهى أنه" عندما يتم تصحيح المعتقدات الزائفة للأفراد، فقد يصبحون أشد التزامًا أو إخلاصًا لتلك المعتقدات[٥٢]. افترض، مثلاً، أن المؤيدين لحرب العراق "فى الولايات المتحدة" أخبروا، وعن طريق مصادر أخبار يبدو عليها أنها موثوق بها، وفى مرحلة مبكرة، أن العراق لا يملك فى الواقع أسلحة للدمار الشامل. فالملاحظ، أن مثل هذه التصحيحات لا تخفف – غالبًا – من مظاهر سوء الإدراك، كما أنها تقوم أحيانًا بزيادة هذه المظاهر وتقويتها.

عد الآن إلى مشكلة الإرهاب، ولاحظ الفكرة التى مفادها؛ أن الديناميات القوية للجماعة، والتى تتسبب فى إحداث ما يسميه مارك سينجمان عملية من عمليات "الحب الداخلى للجماعة "، تكفل أن "تتصرف الجماعة" بوصفها غرفة صدى تفاعلية، حيث تشجع "هذه الديناميات" على تصعيد الشعور بالظلم والإيمان بنظرية المؤامرة إلى أن يصلا إلى مرحلة الكراهية[٥٣]. ويؤول أمر أعضاء الجماعة على أن يقتصروا على الاعتماد على بعضهم بعضًا حتى يؤكدوا صحة المعلومات الجديدة، كما أن كل أمر يؤمنون به يكون ثمرة التفاعلات داخل منعزلاتهم. وبهذا الشكل "ينبذون المعلومات التى تلخص معتقداتهم بوصفها دعاية صادرة من الغرب"[٥٤]. فهنا حالة واضحة من حالات الفهم المتحيز، والتى تحدث بأسلوب يشجع على إحداث استقطاب الجماعة.

كيف يمكن تفسير هذه النتائج؟ وأين ومتى يحدث الفهم المتحيز واستقطاب الجماعة نحو اتجاه معين؟

- الفهوم المغرضة

إن أوضح النقاط هنا هـي؛ أن الأفـراد يبـدون وكـأنهم يعـالجون المعلومات بأسلوب تشوهه انفعالاتهم ودوافعهم. لاحـظ النتيجـة الـشديدة الرسوخ والتى مفادها أن الناس، بعد أن يشتروا منتجًا ما، يميلون إلى البحث عن المعلوملت التى تؤكد أن هذا الشراء تصرف معقول. فالناس تسعى لأن تكون واثقة مجددًا من أنها اتخذت القرار السليم. وهم يرغبون فـى تقليـل التنافر المعرفى، وهو الأمر الذى يجعل الناس تسعى للمعلومـات الملائمـة وتصدقها، وتكذب المعلومات غير الملائمة وتتفاداها. وبصورة أعم، يعالج الناس المعلومات بأسلوب يتناسب مع رغباتهم، وهم يثقون بـالحجج التـى تتناسب مع ما فى أذهانهم من قبل، كما أنهم لا يصدقون الحجج التى تؤكـد الاتجاه الآخر.

- القناعات والتحيزات المسبقة

افترض أن المجتمع يتكون من جماعتين مـن الأفـراد: الحـساسين والحاقدين، وأن أعضاء كلتا الجماعتين لديهم قناعات مسبقة. افتـرض أن الحساسين ملتزمون التزامًا قويًا مسبقًا بوجهة نظر معينة، مثـال ذلـك، أن الهولوكوست وجد فعلاً، وأن القاعدة هى المسئولة عن هجمات ٩/١١، وأن رئيس الجمهورية ليس جاسوسًا للحزب الشيوعى. وافترض أن الحـساسين يقرأون مواد متوازنة عن هذه المسائل الثلاث.

إن المواد التى تعزز وجهة نظرهم السابقة لن تبدو مقنعة فحسب، بـل ستقدم كذلك مجموعة من التفاصيل التى ستدعم المعتقدات الـسابقة لمعظـم جماعة الحساسين. وعلى النقيض من ذلك، فإن المواد التى تتعارض مع تلك

المعتقدات سوف تبدو غير قابلة للتصديق، ومتنـــافرة، ومغرضـــة "أى: ذات دوافع سيئة" وربما بدت وكأنها شيء من الجنون. والنتيجة هى أن القناعات السابقة لهؤلاء الأفراد سيتم تقويتها. ولا ريب أن النمط المضاد سوف يلحظ فى جانب جماعة الحاقدين، وهم الذين يبدأون بالاعتقاد بأن الهولوكوست لـــم يحدث، وأن الولايات المتحدة هى نفسها المسئولة عن هجمـــات ٩/١١، وأن رئيس الجمهورية جاسوس للحزب الشيوعى. ولهذا يمكـــن التنبـــؤ بـــالفهم المتحيز باستنباطه من مجرد وجود القناعات السابقة القوية، ومن التـــأثيرات التى تحدثها تلك القناعات على الأحكام العقلية المتعلقة بالمعلومات الجديدة.

- متى يكون الفهم المتحيز ومتى لا يكون؟

يساعد هذا العرض البسيط على تفسير سبب أن الفهم المتحيز سيحدث بدرجة قليلة، وربما لا يحدث مطلقًا، إذا بدأت الجماعـــات بـــالتزام مـــسبق ضعيف. افترض أن جماعة الحساسين ملتزمة التزامًا ضـــعيفًا بالمـــسلمات المذكورة سلفًا، وأن جماعة الحاقدين تعارض الحساسين، ولكن بدون اقتنـــاع كبير. فإذا عرضت كلتا الجماعتين لمواد متوازنة، فقد تميلان إلى الاندماج ـــ على الأقل- إذا لم تكن ثقة كل منهما بالأخرى متباينة تباينًا ظـــاهرًا، أى إذا كانتا متقاربتين من حيث ثقة كل منهما بالأخرى.

وفى ضوء ذلك، ينبغى أن يكون من السهل إدراك الفهم المتحيز. فهو - فى جانب كبير منه - حصيلة القناعات المسبقة القوية، كما أنـــه حـــصيلة أشكال التباعد فى الثقة بين الجماعات. فجماعة الحـــساسين ســـوف تثـــق ببعض الأفراد وتشك فى غيرهم، وسوف تبدى جماعـــة الحاقـــدين الـــنمط المضاد لذلك. وعندما يقرأون مواد مستمدة من كلا الطرفين، فلن يكون شيئًا

مذهلاً تمامًا أن يؤول بهم الأمر إلى أن يتعلموا مــن الطــرفين المختلفــين، بجانب أنهم يشكون فى بعض أفراد الطرفين. وعلى النقيض من ذلك، لو بدأ الأفراد بقناعات مسبقة ضعيفة، ولم يكونوا يعانون من تباعد الثقة بينهم، فإنهم سيتلاقون. وبإمكاننا أيضًا أن نفهم - فى ضوء ذلك - لماذا يغلب على الناس أنهم ينتقلون من قناعتهم السابقة، أى يغيرون آراءهم، لــيس عــن طريــق خصومهم وأعدائهم المعتادين، ولكن عن طريق الأفراد الذين يتماثلون معهم تمامًا.

- التصويبات المحبطة للنفس

لنعد الآن إلى حالة التــصويب. افتــرض أن النــاس يعتقــدون أن الهولوكوست لم يحدث، وأن القاعدة لم تكن مسئولة عن هجمات ٩/١١. وبعد قراءة المواد التى يفهم منها أنها تصويبات أو تعديلات، ســيكون من غير المحتمل أن يغير كثير من الناس وجهات نظــرهم. بــالعكس فإن هذا التصويب المزعوم قد يكون محبطًا للنفس، بمعنى ما. فربمــا يساعد هذا التصويب - فى معظم الحالات - على إغضاب الأفراد، فــإن حدث ذلك، فقد يقوى ذلك التزامهم بما كانوا يؤمنون به من قبــل. وربمــا يركز هذا التصويب انتباه الناس على الخلاف، وعلى الجدل الدائر فى هــذه المسألة، وبهذا المعنى يؤدى بهم إلى أن يسلموا أنفسهم، وعلى نحو أشد قوة مما كانوا عليه قبل ذلك، لما كانوا يؤمنون به بصورة غامــضة. إن مــن الأمور المؤكدة أنه إذا قدمت للأفراد معلومات توحى بأنه ليس لديهم مبــرر لأن يخافوا مما كان يبدو قبل ذلك مجازفة صغيرة، فإن خوفهم يــزداد فــى الغالب. وقد تفسر هذه النتيجة الغامضة عن طريق الحقيقة التى تقــول: "إن

المعلومات تركز انتباه الناس على المجازفة"، وعندما يتم تركيز الانتباه على الخطر، فإن الخوف يزيد. ولعل الأمر يكون على هذا النحو، أيضًا، فيما يتعلق بالتصويبات التي تهدف لتصحيح التقارير الزائفة عن ارتكاب الشر. ذلك أن تركيز انتباه الناس على تلك التقارير يؤدى إلى زيادة إحساسهم بأن هذا الشر قد حدث.

بناءً على الأسس المعرفية البحتة، يبدو صعبًا أن يفسر الموقف الذى تقوم فيه التصويبات بالتقوية الفعلية للاعتقادات الزائفة. ولكن بناءً على مسلمات معينة، فإن مجرد وجود هذا التصويب قد يشهد على زيفه. لذلك فإن بالإمكان أن ينظر إلى المحاولة التى يقوم بها مصدر غير موثوق به لدحض اعتقادات معينة، نقول: بالإمكان أن ينظر إلى هذه المحاولة بوصفها دليلاً إضافيًا لصالح تلك الاعتقادات. شاهد ذلك، أن هذه المحاولة لم يكن ينبغى بذلها لو لم تكن هذه الاعتقادات صحيحة، فلماذا يصوب خطأ ما، إلا إذا كان له شأنه وأهميته؟

ولا ريب أن كثيرًا من التصويبات لن تكون محبطة للنفوس. فإذا لم تكن لدى الناس دوافع قوية لتقبل وهْم ما "أى: اعتقاد خاطئ"، وإذا كانت معرفتهم السابقة ضعيفة، وإذا كانت لديهم درجة ما من الثقة فى هؤلاء الذين يقدمون لهم هذا التصويب، فإن اعتقاداتهم الزائفة ستتبدد. ومن ثم ستكون العواقب، أى: النتائج مختلفة بين الجماعات الاجتماعية المختلفة. مثال ذلك، أن بعض الجماعات ستكون مدفوعة بقوة لتقبل شائعة كريهة عن أحد السياسيين أو عن إحدى المؤسسات، بينما ستكون غيرها من الجماعات مدفوعة بقوة لرفض هذه الشائعة.

- الاستفتاء على الآراء القائمة على الحوار

في بعض المؤلفات ذات التأثير العظيم، أشار "جيمس فيشكين: James Feshkin" - إلى أن فكرة "الاستفتاء على الآراء القائمة على الحوار"، والتي يطلب فيها من جماعات صغيرة، تتكون من أفراد متنوعي الاتجاهات بدرجة كبيرة، أن يلتقوا معًا ويتبادلوا الرأى في قضايا مختلفة[٥٥]. وقد سبق لفيشكين أن أدار استفتاءات قائمة على تحاور الآراء في مسائل متعددة. وفي دول عديدة، بما فيها الولايات المتحدة، وإنجلترا، وأستراليا. ويكتشف فيشكين بعض التحولات الجديرة بالملاحظة في وجهات نظر الأفراد، وذلك بأسلوب يوحي بأن للتحاور تأثيرًا مهمًا، إلا أنه لم يجد ميلاً مضطردًا أو منتظمًا صوب استقطاب الجماعة. وفي دراساته، يتحول الأفراد صوب منطقة الوسط الواقعة بين وجهات النظر الموجودة قبل التحاور، كما يتحولون بعيدًا عنها. مثال ذلك، أن التحاور في إنجلترا أدى إلى تقليل الاهتمام باستعمال عقوبة السجن أداة لمكافحة الجريمة[٥٦]. وقد تم إظهار تحولات مماثلة في الاتجاه نحو التحمس الزائد لتوفير الحقوق الإجرائية القانونية للمتهمين، والرغبة المتزايدة في استكشاف بدائل السجن[٥٧].

وفي بعض القضايا، تمثلت نتيجة التشاور في خلق زيادة في شدة إيمان الناس بما كانوا مقتنعين به من قبل[٥٨]. ولكن في حالة الاستفتاءات القائمة على تبادل الآراء، كان من النادر أن يكون هذا الوضع نمطًا سائدًا. وفي بعض المسائل تسبب تبادل الآراء في زيادة النسبة المئوية للأفراد الذين يؤمنون بأحد آراء الأقلية، كما حدث مثلاً عندما قفزت هذه النسبة من ٣٦ في المائة إلى ٥٧ في المائة من الأفراد الذين يؤيدون السياسات التي "تجعل الطلاق أصعب" [٥٩]. وهذه التغيرات مختلفة جدًا عما لا

حظناه فى كولورادو، كما أنها ليست مما يمكن التنبؤ بحدوثه عن طـريـق استقطاب الجماعة.

كيف يمكننا شرح النتائج التى انتهى إليها فيشكين؟ إن ثلاثـة عوامـل على الأقل تميز استفتاء تبادل الآراء عن الاختبارات القياسـية لاسـتقطاب الجماعة. أولاً، كان المشرف على جماعات فيشكين وسـيطًا تهمـه كفالـة مستوى من التفتح الذهنى، كما يترجح أن يقوم بتعديل بعض الديناميات التى نناقشها هنا. ثانيًا، وربما يكون هذا العامل أكثر أهميـة، زودت الدراسـات التى قام بها فيشكين الأفراد بمجموعة من المواد المكتوبة التـى حاولـت أن تكون متوازنة، والتى احتوت على حجج تفصيلية تؤيد أطراف الحوار. فالناس، فى أقل تقدير، إذا لم يبدأوا بقناعات قوية، فستكون النتيجة المحتملة تحركهم فى اتجاهات تختلف عن الاتجاهات التى يمكن توقع السير فيها نتيجة للنقاش البسيط بين أفراد الجماعة، وهو النقاش الذى لا يتأثر بمواد خارجيـة تشتمل على درجة ما من الحجية، أى القوة المقنعة. والحقيقة أن من السهولة إنتاج مجموعة من أمثال تلك المواد التى يمكن التنبؤ بأنها سـتحول آراء الأفراد إلى التوجه الذى يفضله القائم على التجربة. بل إنه حتى لو لم يقـم الباحث بمحاولة مقصودة للتأثير على الجماعة، أو لم يبذل جهدًا عامًا ليكون محايدًا وعادلاً؛ فإن هذه المواد ستؤثر بلا شك فى الاتجاه الذى سيسير فيـه الحوار بين أعضاء الجماعة.

ثالثًا، إن المشاركين فى بحث فيشكين لم يتحاوروا فى شأن اتخاذ قرار يخص الجماعة، كما أن من المحتمل، أن غياب مثل هـذا القـرار أضـعف المؤثرات التي تنتج التطرف. ذلك أن الأفراد عندما يلتزمون بحكـم مـن أحكام الجماعة، فمن الراجح أن استجاباتهم الفردية، حتى لو كانـت لاحقـة

ومجهولة الاسم، أى غير منسوبة لأفراد معينين بأسمائهم، ستكون متأثرة بهذا الالتزام. ولا ريب أن استقطاب الجماعة قد وجد بعد مجرد التعرض لآراء أعضاء الجماعة الآخرين، إلا أنه يكون - وكما هو معروف - أقل مما يكون عليه بعد النقاش، وبعد أن تقول الجماعة حكمها[٦٠]. وتسهم هذه العوامل الثلاثة فى إحداث النتائج التى توصل إليها فيشكين.

- الجماعات على امتداد الزمن: "مباريات الاستقطاب"

تشتمل معظم الدراسات التى أجريت على استقطاب الجماعة، على تجارب ذات لقطة واحدة. خذ مثلاً تجربة كولورادو، والتى جمع فيها الأفراد معًا، وطلب منهم أن يتحادثوا، ثم صرفوا للعودة لبيوتهم. دعنا نلاحظ أحد المعانى الضمنية المثيرة للتساؤل فى هذه التجارب، وهو معنى ضمنى ذو أهمية خاصة بالنسبة للأفراد الذين يتقابلون مع بعضهم بعضًا ليس لمرة واحدة، ولكن على أساس منتظم.

افترض أن المشاركين ينخرطون فى مناقشات متكررة. وافترض أنهم يتقابلون كل شهر، ويعبرون عن آرائهم، ثم يأخذون الأصوات أى: يقومون بالاقتراع على الرأى الأكثر قبولاً. فإن حدث ذلك، فإنه ينبغى أن تحدث تحولات متكررة فى الاتجاهات صوّب، وبإزاء، آراء متطرفة محددة. وافترض أن جماعة من المدنيين تفكر فى موضوع الهندسة الوراثية للطعام، أو تغير المناخ، أو الحرب على الإرهاب. إن النتيجة التى ينتهى إليها نقاشهم، وعلى امتداد الزمن، ينبغى أن تفضى إلى اتجاهات متطرفة تمامًا. ذلك أنه فى مباريات الاستقطاب هذه، يحتمل - بدرجة كبيرة - أن يتسبب الحوار المستمر على امتداد الزمن فى إيجاد موقف يؤول أمر الأفراد فيه إلى

التمسك بوجهات نظر أشد تطرفًا من وجهات نظر أى عضو بصفته الفردية قبل أن تبدأ سلسلة المحاولات وتبادل الآراء.

والواقع أن فكرة مباريات الاستقطاب المتكررة تبدو أكثر واقعيةً من العمليات التى تدرس فى التجارب ذات اللقطة الواحدة. فالمعهود أن الجماعات تتلاقى مرات كثيرة، وليس مرة واحدة فقط. ويبدو أنه توجد دراسات قليلة العدد لمباريات الاستقطاب المتكررة هذه. إلا أنه ليس من العسير أن نتصور الجماعات الموجودة فى العالم الواقعى، والتى تبدو فيها نتيجة التحاور، والذى يستمر على امتداد الزمن، هذه النتيجة متمثلة فى زحزحة أو نقل كل من الجماعات والأفراد إلى مواقف، أى آراء لم يكن ممكنًا، قبل ذلك، أن يوافقوا عليها. ومن الواضح أن تحولات من هذا النوع قد حدثت مع الجماعات الطلابية فى ستينيات القرن العشرين [٦١]. ويبدو أيضًا أن هذه التحولات قد حدثت مع الإرهابيين الإسلاميين فى أعقاب هجمات ١١/٩ [٦٢].

وفى مقابل ذلك، ليس صحيحًا أبدًا أن أعضاء المنظمات السياسية يتصرفون وفقًا لهذا الأسلوب تمامًا، حتى على الرغم من أنهم يتقابلون على أساس مستمر.

ففى الولايات المتحدة، لا يتحرك الديمقراطيون عادة نحو المزيد والمزيد من اتجاه اليسار، كما أن الجمهوريين لا يتحركون عادةً نحو المزيد والمزيد من اتجاه اليمين. لماذا يحدث هذا؟ من أسباب ذلك أن الأفراد واعون وأنهم يعرفون ما يعتقدونه، أو ما لا يعتقدونه، كما أن وعيهم يحد من تحركاتهم فى اتجاه المغالاة والتطرف. ومن الأسباب الأخرى " وجود القيود

الخارجية على الحركات المتطرفة " فلو تحول اتجـــاه الـــديمقراطيين بعيـــدًا صوب اليسار، فسوف يجدون أنفسهم وقد قل عدد نـــاخبيهم، كمـــا أن هـــذه الحقيقة تفرض انضباطًا حقيقيًا يؤثر علـــى نتـــائج المحـــاورات الداخليـــة. فالمنظمات السياسية تهتم بجذب الأعضاء إليها وبتحقيـــق أهـــدافهم، ولهـــذا الاهتمام نتائجه الملحوظة فى تقييد التحركات المحتملـــة لهـــذه المنظمـــات. وبصورة أكثر عموميةً، فإن اتجاه التحركات المتطرفة ومداها سيتوقفان غالبًا على وجود القيود الخارجية. وتفرض الضغوط التى لهـــا طـــابع ضـــغوط السوق، والتى من نوع الضغوط التى تواجهها الأحزاب الـــسياسية، نقـــول: تفرض هذه الضغوط قيودًا ملحوظة فى أغلب الأحيان.

وهكذا، أيضًا، تكون الحال فى قطاع الأعمال، افترض أن مجموعة من الأفراد الذين يقودون إحدى الشركات مضوا فى اتجاه متطرف. وافترض أن النتيجة هى إنتاج منتجات ذات مستوى أدنى. حينئذٍ ستعاقب هذه الشركة إذا لم يرض العملاء عن تلك المنتجات. وتقدم الحياة عددًا من المراجعات التى نراجع بها الواقع، كما أن بإمكان هذه المراجعـــات أن تحـــد مـــن حـــدوث التحولات المتطرفة فى معتقداتنا وأفعالنا.

- الناس مختلفون: عن العتبات ومراحل الانقلاب

للأفراد المختلفين "عتبات" مختلفة للتحرك نتيجة للمعلومـــات الجديـــدة "التى يحصلون عليها" أو للضغوط الاجتماعية(٦٣). وتعتبر هذه العتبات مهمة لفهم ديناميات التطرف.

افترض أنك تعتقد أن تغير المناخ مشكلة خطيرة، وأنه ينبغي على العالم أن يدخل فى اتفاقية لفرض قيود صارمة على ظاهرة الانبعاثات الغازية الصادرة من الدفيئة. ومن الممكن أن تكون مؤمنًا بهذا الاعتقاد بدون اقتناع كبير، بمعنى أنه لو أن أفرادًا معينين أخبروك أنك مخطئ لغيرت موقفك على الأرجح. وافترض أن عديدًا من الأصدقاء أخبروك أن أفضل أسلوب لمعالجة مشكلة تغير المناخ تكون من خلال فرض قيود معقولة، أى معتدلة والتى تزيد بمرور الزمن، وذلك بجانب توفير الاعتمادات المالية لمساعدة الدول الفقيرة على التكيف مع المناخات الأدفأ. وربما تكون أحكامهم كافية لإقناعك. فإذا لم تكن هذه الأحكام كذلك، فقد يرجع ذلك إلى أن عتبتك الخاصة بتغيير رأيك عتبة مرتفعة جدًا، وأنك لن تأخذ بوجهة نظر مختلفة ما لم تتلق حججًا مفصلة من مصادر حقيقية موثوق بها. والفكرة الأساسية هنا، أن بعض الأفراد سيغيرون آراءهم بسهولة عند سماعهم لرأى مختلف، بينما سيغير غيرهم آراءهم بصعوبة أكبر، ويتبقى أفراد آخرون ممن لن يغيروا آراءهم إلا إذا زودوا بأسباب قوية جدًا ليغيروا آراءهم.

تساعد هذه الأفكار فى تفسير لماذا سوف يتحرك الأفراد المختلفون بدرجات مختلفة داخل أحد مواقع الجماعة، ولماذا لن يتحرك بعض الأفراد على الإطلاق، ولماذا تكون بعض الجماعات أكثر عرضة للتحرك من غيرها. هنا أمران لهما أهميتهما: الاتجاه الذى تميل إليه قناعات الأفراد، وعتبات الأفراد الخاصة بتغيير هذه القناعات. تذكر أنه بين القضاة الفيدراليين لا يوجد استقطاب فى قضايا الإجهاض، والأمن القومى، وعقوبة الإعدام، والسبب الظاهر لذلك أن عتبة تغيير الآراء عندهم مرتفعة ارتفاعًا شديدًا. وحين يبدأ أعضاء الجماعة بقناعات راسخة، يتطلب الأمر قدرًا كبيرًا من المعلومات أو من الضغط الاجتماعى أو من كليهما لتغيير آرائهم.

وإذا كانت المؤثرات الاجتماعية قوية بما فيه الكفاية، فإن من الراجح أن هؤلاء الأفراد سيتحركون أى: سيغيرون آراءهم، إلا أن مدى حركتهم يكون محدودًا نظرًا لما لهم من عتبات مرتفعة تحول دون تقبلهم لمعتقدات معينة أو اشتراكهم فى سلوك معين.

إن بإمكان مراحل الانقلاب أن تكون مهمة بدرجة هائلة للحركات المتطرفة. افترض، مثلاً، أن جماعة من الأفراد يقررون ما إذا كانوا يقومون بفعل ما من عدمه، كأن يشتركوا مثلاً فى احتجاج عنيف. فإن كان ١٠ فى المئة فقط من الجماعة يحبذون الفعل العنيف، وإذا طبقت قاعدة الأغلبية، فلن يحدث عنف. ولكن افترض أنه توجد بعض مظاهر الاعتماد المتبادل بين أعضاء الجماعة، بحيث أن ما يفعله شخص واحد سيعتمد على ما يفعله الأفراد الآخرون. وافترض أن لدى هؤلاء الأفراد عتبات مختلفة، وأن معظم أعضاء الجماعة سيختارون أن يشتركوا فى العنف إذا حبذ عدد كاف من الأعضاء الآخرين هذا المسار. وإذا قام هؤلاء الميالون للعنف بصورة واضحة بتعريف غيرهم بآرائهم فى مرحلة مبكرة، فسوف ينضم إليهم غيرهم ممن لديهم عتبات منخفضة نسبيًا. وإذا قاوم ذوو العتبات العالية هذه الآراء، وكانوا ذوى عدد كاف، فستكون الجماعة الأولى مهجورة أو غير مقبولة. ولكن افترض، بدلاً من ذلك، أنه يوجد نوع من تسلسل الوقائع يقوم فيه الأعضاء الميالون للعنف بطرح آرائهم أولاً، ويعقبهم من لهم عتبات منخفضة، ثم يأتى بعدهم من لهم عتبات مرتفعة إلى حد ما. يمكننا – بسهولة– أن نتخيل حدوث نوع من التدفق أو التعاقب المتصاعد فى اتجاه العنف.

والفكرة العامة هنا هى؛ أنه بمجرد أن يتلاقى عدد كاف من الأفراد على العنف، تحدث مرحلة انقلاب، بمعنى أن من لديهم عتبات عالية تمنعهم من الموافقة "سينقلبون"، وأن معظم أعضاء الجماعة سينتهى بهم الأمر إلى أن يصبحوا راغبين فى تأييد العنف. ولمعرفة ما إذا كان العنف سيحدث أم لا، فإن قدرًا كبيرًا من هذا الأمر يتوقف على من الذى يتكلم أولاً أو يتصرف أولاً، كما يتوقف على توزيع، أى درجة انتشار الآراء التى تؤمن بها الجماعة من قبل. كما أن هذا يترتب عليه أن بإمكان المتغيرات الضئيلة والعشوائية فى ظاهرها أن تقوم بدور كبير فى تحريك الجماعات الضخمة من الأفراد صوب التطرف [٦٤]. وفى بعض الأحيان يكون من المحال التنبؤ بالحركات المتطرفة، حتى على الرغم من أنها تبدو حتمية فى الإدراك المؤخر وهو إدراك طبيعة الحادثة بعد وقوعها بمدة[*]. فتنجم صعوبة التنبؤ من كون الملاحظين يفتقدون القدرة على الوصول إلى الأفكار الخاصة للأفراد، ومن ليست لديهم فكرة عما هى أنواع العتبات التى من شأنها أن تقود الأفراد إلى التحرك فى الاتجاهات المتطرفة.

إن لسقوط الشيوعية صلة كبيرة بالعمليات التى من هذا النوع[٦٥]. فحين تحدث تغيرات ضخمة كانت تبدو غير قابلة للتنبؤ بها، فإن سبب ذلك - غالبًا - يرجع لوجود عتبات مختلفة داخل السكان. وبمجرد أن يبدأ الناس فى تغيير مواقفهم، فإن التحركات الحادة تصبح ممكنة بصورة مفاجئة.

(*) المصدر: قاموس المورد.

- السلطة والطاعة (*)

والآن هيا بنا ننكب على دراسة بعض ما قدمه العلم الاجتماعي الحديث من نتائج بحث هي الأعظم شهرة والأشد إثارة(٦٦). وقد اشتملت هذه التجربة، والتي أجراها ستانلي ميلجرام، على دراسة التأثير الذي تحدثه إرادة القائم على التجربة، وليس التأثير الذي تحدثه الأحكام التي يصدرها رفقاء الفرد وأصدقاؤه. ومن المؤكد إلى أبعد حد، أنه لحسن الحظ أو لسوئه، لا يمكن إجراء هذه التجارب في وقتنا الحالي بسبب القيود المفروضة على استخدام المبحوثين من البشر. بيد أن هذه التجارب لها أهمية مستقلة، وذلك لما لها من مضامين تتصل بالتأثيرات الاجتماعية التي تؤثر على الأحكام الخاصة بكل من الفضائل الخلقية والحقائق. والواقع، أنه ليس في الإمكان فهم التطرف بدون فهم الطاعة، كما أنه ليس من السهل فهم الطاعة بدون فهم عمل "ميلجرام:Milgram".

طلبت هذه التجارب من الأفراد المبحوثين أن يطلقوا صدمة كهربية على شخص جالس في حجرة مجاورة. وكان المبحوثون في تجربة ميلجرام قد أخبروا، وبما هو مخالف للحقيقة، أن هدف التجربة هو اختبار ذاكرة الأفراد ومعرفة ما إذا كان العقاب قد يساعد على تحسين التذكر أم لا. ولم يكن المبحوث يعرف أن الشخص الضحية الذي يتلقى الصدمة الكهربية شريك للقائم على التجربة، ولا أنه لم تكن توجد صدمات حقيقية. فقد كان يتم إطلاق الصدمات الظاهرية عن طريق مولد زائف للصدمات به مستويات فولتية عددها ثلاثين مستوى ومحددة بخطوط واضحة، حيث تبدأ ب ١٥ فولتًا وتنتهي ب ٤٥٠ فولتًا، ويصحب هذه المستويات توصيفات لفظية تبدأ من "صدمة خفيفة" وتنتهي إلى "خطر: صدمة شديدة". وكما تكشفت عنه هذه

(*) تستعمل كلمة (authority) في هذا النص بمعنى "السلطة" كما تستعمل بمعنى "الشخص محل الثقة". (المترجم) .

التجربة، فقد طلب من الأفراد المبحوثين أن يطلقوا صدمات تتزايد شدتها في حالة الأجوبة الخطأ على أسئلة الذاكرة، حيث تصل هذه الصدمات إلى المستوى المكتوب أمامه "خطر: صدمة شديدة" وتتجاوزه، وهو الذي يبدأ عند ٤٠٠ فولت.

في التجارب الأصلية لميلجرام، اشتمل المبحوثون على أربعين رجلاً تتراوح أعمارهم بين العشرين والخمسين. وقد جاءوا من مجموعة من الوظائف، فكان منهم المهندسون، ومدرسو المدارس العالية، والكتبة العاملون في البريد. وقد دوفع لهم مبلغ قليل من المال لقاء مشاركتهم، كما أخبروا بأنه يمكنهم الاحتفاظ بهذا المال أيًا ما كانت نتيجة التجربة. وكان "اختبار الذاكرة" هنا يشتمل على تذكر الكلمات المزدوجة، حيث كانت كل غلطة، صادرة من الضحية، تقابل بصدمة كهربية ونقلة لمستوى أعلى على مولد الصدمات. ولضمان أن يبدو كل شيء حقيقيًا، كان المبحوث يعطي، في بداية التجربة، عينة صدمة حقيقية عند المستوى الأدنى "الصدمات". إلا أن المبحوث كان متأكدًا - أيضًا - من أن الصدمات لن تسبب ضررًا يدوم لمدة طويلة، وذلك من خلال ما يعلنه القائم على التجربة، في رده على سؤال متفق عليه يقوله الشريك، حيث يقول القائم على التجربة في رده هذا: "رغم أن بالإمكان أن تكون هذه الصدمات مؤلمة للغاية، فإنها لا تسبب ضررًا مستديمًا للأنسجة"(٦٧).

في هذه التجارب الأصلية، لم يظهر الضحية أى احتجاج إلى أن تصل الصدمة إلى ٣٠٠ فولت، وذلك حين يركل - في صياح صاخب - حائط الحجرة التي يوجد فيها مقيدًا إلى الكرسي الكهربائي بعد هذه المرحلة، لم يكن الضحية يجيب عن الأسئلة التالية، وكان يسمع صوته فقط بعد وصول الصدمة إلى ٣١٥ فولتًا، وذلك حين كان يقرع الحائط للمرة الثانية، كما لم

يكن يسمع له صوت من بعد ذلك، حتى فى حالة زيادة الصدمات التى تصل قوتها إلى ٤٠٠ فولت وتتجاوزه.

فإن أبدى المبحوث اعتراضًا على الاستمرار، فإن القائم على التجربة كان يوجه إليه عبارات، تتزايد صرامتها، يحثه فيها على الاستمرار، ابتداءً من قوله له: " استمر من فضلك" وانتهاء بقوله: "ليس لك خيار آخر، لا بد أن تستمر"[٦٨]. إلا أن القائم على التجربة لم تكن لديه سلطة لفرض عقوبات على المبحوثين.

ما الذى تتصور أن الأفراد سوف يفعلونه، وذلك عندما يوضعون فى هذه التجربة؟ يتوقع معظم الناس أنه فى مثل تلك الدراسات، سوف يرفض أكثر من ٩٥ فى المائة من المبحوثين استمرار المضى حتى نهاية سلسلة الصدمات، وعندما يطلب من الناس أن يتنبأوا بما سوف يفعله الأفراد المبحوثون، فإن ما يتنبأون به بخصوص مرحلة التوقف عن الاستمرار فى التجربة هى مرحلة "الصدمة القوية جدًا"، والتى قوتها ١٩٥فولتًا [٦٩]. إلا أنه فى التجربة الأصلية لميلجرام: مضى كل واحد من المبحوثين الأربعين فى التجربة حتى تجاوز ٣٠٠ فولت. وكان متوسط المستوى الأقصى للصدمات التى أطلقها المبحوثون على الضحايا هو ٤٠٥ فولتات، وقد وصلت أغلبية قوية - ستة وعشرون من أربعين مبحوثًا، أو ٦٥ فى المائة منهم - نقول: وصلت هذه الأغلبية إلى الصدمة الكاملة التى قوتها ٤٥٠ فولتًا، وهى ما تتجاوز المرحلة التى تحمل عنوان "خطر: صدمة شديدة" بخطوتين[٧٠].

بل إن التنويعات اللاحقة القائمة على هذه التجارب- التى أجراها ميلجرام- قدمت نتائج تستحق المزيد من الملاحظة. وفى تلك التجارب

اللاحقة أبدى الضحية مستوى متناميًا من الألم والكرب عندما زادت قوة الفولتيه [٧١]. وقد سمعت أصوات نخرات صغيرة من الضحايا ابتداءً من ٧٥ فولتًا حتى ١٠٥ فولتات، وعند الوصول إلى ١٢٠ فولتًا صاح المبحوث، وهو يشيـــر إلى القائم على التجربة بأن الصدمات بدأت تصير مؤلمة. وعند ١٢٠ فولتًا صرخ الضحية قائلاً: "أيها القائم على التجربة، أخرجنى من هنا ! لن أستمر فى التجربة أكثر من ذلك! أنا أرفض الاستمرار فيها"![٧٢]. وعند ١٨٠ فولتًا، قال الضحية: "لا أستطيع تحمل الألم". وعند ٢٧٠ فولتًا يرد بصراخ يدل على معاناته لعذاب أليم. وعند ٣٠٠ فولت يصيح مشيرًا إلى أنه لن يرد بعد ذلك على الأسئلة. وعند ٣١٥ فولت يصرخ صراخًا عنيفًا. وعند ٣٣٠ فولتًا فما بعدها، لا يسمع له صوت.

فى هذه الصورة المختلفة لتجربة ميلجرام لم يوجد، أى لم يحدث تباين مهم يختلف عن نتائج تجربة ميلجرام. فقد وصل خمسة وعشرون من الأربعين مشاركًا إلى المستوى الأقصى لإطلاق الصدمات، كما أن متوسط المستوى الأعلى لمجموع المشاركين كان فوق ٣٦٠ فولتًا. وفى صورة أخرى مختلفة لتجربة ميلجرام ذات طابع رهيب نوعًا ما، يقول الضحية، وقبل أن تبدأ التجربة، إنه مصاب بحالة قلبية، وكانت توسلاته التى يطلب فيها إيقاف التجربة تتضمن إشارات متكررة تدل على حقيقة أن قلبه "يزعجه" عندما تستمر الصدمات[٧٣]. ولم يؤد هذا الوضع، وكذلك، بالمبحوثين إلى أن يتصرفوا بطريقة مختلفة. وبصورة تستحق الملاحظة، فإن النساء لا يتصرفن بشكل يختلف عن الرجال فى هذه التجارب، فهن يبدين الأنماط الأساسية لردود الأفعال نفسها.

إن ميلجرام نفسه يشرح نتائجه باعتبار أنها تتضمن "التسليم" بطاعة السلطة، وذلك بأسلوب يفسر أشكالاً معينة من التطرف، والتى منها سلوك الألمان تحت حكم النازي. والواقع أن مليجرام أجرى تجاربه لأغراض منها أن يفهم كيف أمكن للهولوكوست أن يحدث[٧٤]. وانتهى ميلجرام من تجاربه إلى نتيجة مفادها؛ أن الناس سوف يتبعون الأوامر، حتى لو كانت النتيجة إحداث معاناة شديدة يكابدها آخرون من الأبرياء. ولا شك أن الطاعة الساذجة جزء من هذه الصورة. إلا أننى أريد أن أنبه إلى تفسير آخر لهذه التجربة يرتبط ارتباطًا وثيقًا باستقطاب الجماعة[٧٥].

ويشتمل هذا التفسير على المعلومات التى يتم نقلها بواسطة التعليمات التى يصدرها شخص ذو سلطة مشروعة بصورة واضحة. فالأفراد الذين يدعون إلى موقع أكاديمي، وذلك للمشاركة فى تجربة يشرف عليها عالم معروف عنه أنه خبير فى علمه، يترجح إلى حد كبير أن يذعنوا لتعليمات هذا المشرف على التجربة، معتقدين أنه من المعقول أن هذا المشرف على التجربة يعلم ما ينبغى أن يفعل، وذلك بعد إدخال كل الاعتبارات فى الحسبان، وأنه من المستبعد أن يتسبب هذا المشرف على التجربة فى الإيذاء الشديد بدون سبب مشروع. وموجز القول: إن الأفراد يتبعون نوعًا من التفكير العملى أو المسار العقلى المختصر. "فعندما يسألني مشرف على تجربة له وظيفة رسمية معتمدة أن أفعل شيئًا ما، فمن الممكن أن يكون الصواب أن أفعله، أو – على الأقل –لا يكون أمرًا رهيبًا أن أفعل هذا الشيء. فإذا طلب هذا المشرف على التجربة من الأفراد أن يواصلوا السير فى التجربة، فالراجح أن معظمهم يعتقدون، وعلى نحوٍ له ما يبرره، أن الأذى الذى يلحق بالضحايا ظاهريًا ليس أذى حادًا. وبناء على هذا التفسير،

فإن للمشرف على التجربة خبرة خاصة. كما أنه بناءً على هذا التفسير، يقوم كثير من المبحوثين بتنحية شكوكهم الأخلاقية جانبًا، وليس ذلك بسبب طاعتهم العمياء، وإنما بسبب حكمهم بأن من الراجح أن شكوكهم ليس لها أساس سليم. ولابد أن هذا الحكم، بدوره، قد أقيم على أساس اعتقاد بأن من المستبعد أن يطلب المشرف على التجربة من المبحوثين أن يواصلوا السير فى التجربة إذا كانت مما يعترض عليه.

بناءً على وجهة النظر هذه، فإن المبحوثين فى تجربة ميلجرام كانوا يستجيبون لإشارة معلوماتية شديدة الوضوح بصفة خاصة، من نوع الإشارة التى يرسلها اختصاصى حقيقى فى هذا المجال. ثم لاحظ أن، فى الواقع، من أطاع مصدر السلطة هذا، فى التجربة التى أجراها ميلجرام، ثبت أنهم على صواب. حيث إنه لم يكابد أحد عناءً. والمشكلة الخطيرة هنا، والتى كشف عنها ميلجرام، هى أن هذا التفكير العملى – والذى يحبذ طاعة من يتمتعون – عن جدارة وثقة – بسلطة واضحة – لا يؤدى عمله بصورة جيدة دائمًا. فهو فى الحالات التى تجرى فى الحياة الواقعية، يؤدى إلى أخطاء أخلاقية رهيبة.

وتقدم دراسة تالية، مستكشفة الأسس التى تقوم عليها الطاعة، دعمًا لهذه القراءة التى قرنت بها تجارب ميلجرام [٧٦]. وفى تلك الدراسة، قام عدد كبير من الأفراد بمشاهدة الأشرطة التى سجلت عليها تلك التجارب، وطُلب منهم أن يضعوا درجات للتفسيرات الممكنة لخضوع المبحوثين لطلبات المشرف على التجربة. وقد نال التفسير "بالإذعان للخبرة" بأعلى درجة. وليست هذه الدراسة دراسة حاسمة أو قاطعة بلا ريب، لكنها شكل مختلف قائم على التجربة الأساسية، والتى أجراها ميلجرام نفسه، وهو شكل يزودنا بدعم إضافى لها[٧٧]. وفى هذا الشكل المختلف، وضع المبحوث بين

ثلاثة أشخاص طلب منهم أن يطلقوا الصدمات. وقد رفض اثنان من هؤلاء الأفراد، وهم فى الحقيقة من شركاء ميلجرام، أن يتجاوزا مستوى معينًا ١٥٠ فولتًا لأحدهما و ٢١٠ فولتات للآخر. وفى هذه الحالات، قامت الأغلبية العظمى من المبحوثين - ٩٢. ٥ فى المائة - بتحدى المشرف على التجربة وكانت هذه الدراسة - حتى الآن - أشد الدراسات تأثيرًا من بين الأشكال المختلفة الكثيرة للدراسات القائمة على أساس الدراسة الأساسية لميلجرام، والتى صممت كلها لتقليل مستوى الطاعة.

من الواضح أن التأثير، فى التجارب التى أجرها ميلجرام، كان نابعًا من الموقع الخاص للمشرف على التجربة، والمتمثل فى أن الصدمات ينبغى أن تستمر، وأن الضرر المستديم لن يحدث. ولكن عندما تحدى رفقاء المبحوث المشرف على تجربة ميلجرام، أبطل تأثير موقع هذا المشرف على التجربة عن طريق ما وصله من معلومات من خلال اعتراضات الرفقاء. ففى هذه الحالة استطاع المبحوثون أن يعتمدوا على أحكامهم الأخلاقية الشخصية، أو ربما استطاعوا اتباع الإشارات الأخلاقية التى جاءتهم من اعتراضات الرفقاء. بل إن ميلجرام نفسه قرر، فى شكل مختلف آخر للتجربة أجراه فيما بعد، أمرًا طيبًا يتصل بالطبيعة الإنسانية. وهو أنه بدون أى نصيحة من المشرف على التجربة، وبدون أى تأثيرات خارجية على الإطلاق، فإن الحكم الأخلاقى للمبحوث كان واضحًا؛ لا تطلق صدمات فوق أحد المستويات الشديدة الانخفاض.

إن هذه الدروس العامة دروس واضحة صريحة. فاستقطاب الجماعة يحدث بسبب الإشارات المعلوماتية والإشارات التى تحظى بالثقة والاحترام، والتى يبعث بها الآخرون. فعندما يأمر شخص، مصدر ثقة أو مصدر سلطة،

الناس بأن يفعلوا شيئا ما، فإن بالإمكان أن تكون كلتا هاتين الإشارتين شديدة الوضوح. وعندما يأمرك مصدر سلطة أن تقوم بأداء عمل ما يبدو فى ظاهره ضارا أو قاسيا، فقد تقوم بهذا العمل تماما، إما لأنك تظن أنه من الصواب أن تقوم به، وإما لأنك لا تريد أن تجازف بسمعتك الطيبة. ففى إحدى التجارب، مثلا، كان عشرون من إحدى وعشرين ممرضة راغبات فى اتباع أوامر أحد الأطباء بإعطاء جرعة مقدارها 20 مليلترًا من عقار اسمه "أندروجن -حتى على الرغم من أن الورقة الملصقة عليه كانت تقرر بوضوح أن 5 ميليلترات هى الجرعة المعتادة، كما كانت تحذر من أن 10 مليلترات هى الحد الأقصى[٧٩]، وإن بالإمكان العثور على أشكال متشابهة من الطاعة أو الإذعان للسلطة خارج نطاق تجارب العلم الاجتماعى وقد أجاب ما يقرب من نصف الممرضات اللاتى أجرى عليهن مسح اجتماعى، بأنهن يستطعن أن يتذكرن وقتا قمن فيه فعلا "بتنفيذ أحد أوامر الأطباء الذى تشعر أنه قد تكون له عواقب ضارة بالمريض[٨٠].

فى هذه الحالات، بدت الممرضات وكأنهن يتبعن نوعا من التفكير العملى المعقول، مما أدى بهن إلى النتيجة التالية: "اتبعن أوامر الطبيب، لأن الأطباء يعلمون ما هو أفضل شئ لصالح المرضى". وفى ظل المسلمات المقبولة، يقوم هذا التفكير العملى بدوره خير قيام. ومن المحتمل أن تسوء حالة الرعاية الطبية، لا أن تتحسن، إذا اعتادت الممرضات أن ينشغلن بالتفكير فى تأييد قرارات الأطباء. والمشكلة، وكما هى عليه فى تجارب ميلجرام، أنه بإمكان هذا التفكير العملى أن يتسبب فى إحداث أخطاء ملحوظة. فالأطباء يخطئون فعلا، كما أن الممرضات فى بعض الأحيان يحسنَّ صنعا بطرح سؤال على الطبيب إذا وجدنه أخطأ.

لاحظ هنا الحقيقة التى مفادها؛ أنه ليس أقل من ثمانية وستين مطعما من مطاعم الوجبات السريعة كانت عرضة لعمليات خادعة ناجحة من التفتيش عن الأشياء المخفاة فى الملابس بعد خلع هذه الملابس، والتى فيها يقوم أحد رواد المطعم من الرجال، والمتنكر فى هيئة ضابط شرطة اسمه "سكوت: Scott"، يقوم بإبلاغ أحد مساعدى مدير المحل بأن إحدى الموظفات بهذا المطعم ارتكبت جريمة سرقة[٨١]. ونظرا لمعرفته قدرًا كبيرًا من المعلومات عن الأحوال فى هذا الحى، يسأل "الضابط سكوت" المدير عن اسم موظفة ذات جمال أخاذ، يقول سكوت، إنها تورطت فى جريمة سرقة، وأن من المناسب أن يتم الاستيلاء على ما سرقته. وحينئذ يسمح للضابط سكوت أن يتحدث مع هذه الموظفة، وهو يخبرها بأن لها اختيارين، فبإمكانها أن تأتى إلى إدارة الشرطة ليتم التفتيش عن المسروقات المخفاة فى ملابسها بعد خلع هذه الملابس، أو يتم هذا التفتيش بدلا من ذلك فى نفس هذه اللحظة على يد زميلة لها من الموظفات. ونظرا لأنها واثقة من براءتها، فإن هذه الموظفة توافق. وحينئذ يأمر الضابط سكوت تلك الموظفة الزميلة أن تفتش أشد مناطق جسم هذه الفتاة خصوصية، وذلك فى الوقت الذى تقوم فيه كاميرات فيديو المحل بمراقبة الأمر. فهذا شاهد جلى على مدى ما يمكن لتفكير عملى معقول، مؤيد لطاعة السلطة، أن يخطئ خطأ فادحا. إن على الأفراد فى العادة أن يطيعوا ضابط الشرطة، ولكن ليس عندما يطلبون من النساء أن يخضعن لتفتيش يخلعن فيه ثيابهن بدون هدف مشروع.

إن حالة الضابط سكوت نوع من الخداع، بطبيعة الأمر، لكنها تعطينا انطباعا بأن الغالب على الحركات المتطرفة أنها تحدث لمجرد أن واحدا ممن هم فى موقع سلطة قد بادر بإطلاقها. وإن الأعمال الوحشية التى تحدث فى

الواقع، بما فيها التعذيب بل والإبادة الجماعية، يمكن تفسيرها جزئيا بالرجوع إلى الآليات التى من هذا النوع [٨٢]. تأمل هذه الكلمات التى قالها أحد المشاركين فى الإبادة الجماعية فى رواندا حيث قال: "عندما تتلقى أمرًا جديدا، فإنك تتردد ولكنك تطيع، وإلا فإنك تقوم بمجازفة خطيرة. وعندما تكون مهيأ على النحو الصحيح من خلال الإذاعات والنصيحة الرسمية، فإنك تطيع بشكل أسهل، حتى لو كان الأمر هو أن تقتل جارك. إن مهمة المنظم الجيد هى أن يمنع مظاهر ترددك وهو يعطيك التعليمات. . . فأنت تطيع بكامل حريتك" [٨٣]. وبعد وقت ما، قد يصبح ما تطالب به فى حكم العادة، وكما عبر عن هذا الأمر شخص آخر فقال: "كان القتل فى مبدأ الأمر إجباريا أى: يفرض على المرء أن يقتل، وبعد ذلك اعتدنا عليه. فقد أصبحنا وحشيين بطبيعتنا. ولم نعد نحتاج إلى تشجيع أو إيعاز بالقتل، بل ولا إلى أوامر أو نصائح به. وكان الانضباط فى حالة استرخاء لأنه لم يكن ضروريا بالمرة"[٨٤].

وهنا توجد قضية مهمة تتعلق بالموانع الخلقية العادية وبأهمية تقوية البديهيات الأخلاقية التى تشكل أساس هذه الموانع الخلقية أى الزواجر الخلقية وكما يكتب "تزيفيتان تودوروف: Todorov Tzvetan" قائلاً: "إن ما تعلمنا إياه جرائم النازيين، هو أن من يقومون بتنفيذ القانون أشد خطرا من الذين ينتهكونه. فيا ليت الحراس كانوا قد سموا بأنفسهم فوق مستوى غرائزهم. ولكن لسوء الحظ أنهم اتبعوا الأوامر" [٨٥]. وفى عرضه لهذا الموضوع، يذهب تودوروف إلى أن النمط السائد للحراس فى معسكرات التجميع أى التى كان يحشد فيها أعداء الحزب النازى وخصوم هتلر فى الحرب العالمية

الثانية، كان من الحراس الممتثلين للأوامر، حيث كان الواحد منهم راغبًا في خدمة أى من كان يستغل قوته، كما كان الحارس مشغولا بصالحه الشخصى أكثر من انشغاله بانتصار المذهب (٨٦). وحينما يعمل النظام داخل السجون بكفاءة، فإن من الراجح أن يطيع الحراس رؤساءهم، أما حينما لا يعمل النظام بكفاءة، فإن من الراجح أن يكون الحراس مهيئين للعصيان.

- فلسفة المواقف (*)، وسوء المعاملة فى السجون، وتجربة سجن ستانفورد

تطرح هذه إجابتين مختلفتين للسؤال الدائم المتكرر: لماذا ترتكب الكائنات الإنسانية أفعالا حقيرة؟ تشير إحدى الإجابتين إلى الميول أو النزعات الفردية، وتؤكد الإجابة المختلفة، والتى يوحى بها عمل ميلجرام، على أهمية الضغوط التى تفرضها المواقف. وفى سنة ٢٠٠٥، أكدت وزيرة الخارجية كوندوليزارايس على أهمية الميول أو النزاعات الفردية فى شرح الإرهاب باعتبار هذه المسألة "مجرد أفراد أشرار يريدون القتل". ويرفض من يسمون المواقفيون هذا الرأى. فهم يؤمنون بأن الأعمال الرهيبة يمكن أن يرتكبها أفراد أسوياء تماما. ويصر أشد المفكرين الآخذين بفلسفة المواقف تطرفا، على القول بأن فى الظروف الملائمة، قد يساق معظمنا، وربما كلنا تقريبا، لارتكاب الأعمال الوحشية.

وتتلقى وجهة النظر المواقفية تأييدا قويا من تجربة ميلجرام، ومن الدراسات التى تتناول استقطاب الجماعة، وكذلك من الدراسة ذات التأثير الكبير التى قام بها "فيليب زيمباردو: Zimbardo" عن تأثيرات المواقف،

(*) فلسفة المواقف، هى الفلسفة التى تفسر أفعال الأفراد ضمن سياق المواقف التى حدثت فيها وليس فى ضوء المثل الأخلاقية المجردة. المصدر: وبستر الجامعى.

والمعروفة بتجربة سجن ستانفورد[٨٧]. ونظرا لأن تجربة زيمباردو تعتمد على السلوك المتطرف فى مجالات متعددة، فسيكون من المفيد أن نقضى بعض الوقت معها هنا.

بدأت هذه التجربة بإعلان فى صحيفة محلية، يبحث عن متطوعين لدراسة عن حياة السجون، تستمر لمدة أسبوعين، ويدفع فيها ١٥ دولارًا فى اليوم نحو ٧٥ دولارا بالدولارات الحالية. استدعى سبعون ممن ردوا على هذا الإعلان إلى مدينة ستانفورد لإجراء مقابلات ولعمل سلسلة من التجارب السيكولوجية. كان جميع السبعين متطوعا من الطلبة الجامعيين الأمريكيين، أكمل معظمهم المقررات الدراسية الصيفية فى ستانفورد وبيركلى. وكان أربعة وعشرون منهم قد تم اختيارهم على أساس أنهم أصحهم أبدانا وأقربهم إلى السواء، أى: السلامة والصحة النفسية. وتم اختيار نصف المتطوعين عشوائيا ليكونوا حراسا للسجن، وتم اختيار النصف الآخر ليكونوا سجناء. وقد أشاروا كلهم إلى أنهم يفضلون أن يكونوا سجناء، ويرجع ذلك – فى جزء منه – إلى أنهم لا يستطيعون أن يتخيلوا كونهم حراسًا للسجن بعد التخرج، إلا أنهم يستطيعون أن يتخيلوا كونهم سجناء فى السجن، كما يرون أنهم قد يتعلمون من هذه الخبرة وقد وافقوا جميعا على المشاركة من خلال كتابتهم لاستمارات الرضاء العليم، أى الموافقة الصريحة. كما أخبروا بأنهم إن اختير لهم دور المسجونين، فسوف يعانون من أشكال الحرمان من حقوقهم المدنية، ولن يتحصلوا إلا على الحد الأدنى من الوجبات والرعاية الصحية المناسبة. كما طلب ممن اختير لهم أن يكونوا سجناء أن يمكثوا فى بيوتهم فى يوم معين من أيام الآحاد، حيث ستتم مقابلتهم أو الاتصال بهم لبدء هذه التجربة. وفى ذلك اليوم، فوجئوا بأن وجدوا أنفسهم

"مقبوضا عليهم" من قبل ضباط شرطة ستانفورد الحقيقيين الذين حثهم زيمباردو على التعاون معه فى هذه المهمة، حيث قاموا أى الضباط- بوضع أيدى هؤلاء الأفراد فى القيود أو الكلابشات، وفتشوهم بخلع ثيابهم، ونصحوهم بإبلاغهم بالحقوق التى يتمتعون بها، وسجلوهم فى إدارة الشرطة. وبعد إحضارهم إلى سجن صورى موجود فى الدور السفلى تحت الأرض لقسم علم النفس بستانفورد، جردوا من ملابسهم، وأزيل القمل عنهم، وألزموا بارتداء السمقات، أى "العفريت"، وبدون ملابس داخلية، مع خياطة أرقامهم على صدر "العفريت" وعلى ظهرها، كما أنهم أجبروا على ارتداء السلاسل حول كواحلهم وارتداء أغطية على رؤوسهم على هيئة جوارب مصنـــوعة من النايلون حال كونهم لم يطلب منهم حلاقة رؤوسهم. وكانوا يسيرون مربوطين بسيور جلدية مطاطية غير مريحة. ولما كان هؤلاء الحراس قد عملوا مع واحد من الباحثين الجامعيين من فريق زيمباردو، فإنهم قرأوا على السجناء مجموعة من القواعد: "سوف يسمح للسجناء بخمس دقائق فى المرحاض"، "يجب أن يخاطب السجناء بعضهم بعضا بأرقامهم فقط"، "يجب ألا يشير السجناء أبدا إلى حالتهم باعتبارهم تجربة أو محاكاة وغيرها من القواعد". وأخبر السجناء، وبطريقة تنذر بالسوء إلى حد ما، بأن القاعدة الأخيرة هى أهم القواعد، وهى: "قد يترتب على التقصير فى إطاعة أى واحدة من القواعد المذكورة إنزال العقاب بهم".

كان اليوم الأول للتجربة يوما حرجا للحراس وللسجناء على السواء، كما لم يكن حافلا بالأحداث بشكل رهيب. وقد بدا أن بعض الحراس - بالفعل - متمتعون بدورهم، حيث كانوا يطلبون من السجناء أن يقوموا بأداء

تمارين الضغط(*) باعتبارها عقوبة لضحكهم على بعض تعليقات الحراس. وحينما كان أحد السجناء يبدى موقفا لا يدل على احترامه للحراس، فكان الراجح أن يطلب منه القيام بالمزيد من تمارين الضغط. وقد انخرط بعض الحراس فى أعمال ذات قسوة غاشمة كأن يضغطون على السجناء ويدفعونهم للوراء بهراواتهم. ومضت الأمور يوم الإثنين بصورة سيئة إلى حد بعيد. ففى ذلك اليوم، قام السجناء بتمرد، فمزقوا أرقامهم، ورفضوا إطاعة الأوامر، وأخذوا يسخرون من الحراس.

طلب زيمباردو من الحراس أن يتخذوا خطوات للسيطرة على الموقف. وقد فعلوا ذلك تماما .. فكانت ردود أفعالهم تتكون من إرغام السجناء على الوثب وتمارين الضغط، كما كانوا يجردونهم من ملابسهم فى زنازينهم، ويحرمونهم من وجبات الطعام، والوسائد، والملاءات أو البطاطين، والأسرَّة، ويودعونهم فى الحبس الانفرادى. وقد بلغت العدوانية الحادة فى ردود أفعال الحراس ببعض السجناء إلى حد لم يتحملوه، حيث صاح أحدهم بشراسة قائلا: "لا، لا، لا! إن هذه تجربة، دعونى وحدى. اتركونى وشأنى أيها الأوغاد! لن تأخذوا أسرَّتنا القذرة". وقد تم سحق هذا التمرد بطريقة فاعلة.

وعندما أصبح سلوك الحراس عدوانيا ومهينا بصورة متزايدة، أصيب أحد السجناء، واسمه دونج، بالانهيار فطلب أن يطلق سراحه. فقام زيمباردو، والذى كان يؤدى دور "مدير السجن" بمقابلته بصفة شخصية. أخبر زيمباردو

(*) تمارين الضغط هى تمارين رياضية مرهقة، ينبطح فيها المرء على الأرض، ثم يحاول الارتفاع على الأرض مرة بعد مرة بالاستناد إلى اليدين وأصابع القدمين، وباستعمال عضلات الذراعين فى الارتفاع والانخفاض. المصدر: قاموس المورد.

دونج أنه سوف يصادر أجره إن ترك المكان مبكرا، وطلب منه أن يقوم بدور الإخبارى فى مقابل "امتيازات خاصة"، كما أنه أقنعه- بصورة عامة - بالاستمرار. وبعد أن رجع دونج إلى السجن، أبلغ السجناء الآخرين - كذبا - أنهم لا يمكنهم مغادرة السجن. وبعد ذلك بمدة قصيرة، بدا على ردود أفعاله الناجمة عن إصابته بالإجهاد، أنها أصبحت ردود أفعال هستيرية، بل مرضية، إذ إنه هدد بارتكاب العنف مع الحراس ومع نفسه، وقد أطلق سراحه فعلا. وفى كل يوم من الأيام الثلاثة التالية أبدى سجين ردود أفعال حادة ناجمة عن إصابته بالإجهاد، وكان لابد من إطلاق سراحه. وأصبح السجناء الباقون خاضعين "وشبيهين بالزومبى"(*).

وماذا عن الحراس؟ كانت الصورة صورة قسوة، وعدوانية، وانعدام إنسانية بصورة متزايدة.. ففى بعض الأوقات كان الحراس، وبدون أن يتعرضوا للاستفزاز، يجردون السجناء من ملابسهم، ويغطون رؤوسهم ووجوههم، ويقيدونهم بالسلاسل ويحرمونهم من الطعام أو الامتيازات الخاصة بالفراش، ويضعونهم فى الحبس الانفرادى، ويجعلونهم ينظفون التجويفات الداخلية للمراحيض بأيديهم العارية. ووجد - كذلك - الإذلال الجنسى. ففى يوم الخميس، نادى واحد من أشد الحراس عدوانية، وكان يدلل بتسميته جون واين، نادى على بضعة مساجين قائلا: أترون هذه الفجوة التى فى الأرض؟ الآن قوموا بتمرين الضغط خمسًا وعشرين مرة، وأنتم تضاجعون هذه الفجوة مضاجعتكم للنساء! أتسمعوننى! وقد أطاع السجناء الأمر بإحساس من يشعر بأنه يؤدى واجبا عليه. وواصل قائلا: "الآن، أنتما

(*) وهم الموتى الذين بعثوا للحياة ولكنهم فاقدون للإرادة والقدرة على الكلام، فى عقيدة الفودوا الزنجية الأفريقية الأصل. المصدر: قاموس المورد .

أيها السجينان، أنتما جملان. قفا خلف هاتين الناقتين واركبا على ظهريهما. فقام السجينان، فى خضوع للأمر، بمحاكاة فعل أهل سدوم، وهو مضاجعة الذكور.

انتهت التجربة قبل أوانها المفروض لها، بعد أن سعى زيمباردو فى طلب المساعدة من "كريستينا ماسلاتش: Christina Maslach"، وهى حاصلة حديثا على درجة الدكتوراه فى علم النفس من جامعة ستانفورد، والتى كانت فى بداية ممارسة مهنتها باعتبارها أستاذًا مساعدًا فى جامعة بركلى. وقد جاء فى كلمات ماسلاتش ما نصه: "نظرت إلى صف المساجين وقد غطيت رؤوسهم وعيونهم، وهم يمشون متثاقلين مسلسلين، والحراس يوجهون إليهم الأوامر وهم يصيحون فيهم...، لقد سيطر علىَّ شعور مقزز أصابنى بالقشعريرة". ولرفضها الاشتراك مع زيمباردو فى زعمه بأن هذه التجربة "شيء مذهل"، فقد توقفت ماسلاتش عن الاستمرار وهى تناقش زيمباردو مناقشة حامية، وذلك على الرغم من أنهما كانا مرتبطين عاطفيا ببعضهما فى ذلك الوقت. وهى تصف هذا "القتال" باعتباره قتالا "طويل الأمد إلى حد لا يحتمل، وصادما للنفس إلى حد لا يحتمل"، ولكن زيمباردو اعترف – فى النهاية – بأن هذه التجربة كان لها أثر معاكس عليه، وكذلك على المبحوثين من الطلبة. فقرر أن يوقف التجربة يوم الجمعة.

ويستنتج زيمباردو نفسه بعض الدروس المهمة من تجربته. فهو يؤكد أن الميول أو النزعات الفردية أقل فى أهميتها كثيرا مما نميل إلى أن نتصورها عليه، وأن بإمكان الضغوط التى يفرضها الموقف أن تفضى بالأفراد المهذبين إلى ارتكاب أفعال رهيبة. تذكر أن السجناء والحراس كان قد تم اختيارهم لأداء أدوارهم بصورة عشوائية. "إن الخط الفاصل بين الخير

والشر، والذى كان يظن أنه غير قابل للاختراق، ثبت - بالأحرى - أنه قابل للاختراق تماما"[٨٨]. فهؤلاء الذين أسند إليهم أن يقوموا بدور السجناء تصرفوا بوصفهم سجناء، كما أنهم انصاعوا - إلى حد ما - لهذا الدور. وهؤلاء الذين أسند إليهم القيام بدور الحراس تصرفوا بصورة رديئة، بل بصورة شريرة، وذلك على الرغم من أنهم أسوياء عموما. "فى بداية التجربة، لم تكن توجد فروق بين هاتين المجموعتين، وبعد ذلك بأقل من أسبوع، لم تكن توجد وجوه تشابه بينهما" [٨٩]. وكان السجناء، وبصورة ملحوظة، يشكون فى الزعم بأن اختيار الأدوار كان عشوائيا، كما كانوا يصرون، وبعد انتهاء التجربة، على أن الحراس كانوا أطول قامة منهم. وكانوا مخطئين فى ذلك التصور، إذ كان للمجموعتين نفس متوسط الطول.

وفى إشارته لما يتصف به هؤلاء المتورطون فى جرائم حرب النازى من سوائية أى: سلامة نفسية، يلفت زيمباردو، العالم الاجتماعى، النظر إلى ما تذهب إليه "هانا أرنت: Hannah Arendt" من القول "بأن الشر أمر عادى". وفى تفسيره لما يجعل الأعمال الوحشية ممكنة، يؤكد زيمباردو تأكيدا شديدا على أهمية عملية تجريد المرء من فرديته أو تميزه، وهى عملية بمقتضاها يصبح كل من الجناة والضحايا بلا شخصية متميزة فعلا، كما أنهم بهذه الطريقة يتحولون إلى نمط ما أو إلى دور ما. إن مجرد قرار المرء بأن يرتدى زيا موحدا له نتائج سلوكية مهمة؛ فالمحاربون الذين يغيرون مظهرهم، أى ملابسهم استعدادا للحرب، يترجح إلى حد بعيد أن يعاملوا أعداءهم بوحشية. وفى أثناء عملية تجريد المرء من فرديته أو تميزه، يدخل الأفراد حالة من الإثارة لا يواجهون فيها القوانين الاجتماعية العادية، ويتم فيها إخماد شكوكهم الخلقية الشخصية. وفى سياق هذا التفسير، تكفل عملية التجريد من الفردية أو التميز انتصار "السمة الشهوانية للانطلاق والعربدة

المنفلتين، والتى تنسب لديو نيسوس، رب الخمر عند الإغريق، على السمة الأساسية الأبولونية، نسبة إلى أبولو رب الشمس والموسيقى والشعر عند الإغريق ثم الرومان، والتى تتصل بالكبح وردع الشهوة"(٩٠).

يبدو أن هذه الملاحظات العامة، وتجربة سجن ستانفورد بالذات، تساعد على تفسير السلوك المروع للجنود الأمريكيين فى سجن أبو غريب بالعراق. تذكر هذه الأحداث التى أحسنت إذاعتها، والتى صور بعضها فى صور فوتوغرافية، والتى قام فيها الجنود بإذلال السجناء بالتجول بهم وهم يقتادونهم مربوطين بمقاود الكلاب، ويرغمونهم على التظاهر بلعق أحدهم لقضيب الآخر، ويرغمونهم على الاستمناء أمام إحدى المجندات وهى تدخن السجائر حيث كانت هى نفسها تصفق بيديها علامة على الاستحسان لهذه الأفعال، كما أن الإداريين الأمريكيين للسجن هددوا السجناء الرجال بأنهم سيغتصبونهم جنسيا، وضربوهم بمقابض المكانس وبالكراسى، ووخزوهم وركلوهم بالأقدام، وأرغموهم على ارتداء ملابس النساء الداخلية. ولعل أمثال تلك الانتهاكات كانت مما يمكن التنبؤ به من عواقب القوى الموقفية، أى الضغوط التى يفرضها الموقف، وليست كما ادعى قادة بارزون فى الجيش بإلحاح عواقب ترتبت على الميول التى ينزع إليها بعض الجنود الأشرار أو القلة الفاسدة منهم.

فى تجربة سجن ستانفورد، يتمثل اللغز المحير جدا فى سلوك الحراس. كيف يمكن لطلاب جامعيين عاديين أن يظهروا مثل هذا المستوى المرتفع من العدوانية والقسوة؟ وإن من الحق، أنه خلافا لما وقع فى تجارب ميلجرام، خلت تجربة زيمباردو من وجود مصدر سلطة يوجه أوامر محددة. لكن زيمباردو ألقى تعليماته - بصفة خاصة - على الحراس بأن يبدوا فى

صورة من يؤدون دورا معينا، وهو الدور الذى "يمتلكون فيه سلطة كاملة"، وتكون مهمتهم إحداث "هذه الحالة السيكولوجية فى نفوس السجناء طوال مدة إجراء الدراسة". وكان زيمباردو، وهو أستاذ فى جامعة ستانفورد، قد كلف الطلاب الجامعيين بأن يجعلوا هؤلاء الطلاب "يشعرون كأنهم موجودون فى السجن" وقد قامت هذه التعليمات، جنبا إلى جنب دور الحارس نفسه، قامت بنقل معلومات معينة إلى الحراس عما ينبغى القيام به من عمل. ذلك أن من يجدون أنفسهم يعملون حراسًا فى السجن يعلمون أنه ينبغى عليهم أن يتصرفوا بأساليب معينة. وهذا الوضع لا ينطبق على أحد بمواقع التجارب بدرجة أقل مما ينطبق به على مكان آخر. فالواقع، أن موقع التجربة هذا قد يكون قد فاقم من سوء سلوك بعض الحراس، وهم الذين كانوا يعرفون أنه يوجد معهم حراس معينون، وأن مهمتهم أى مهمة الحراس التجريبيين هى إحداث "تلك الحالة السيكولوجية المطلوبة".

إن بإمكاننا أن نستخرج بعض الدروس المهمة من هذه النتيجة، فربما يكون من ينخرطون فى سلوك متطرف مسوقين لأن يتصرفوا بهذا الشكل، بسبب دورهم المطلوب منهم والوسط المحيط بهم، وربما نكون جميعنا، وتحت ظروف معينة، قابلين لارتكاب الأعمال الوحشية. فقد قال ميلجرام نفسه، وبصورة تصيب المرء بالقشعريرة، إنه "لو افترضنا جدلا أن نظاما من معسكرات الموت أقيم فى الولايات المتحدة على شاكلة النظام الذى سبق أن رأيناه فى ألمانيا النازية، فسيكون المرء قادرا على أن يعثر على عدد كاف من الموظفين الإداريين لهذه المعسكرات، فى أى مدينة أمريكية متوسطة الحجم"(٩١).

في سجن أبو غريب في العراق، كان السجانون، من الرجال والنساء كليهما، ومع كونهم أعضاء عاديين في الجيش، نقول: كانوا يتصورون أن الأشكال المختلفة للتعذيب والإذلال بمثابة إجراءات عمل قياسية. وقد ذكرت سابرينا هارمان، وهي مجندة أمريكية اشتهرت بظهورها في الصور الفوتوغرافية التي تبين إذلال السجناء جنسيًا، في ملاحظاتها قولها: "هذه هي الطريقة الوحيدة للتصرف كل يوم، وهي أن تبدأ بإغفال كل شيء وطرده عن ذهنك. فما عليك إلا أن تنسى ما حدث. إنك تذهب للفراش، ثم أمامك اليوم التالي لتقلق عليه. وهو يـوم آخـر يقربـك من الرجـوع إلى الوطن. ثم إن هذا اليوم ينتهي، كما أن كل ما عليك هو إغفاله وطرده من ذهنك "[٩٣]. وقال تيم دوجان، وهو جندي آخر، إن الجنود أخبروا بما يلي: "لقد ظفرنا بفرصة لتحطيم هذا العصيان أو المروق المخالف للقانون، وإن الأفراد الذين يكونون في حالة مروق خارج على القانون لا حق لهم في الحماية تحت ظل اتفاقيات جنـيـف". ولو أن وزير الدفاع الوغد أشار إلى هذا الشخص الحقير باعتباره مارقًا خارجًا على القانون، أعني بذلك، فما الكلام القذر الذي يفترض أن أقوله؟ إن هذا الشخص مارق خارج على القانون، ألا ترى؟ إنه - أي وزير الدفاع - هو الرجل الحقير صاحب الرتبة العليا الثانية في هذا البلد أثناء الحرب "[٩٤].

كتبت أليسون دس فورجس، وهي أحد المحققين في جرائم الإبادة الجماعية في رواندا مع منظمة حراس حقوق الإنسان، كتبت تقول: " إن هذا السلوك موجود تمامًا تحت السطح من أي واحد منا. فالتفسيرات المبسطة للإبادة الجماعية تتسبب في إحداث التباعد أو الجفوة بيننا وبين مرتكبي جرائم الإبادة الجماعية. فهم أشرار جدًا لدرجة أننا لا نستطيع أبدًا أن نرى

أنفسنا ونحن نفعل نفس الشيء ولكن لو تفكرت في الضغوط الرهيبة التي كان هؤلاء الأفراد يعملون في ظلها أو تحت وطأتها، فإنك حينئذ ستعود لتؤكد اتصافهم بالإنسانية وهذا يصبح أمرًا مرعبًا. إذ إنك ترغم على أن تنظر إلى هذا الموقف وتقول: "وماذا يمكنني أن أفعله؟". وأحيانًا تكون الإجابة غير مشجعة[٩٥]. ولا شك أن دس فورجس محقة، وإن تصرف الجنود الأمريكيين في سجن أبو غريب يؤيد وجهة نظرها. ومما له أهمية خاصة، وبهدف فهم هذا السلوك، أن هؤلاء الجنود لم يكونوا يعرفون أسماء هؤلاء المساجين، بل على العكس، فإنهم أعطوهم أسماء للتدليل، فحولوهم بذلك إلى "شخصيات كرتونية " أي: كاريكاتورية، وهي الشخصيات التي تجعلهم كائنات غير حقيقية تمامًا" [٩٦]. وجاء في كلمات أحد الجنود قوله: "كان عندي فتى رائحة أنفاسه كريهة جدًا، وقد سميته "يوك ماوث"، وكان عندنا فتى - ولعله أطول عراقي رأيته من قبل - وكانت أنفه تشبه " شخصية "بيج بيرد" في البرنامج التلفزيوني "شارع سمسم"، وقد سميته بيج بيرد، وكان عندي من سميته "تراب جو": "Trap Jaw" لأنه كانت له أسنان حادة بالفعل، وكان يبدو عليه أنه يستطيع أن يمضغ قالبًا من القرميد، أي طوب البناء. وكان عندي شخص سميته "جونر بايل: Gonner Pyle " [٩٧]. فهذا النوع من تجريد ضحايا سوء المعاملة من هويتهم الفردية هو سمة مميزة لما يحدث عندما يطلب من الناس أن يقوموا بأدوار اجتماعية معينة.

إلا أنه بالنسبة للتفسيرات الموقفية البحتة للسلوك الإنساني، أي التفسيرات القائمة على فلسفة المواقف، فإنه توجد مشكلة تتعلق بالدليل أو البرهان. فقد كشفت تجربة سجن ستانفورد الغطاء عن فروق مهمة بين المسجونين وبين الحراس. فبعض المساجين لم يقدر أن يتعامل مع الموقف

وصرخ جهارًا فقال: " أخرجونى من هنا " ولعله قال ذلك لأسباب منها؛ أنه يريد بذل جهد إستراتيجى للفرار من موقف رهيب. وقام بعض الحراس بأعمالهم، ولكن بدون قسوة، كما أنهم قدموا خدمات متعددة للمساجين. وكان هؤلاء " الحراس الطيبون " المتميزون مختلفين تمامًا عن الحراس الآخرين، والذين كان سلوكهم سلوكًا ساديًا، أى يتسم بالتمتع بتعذيب الآخرين. فالميول أو النزعات الشخصية كانت لها أهميتها فعلاً. ويوجد فارق حقيقى بين الجناة الفعليين وهؤلاء الذين يقتصرون على الوقوف بجانبهم. ويصدق نفس هذا المعنى على الجنود الأمريكيين بسجن أبو غريب، وذلك بجانب وجود عدد قليل منهم متحمسين للأفعال التى تتسم بالإيذاء وسوء المعاملة، وعدد قليل غيرهم يبدو عليهم أنهم يتلذذون بهذه الأفعال. وفى بعض الأحيان كان من الممكن أن " يرى أحد الجنود شيئًا يحدث لسجين ما، فيقول "أى للحارس الذى يتعامل مع هذا السجين: "يا هذا، إن ما تفعله خطأ" أو: إننا لا نستطيع أن نفعل ذلك، من الناحية العسكرية. ولكن إذا لم يقولوا شيئًا، فإن أشد الجنود سوءًا سيشعر أنه حر فيما يفعل"[٩٨]. وتذكر كذلك، أن كريستينا ماشلانش، وهى الأستاذة المساعدة التى كانت على علاقة عاطفية بزيمبادور، أفصحت عن غضبها الشديد، وطلبت إنهاء التجربة، وذلك على الرغم من الضغوط الواضحة عليها لمجرد أن تعبر عن موافقتها عليها، وربما عن إعجابها بها. وكما يؤكد زيمبادور نفسه، فإن كثيرًا من الكائنات الإنسانية قادرة على مقاومة الضغوط التى تفرضها المواقف، وعلى القيام بأشكال من البطولة. بل إنه عندما يكون استقطاب الجماعة ماضيًا فى طريقه، فإن بعض الأفراد، ولبعض الوقت، سيتشبثون بقناعتهم ويثبتون على ما هم عليه، خاصةً إذا مضى أعضاء الجماعة فى اتجاهات مدمرة أو عنيفة.

وإليك وسيلة للتفكير فى تجربة سجن ستانفورد ونظائرها الموجودة فى الحياة الفعلية، والتى قد تساعدنا على إظهار العلاقة بين الميول أو النزعات الشخصية والسياقات الاجتماعية. ففى مواقع التجارب وفى الحياة الفعلية، سيكون معظم الأفراد عازفين عن إيذاء الآخرين. إذ إن معظمهم لديهم التزامات أخلاقية قوية، كما أنه لن يكون من السهولة البالغة أن يقضى بهم الموقف إلى تنحية هذه الالتزامات جانبًا. وكثيرًا ما يمكن التغلب على عزوفهم عن طريق الحوافز المناسبة والمعلومات السليمة. فإذا أمكن جعل الأفراد متأكدين من أن أى ضرر هو ضرر ضئيل أو لا وجود له، أو أنه ضرورى لإحداث خير أعظم، فمن الراجح إلى حد بعيد أنهم قد ينحُّون شكوكهم جانبًا. تذكر تجربة ميلجرام. وإذا أمكن التأكيد للأفراد بأن أىَ أذى أو ضرر هو أمر مستحق، أو أنه جزء من عقوبة مشروعة، فإنهم حينئذ قد يكونون راغبين - إلى حد كبير- فى إلحاق هذا الأذى بالفرد المستحق للعقوبة. فحراس السجن لا يرفضون وضع المساجين المتمردين فى الحبس الانفرادى، إلا أنه - وهذه هى النقطة الأساسية - تكون للأفراد المختلفين، وبصورة جذرية، عتبات مختلفة لابد من التوافق معها بطريقة مرضية قبل أن يكونوا راغبين فى إيذاء الآخرين. وحتى فى سجن أبو غريب، وجدت فروق ملحوظة فى اتجاهات وسلوك الجنود الأمريكيين الذين عاشوا فى موقف شجعهم على القسوة وعلى السادية الواضحة. كما تبين أن بعض الجنود كانوا أبطالاً، حيث كانوا ينبهون السلطات لما كان يحدث. وتظهر الدراسات التى تناولت الإبادة الجماعية تباينات كتلك التباينات، حتى عندما يكون القتل سائدًا. وكما قال أحد القتلة، وهو يستعرض ذكرياته: "لقد أصبحنا أكثر وأكثر قسوة، وأكثر هدوءًا، وأكثر دموية، ولكننا لم نر

أننا نتحول إلى قتلة بمعدل أشد وأشد. إذ إنه كلما قتلنا عددا أكبر، كلما زاد تحول القتل فى نظرنا إلى عبث أطفال. وبالنسبة لعدد قليل منا، تحول القتل فى نظرهم إلى متعة، إن جاز لى أن أقول كذلك، أى إن صح هذا التعبير"(٩٩).

إن لدى بعض الأفراد - وهم "الحراس الأشرار" فى الحياة التى نعيشها - قدرة حقيقية على السادية والقسوة، وتلك القسوة جزء لا يتجزأ من نزعاتهم الشخصية، فإذا وجهت التعليمات لأمثال هؤلاء الأفراد بأن يتصرفوا بطريقة سادية، أو خولوا السلطة فقط فى التصرف بهذا الشكل، فإنهم سوف يتصرفون كذلك. ولدى غيرهم من الأفراد عتبات مرتفعة إلى حد ما. لذلك سيحتاجون إلى تأكيد قوى نابع من الموقف بأن إيذاء الآخرين له ما يبـــرره أو أنه مقبول، وذلك بعد إدخال جميع الاعتبارات فى الحسبان. كما انه يوجد أفراد آخرون - وهم أبطال الحياة أو من يرفضون أن يتصرفوا وفقًا للدور أو الثقافة التى تقود معظم الناس للسير فى اتجاهات رهيبة - لديهم عتبات مرتفعة غاية الارتفاع، أو لعل قناعاتهم الخلقية تعمل حاجزًا أو رادعًا مطلقًا يمنعهم تمامًا من إيذاء الغير. وإن المقاومة التى يظهرها هؤلاء الأبطال لتبدو ثمرة لإحساس خلقى متأصل فى نفوسهم، وهو الإحساس الذى لا تدرك جـــذوره إدراكًا واضحًا، ولكنـــه يأتى بلا شك، وعند كثيـــر من النـــاس، من العوامل البيئية التى تمكن الأفراد، بل قد تأمرهم، بأن يقولوا كلمة "لا" بحزم وثبات. ويوجد متصل أى: خط متصل من العتبات يبدأ بالساديين وينتهى بالأبطال، أو قل: يبدأ بالشياطين وينتهى بالقديسين.

فإن كان كل ذلك صوابا، فإننا نستطيع أن نفهم لماذا تكون للتجارب المختلفة التى تجرى فى السجون، وللسجون المختلفة، نتائج مختلفة. وإن قدرًا

كبيرًا من الاختلافات يتوقف على المزيج الأصلى للنزاعات والميول الشخصية للأفراد. فالجماعة المكونة من حراس ذوى عتبات منخفضة سوف تتصرف بشكل مختلف جدًا عن الجماعة المكونة من حراس ذوى عتبات مرتفعة، ويرجع ذلك فى جزء منه إلى نزعاتهم وميولهم السابقة، كما يرجع فى جزء آخر إلى التفاعلات الاجتماعية بينهم. ونظرًا لوجود استقطاب الجماعة، فإن مجموعة من الحراس ذوى العتبات المنخفضة قد تصبح قاسية جدًا فى الواقع، بينما يكون من المحتمل أن تتصرف مجموعة أخرى من الحراس ذوى العتبات المرتفعة بأسلوب طيب إلى حد كبير. وفى حالة الجماعات المختلطة يمكننا بسهولة أن نتصور طائفة من العواقب، حيث تتراوح بين القسوة المتناهية والكرم المعقول أو النسبى. ولو أن الحراس ذوى العتبات المنخفضة عملوا أولاً وأثروا على زملائهم ذوى العتبات المرتفعة، فستكون القسوة هى الراجحة؛ وإذا عمل الحراس ذوو العتبات المرتفعة أولاً وأثروا على الأنماط ذوى العتبات المنخفضة، فستكون النتيجة أفضل بكثير. وإن كان الأبطال الحاضرون، وإذا كانوا واضحين وواثقين من أنفسهم، فقد يتمكنون من ضمان تحقيق نتيجة جيدة. وإن بالإمكان أن تفهم العلاقات الهرمية فى كثير من المنظمات - والتى منها المدارس، وورش العمل، والمنظمات الدينية فى ضوء اعتبارات تشبه الاعتبارات المذكورة إلى حد ما. فالمدرسون، وأصحاب الأعمال، والقادة الدينيون يمكنهم أن يتصفوا ببعض صفات حراس السجن العدوانيين، أو لا يكونون كذلك، وتقوم العتبات الفردية والتفاعلات الاجتماعية بإحداث كل هذا الفارق.

ويتوقف قدر كبير من هذا الأمر - كذلك - على الحوافز الخاصة وعلى المعلومات الموجودة فى هذه الظروف. فمعظم الأنماط، أى: الأفراد ذوى العتبات المنخفضة لن يبدوا قسوة ما لم يزوَّدوا – على الأقل – بحافز ما ليتصرفوا بهذا الشكل. وقد يكون ذوو العتبات المرتفعة نسبيًا مستعدين لإظهار عدوانية كبيرة لو أن حوافزهم التى تدفعهم لهذه العدوانية كانت قوية بما فيه الكفاية. ولا ريب أن الاعتقادات يمكن أن يكون لها وقع ملحوظ افترض أن الأفراد أخبروا أن هذا العدوان مبرر أو ضرورى فى هذه الظروف. وربما يعرفون، أو يخبرون، بأن الضحايا الذين تقع عليهم عدوانيتهم مذنبون يستحقون أى شىء ينزل بهم. أو قد يعلم هؤلاء الحراس أنهم جزء من جماعة من الناس إثنية، أو دينية، أو قومية ممن سبق أن تعرضوا بصفة مضطردة للإذلال على يد الآخرين، والذين أى: هؤلاء الحراس، لهم المبرر الكامل أن يردوا على ما تعرضوا له من إذلال فى الماضى. أو لعلهم يعلمون أن أفرادًا معينين أو جماعات معينة أشرار بطبيعتهم، أو حتى دون البشر، وأنه لابد من معاملتهم وفقًا لذلك. فالميول والنزعات الشخصية تعتبر، فى جانب منها، محصلة للاعتقادات، حيث تسهم فى تحقيق العتبات المنخفضة أو المرتفعة، وبمجرد أن توجد الميول والنزعات الشخصية التى تتحكم فيها الاعتقادات، تستطيع المواقف الاجتماعية أن تضيف معلومات جديدة، متخطية بذلك العتبة ذات الصلة.

إن هذا الذى يظهر لنا من واقع التجارب السابقة، يمثل تحديًا صريحًا أى اعتراضًا واضحًا على أشد دعاوى فلسفة المواقف طموحًا، كما يمثل فهمًا معقدًا أو مركبًا للعلاقة بين النزعات والميول الشخصية للفرد والمواقف الاجتماعية. وهذا الفهم ينطبق على تجربة سجن ستانفورد، كما أنه يساعد

فى تفسير لماذا تستطيع السياقات الاجتماعية المختلفة، والأدوار الاجتماعية المختلفة، أن تتسبب فى إيجاد مثل هذه النتائج المتنوعة الأشكال بشكل جذرى.

إن التجربة التى أجريت فى هذا السجن لتبرهن على أن نفس هذا الافتراض القائل بوجود دور اجتماعى معين يسهم فى التأثير على الأفراد ينقل لنا - بصورة تلقائية- قدرًا كبيرًا من المعلومات عن السلوك الملائم. إلا أن الأدوار الاجتماعية ليست ثابتة. لذلك يجب ألا يشعر الحراس أنهم أحرار فى معاملة المسجونين بوحشية. ولعل أهم درس يستفاد من هذه التجارب هو؛ أنه ينبغى اعتبار الإحساس المستمر بالمسئولية الأخلاقية جزءًا من مجموعة كبيرة من الأدوار الاجتماعية، وليس متناقضًا معها.

- ملاحظة خاصة بالإنترنت - ومعمار السرنديبية (*)

عبر كثير من الناس عن قلقهم من التأثيرات الاجتماعية التى تتسبب فى إحداثها وسائل الاتصال الجماهيرية والإنترنت(١٠٠). ولعل بعض هذه التأثيرات ينتج التطرف غير المبرر. وتتمثل إحدى المشكلات العامة فى مشكلة التشظى، أو قل مشكلة "البلقنة الكمبيوترية". فالإنترنت تقوم حاليًا بتمكين الأفراد من أن يصمم الواحد منهم لنفسه نوعًا من "الذات اليومية"، حيث يجمعون حزم اتصالاتهم الشخصية، والتى لا تحتوى إلا على الموضوعات والآراء التى يحبونها فقط، وتستبعد القضايا المزعجة والأصوات غير المرغوب فيها. ومع التخصص المتزايد، تزداد قدرة

(*) السرنديبية: موهبة اكتشاف الأشياء النفيسة أو السارة مصادفة. المرجع: قاموس المورد.

الأفراد على تفادى الصحف والمجلات ذات الاهتمامات العامة، وعلى انتقاء الاختيارات التى تعكس ميولهم وأفكارهم الشخصية. ويبدو أن كثيرًا من الناس يستمعون إلى صور مختلفة لآرائهم الخاصة هى أكثر عددًا منها وأعلى صوتًا، مقللين بذلك من الفوائد التى تأتى من التعرض للآراء المنافسة والمشكلات غير الملحوظة. وقبل ظهور الإنترنت بمدة طويلة، كان بالإمكان مناقشة موضوع "التقسيم الطبقى العنصرى للمجال العام" بالرجوع إلى الاختلافات القائمة بين الصحف البيضاء المتحدثة بلسان البيض وصحف الأمريكيين الأفارقة الأصل[١٠٠]: أما الإنترنت فخلق نوعًا من " التقسيم الطبقى" الأشد حدة، إذ إن الجماعات ذات الأنواع المتعددة تستطيع أن تصنف انفسها إلى أنماط متشابهة التفكير.

ينبغى أن نكون صرحاء فيما يتصل بطبيعة هذه المشكلة، ففى أى مجتمع حر، تستطيع أن تقرأ وتشاهد ما تحبه، كما أنه من المتاح لك أن تستبعد ما سوى ذلك. ولكن فى حالة وجود الصحف اليومية والاستعراضات التلفزيونية المسائية للأخبار، فإننا نعيش غالبًا مع نوع من "معمار السرنديبية"، أعنى بذلك، موقفًا يتوافر لنا فيه عدد من اللقاءات السعيدة الغزيرة بكثير من الموضوعات ووجهات النظر. وإن بإمكان هذه اللقاءات أن يكون لها تأثير كبير، بل إنها تستطيع فى بعض الحيان أن تغير حيواتنا.

إننا قد نتصور، مثلاً، أنه لا مصلحة لنا فى مسألة مـا فى تركيـا أو الهند، إلا أنه قد تتسبب قصة ترد فى نشرات الأخبار فى إشعال اهتمامنا وتلفت انتباهنا، وقد تخضعنا على القيام بعمل ما. وقد نتصور أنه تتوافر لدينا وجهة نظر معينة بشأن تغير المناخ أو بشأن الاتحادات العمالية، إلا أنه

قد توحي لنا قصة ترد في نشرة الأخبار بأن تصوراتنا هذه مخطئة بشكل سيئ، وبأنه ينبغي علينا أن نمعن التفكير في منظور مختلف. وإذا تحول شكل معمار السرنديبية إلى معمار للضبط والتحكم، فمن الراجح إلى حد كبير أن يتقيد الناس بالموضوعات والآراء التي يجدونها مناسبة لميولهم واتجاهاتهم.

ولا ريب أن هذا الوضع يمثل، إلى حد ما، الحرية وهي تقوم بعملها، لكن فهمًا لاستقطاب الجماعة يفسر لماذا قد يتسبب أحد أسواق الاتصالات المنشظية كالإنترنت في خلق مشكلات خطيرة. فإذا كان الأفراد على الإنترنت يتبادلون الآراء في معظم الأحوال مع أفراد آخرين ممن يشبهونهم في التفكير، فلن يقتصر الأمر على أن آراءهم ستزداد قوة، بل إنهم بجانب ذلك سيتحولون في اتجاه المزيد من الآراء المتطرفة. وفي الواقع، تميل الإنترنت إلى أن تبدو وكأنها تكرر تجربة كولورادو، وتتصرف بهذا الشكل في كل ساعة من ساعات كل يوم. وباستعمال الإنترنت، يسهل جدًا على كل واحد منا أن يعثر على أنماط يشبهونه في التفكير. فالأفكار التي من شأنها أن تبدد في العادة، وذلك لمجرد غياب الدعم الاجتماعي لها، يمكن أن توجد بأعداد كبيرة على الإنترنت، حتى لو كان ينظر إليها باعتبارها أفكارًا غريبة جدًا، أو لا يمكن تبريرها، أو شاذة، في معظم المجتمعات المحلية. وكما يكتب مارك سيجمان قائلاً: "دعنا نفترض أن عددًا قليلاً جدًا من الأفراد في العالم تشترك في نفس الاعتقاد الغريب، وليكن مثلاً الاعتقاد بأن القمر مكون من الجبنة الخضراء. فهم، من خلال عملية من عمليات الانتقاء الشخصي، يعثرون على بعضهم بعضًا في نفس المنتدى. وفي الحال، سوف يسلمون بأن كل واحد من الناس يشترك معهم في هذه القناعة، أي في هذا الاعتقاد لأن المؤمنين الصادقين يعلنون عن وجهات نظرهم ويظل الباقون صامتين"

[١٠٢]. تذكر أن استقطاب الجماعة يحدث أحيانًا لأن الأفراد لا يتوصلون إلى تفسير كاف لحقيقة أن آراء أعضاء الجماعة متحيــزة، أو سيئة، وأنها لا تمثل - في الحقيقة - قناعات معظم الناس في المجتمع. وتكون هذه المشكلة - بصفة خاصة - مشكلة حادة على الإنترنت، حيث يكون من السهولة البالغة العثور على تأييد للأحكام التي يؤمن بها عدد قليل من الأفراد الشواذ، أو المشوَّشين، أو الحاقدين.

وهذه النقطة يتم تعزيزها بواسطة الحقيقة، والتي سبق الإشارة إليها، والتي تقول إن الاستقطاب يكون أشد ما يكون وأرجح ما يكون عندما يترابط الناس بروابط المشاعر، أو روابط التشابه، أو روابط التضامن. ويوجد بين كثير من جماعات النقاش على الإنترنت إحساس بالهوية المشتركة. لذلك فإنه "فرض معقول أن يكون من الراجح إلى حد بعيد للبيئة التي تشبه الإنترنت أن تخلق ميلاً قويًا نحو استقطاب الجماعة، عندما يشعر أعضاء هذه الجماعة بإحساس ما بهوية الجماعة"[١٠٣]. وهنا وفي أي مكان آخر، لا يمكن القول بأن هذا الأمر سيئ في حد ذاته. فربما تكون النزعة المتطرفة الزائدة أمرًا جيدًا. إلا أنه من المزعج - يقينًا - لو سبقت الجماعات الاجتماعية المتنوعة الأشكال، ومن خلال الآليات القابلة للتنبؤ بها، صوب الآراء المتعارضة بصورة متزايدة، بل حتى صوب الأفكار الشديدة التطرف. حينئذ يكون سوء الفهم المتبادل، بل والغضب والاحتقار، من الأمور التي لا يكاد يمكن تفاديها.

وفي الحقبة الحديثة، يعتبر الإرهاب أشد الأمثلة حدة. وقد جاء في كلمات سيجمان ما نصه: "إن بنية الإنترنت أصبحت هي بنية النزعة الإرهابية الإسلامية العالمية. وقد تطورت هذه البنية عضويًا من خلال البحث عن، واستكشاف الطرق الآمنة الجديدة للتفاعل على يد الآلاف من المتعاطفين

ذوى النزعة الإرهابية، أخذًا فى الاعتبار أن موطنهم المادى أصبح شديد العداء بعد أحداث ٩/١١" [١٠٤]. وحتى سنة ٢٠٠٤، كانت التفاعلات المباشرة تقوم بالدور الأساسى فى إنتاج الشبكات الإرهابية. وفى وقت أكثر قربًا، أصبح للإنترنت أهمية عظيمة. ويؤكد سيجمان أن الشكل الهرمى التدريجى التقليدى للجماعات الإرهابية قد فوضته الإنترنت، والتى تؤدى إلى شكل من أشكال التنظيم الذاتى التلقائى. وقد ساعدت غرف الدردشة والمنتديات الخاصة على حث كثير من شباب المسلمين على الانضمام إلى الحركة الإرهابية الإسلامية، وهو يقول: " إن للمنتديات الجديدة هذه نفس التأثير الذى قامت بإحداثه تلك المساجد المتطرفة فى الجيل السابق من الإرهابيين " [١٠٥]. وتنتشر نظريات المؤامرة، مشعلة الثورة والغضب، بشكل سريع، حيث "يسعى الأفراد إلى، ويختارون الغرف التى تكون أكثر توافقًا مع آرائهم، ويهجرون الغرف التى لا يتفقون معها. وإلى حد ما، فإن الأتباع يدلون بأصواتهم باستعمال فارة الكمبيوتر ويختارون الآراء التى تعجبهم"[١٠٦]، وفى سياق الإرهاب، فإن نوعًا من "الجهاد الذى لا فائدة له" يمثل إحدى نتائج هذا الوضع. "وبفضل الإنترنت، قد تخفت حدة النزعة الإرهابية الإسلامية، ولكنها لن تموت تمامًا أبدًا"[١٠٧].

إن هذا مثال متطرف. بيد أنه يحدث فى مجالات لا تعد أن تتسبب الإنترنت فى إيجاد عملية تكوين تلقائى للجماعات ذات الأنماط متشابهة التفكير. أما الأفراد الذين يرغبون - خلافًا لذلك - أن يكونوا متوحدين، أو منعزلين فى معارضاتهم ومشاغلهم، فإنهم يتجمعون فى شبكات اجتماعية.

- ترابط المتشابهين (*) وحب الاستطلاع

لا ريب أنه من الحق أن الناس محبون للاستطلاع، وأن كثيرا منهم يحبون بالفعل أن تكون لهم موهبة السرنديبية، وهى موهبة اكتشاف الأشياء النفيسة أو السارة مصادفة. فنحن نبحث عن، ولا نستهجن، موقفا نكون معرضين فيه لأفكار جديدة ورؤى متنافسة، وبطريقتنا الخاصة، نكافح استقطاب الجماعة، وما ذاك إلا لأننا نقاوم الانحصار داخل الشرانق المعلوماتية والجماعات التى تتكون فقط من الأنماط المتشابهين فى التفكير. وفى مجال التجارة، كما فى مجال الحكومة، يسعى القادة الناجحون للبحث عن الآراء المختلفة الاتجاهات وعن الأفكار الجديدة، ويرجع ذلك تحديدًا إلى وعيهم البدهى بمخاطر الاستقطاب. وفى الولايات المتحدة، يعتبر الرئيس أبراهام لينكولن والرئيس فرانكلين دبلانوروزفلت المثالين البارزين، فقد بذلا جهودا خاصة للتأكد من أنهما لا يعيشان فى غرف الصدى، أى الغرف المغلقة التى لا يسمع الموجودون فيها إلا أصواتهم فقط. ويتضح أن التواضع وحب الاستطلاع يساعدان على كفالة الوصول إلى قرارات أفضل، ويرجع ذلك فى جزء كبير منه إلى أنهما يزيدان مجموع الحصيلة المشتركة من المعلومات. وتستطيع الإنترنت أن تساعد على منع الاستقطاب عندما يستعملها الأفراد بقصد العثور على وجهات النظر الجديدة. وفى مجتمعات

(*) الأصل فى كلمة(Homophily) أنها تستعمل فى العلوم البيولوجية، للدلالة على وجوه التشابه الموجودة فى الأفراد المنتسبين إلى أصول وراثية واحدة. ويستعمل هذا المصطلح فى هذه الفقرة بمعنى "الترابط المعنوى بين المتشابهين" فى الاعتبارات الاجتماعية. وهذا المعنى وارد فى التراث العربى، كما فى الحكمة التى تقول: شبيه الشيء منجذب إليه، وفى التعبير الذى يقول: "الطيور على أشكالها تقع". المترجم.

كثيرة، يواجه استقطاب الجماعة، فى كل يوم، برغبة الناس فى اختبار أحكامهم الشخصية بمواجهتها بأحكام الآخرين الذين لا يشبهونهم.

وعلى الرغم من ذلك، فالظاهر فعلاً أنه توجد نزعة بشرية قوية نحو الانعزال الذاتى للجماعات على امتداد أنواع المسارات التى تدعو للاستقطاب. ففى علم الاجتماع تقوم كتابات إمبريقية مفصلة باستكشاف عملية "ترابط المتشابهين، وهى العملية التى بمقتضاها يولد التشابه المترابط" [١٠٨]. فالأفراد الذين يكونون متشابهين فى أبعاد ذات الصلة، أى فى اعتبارات معينة، يميلون إلى أن يبحثوا عن بعضهم بعضًا وإلى أن يعيشوا داخل نفس الشبكات الاجتماعية. وفى الجماعات الصغيرة، يبدى الأفراد الذين توحدهم تلك السمات الديموجرافية كالسن، والتعليم، والعرق، والدين، والإثنية، نقول: نزعة متميزة للانعزال الذاتى عن غيرهم. ويصدق نفس هذا المعنى على من توحد بينهم اعتبارات الآمال أو الطموحات، والميول، والذكاء. وبالنسبة للأغراض الحالية لهذه الدراسة، فإن الموضوع الأهم هو ترابط المتشابهين فى القيم، والذى يتضمن ذلك "الميل الكبير لدى البالغين للارتباط بمن لهم نفس انتمائهم السياسى" [١٠٩]، وفى داخل الولايات المتحدة، يعتقد كثير من الناس أن معظم العقلاء يشتركون فى قناعاتهم السياسية، ولا يكون ذلك إلا لأن هؤلاء الذين يرتبطون بهم يميلون إلى أن يفكروا كما يفكرون هم.

لماذا يحدث الترابط بين المتشابهين؟ من الناحية التاريخية، قامت الجغرافيا بدور كبير فى هذا الشأن. كما أن الأسرة، والعمل، والتنظيمات الأخرى قامت كذلك بخلق روابط قوية بين الأنماط المتشابهة فى التفكير. إلا أن هذه المصادر البنائية يتم تكميلها عن طريق الروابط التطوعية أو الإرادية والاختيارات الشخصية. فالأفراد ذوو الرؤى الدينية المتشابهة يغلب عليهم

الارتباط ببعضهم بعضًا والعداوة القائمة بين المؤمنين والمنكرين تعد فى جزء منها محصلة للاستقطاب. ويحكم "ميلر مكفرسون: Miller Mcphersen" وزملاؤه بأنه فى مجالات كثيرة "يتأثر التجاذب بين الأفراد بالتشابه الملحوظ بينهم" وبأن الأفراد "يرتبطون بالآخرين المشابهين لهم بغرض تحقيق سهولة التواصل، ولوجود الميول الثقافية المشتركة، وغيرها من السمات التى تيسر تنسيق النشاط والاتصال" (١١٠). وفى عصر الإنترنت، لايزال من المطلوب القيام بقدر كبير من العمل لدراسة مدى ما تقوم به الإنترنت من خلق بيئات ملائمة للأنماط المتشابهة فى التفكير. إلا أن قدرا كبيرا من البراهين يؤيد وجهة النظر التى ترى أن الميول أو الأذواق الثقافية، بما فيها الأذواق الموسيقية، تنتشر من خلال عملية تتضمن ترابط المتشابهين(١١١). فأذواق الناس يتم تشكيلها، بدرجة كبيرة، من خلال التفاعل مع الآخرين الذين لهم ميول متشابهة (١١٢). وإن ما يصدق على التفضيلات الثقافية يصدق - بلا شك - على الأحكام السياسية وعلى الاتجاهات أو الميول الخطيرة بالمثل.

لا يزال العمل فى مجال ترابط المتشابهين غير موصول بظاهرة استقطاب الجماعة. وهذا يمثل فجوة خطيرة. فإن كان واضحا أن الطيور التى من نوع واحد تطير معا كما يقول المثل الإنجليزى: (birds of a feather are flocking together)، فإنه يتعين علينا أن نتوقع حدوث الحركات المتطرفة. والمهم هنا هو أن هذا الطيران المشترك يتوقف على كل من المعيار الاجتماعى والمعايير السائدة. فلو أن الأفراد يلتقون بصورة طبيعية بمن هم غير مشابهين لهم، أو لو أن أماكن العمل ووسائل الاتصال تسهل أمثال تلك اللقاءات، فسوف يتم تحييد ترابط المتشابهين، أى، يتم إبطال أثره. ولو أن المعايير الاجتماعية تحث الناس على العناية بالميل إلى حب

الاستطلاع، بل على الابتهاج بالموضوعات والآراء الجديدة، فسوف تحتوى الجماعات وقتها على طيور ذات ألوان مختلفة من الريش. أى على أفراد متنوعى الأفكار.

- تفكير الجماعة واستقطاب الجماعة

نحن الآن فى وضع يمكننا من تقدير تفكير الجماعة، وهو ظاهرة شاعت مناقشتها فى سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، وهى ظاهرة تعتمد بصورة مباشرة على اهتماماتى المطروحة هنا. وإن فكرة تفكير الجماعة، والتى طورها "إيرفينج جانيس:Irving Janis"، مصممة لتحقيق إدراك عمليات اتخاذ القرار التى تؤدى، وبصورة يمكن التنبؤ بها، إلى أخطاء اجتماعية فادحة، وكوارث، بل وإلى أشكال من التطرف (١١٣). وإن هذا المصطلح الذى طوره جانيس يعتمد اعتمادا مباشرا، وعن وعى وقصد، على رواية جورج أورويل لعام ١٩٨٤، ويعتمد هذا المصطلح بالذات على المصطلح الذى صاغه أورويل "التفكير المزدوج". ولطرح هذه النقطة باختصار نقول: كان جانيس يرى أن بعض الجماعات تخمد أنفاس المعارضة، وتعطى الإجماع قيمة أعلى من قيمة المقاومة أو التعديل والتصحيح، وتخفق فى اختيار البدائل والعواقب، ونتيجة لذلك تنتهى إلى التسبب فى إخفاقات فادحة. وكان جانيس، فى دعواه هذه، يسعى للوصول إلى عملية اتخاذ قرار من شأنها أن تكون يقظة، بمعنى أنه ينبغى عليها أن تكفل الاهتمام الحريص بالمسارات البديلة للفعل أو التصرف، والاهتمام بالمخاطر المرتبطة بتلك البدائل.

وكى يؤكد دعواه، استند جانيس إلى عدد من القرارات السياسية الفعلية. ووفقا لجانيس، فإن تفكير الجماعة كان مسئولا - إلى حد كبير - عن القرار الكارثى للرئيس كنيدى بالموافقة على القيام بغزوة خليج الخنازير، التى قام بها الجيش الأمريكى مع معارضى الحكم الشيوعى لكاسترو فى كوبا، وذلك بقصد القضاء على النظام الحاكم ولكنها فشلت فشلا ذريعا وعندما قام الرئيس جونسون ومستشاروه بتصعيد حدة حرب فيتنام أثناء السنوات ما بين (١٩٦٤ - ١٩٦٧)، فقد كان سبب ذلك راجعا إلى أن هذه المجموعة المشار إليها تخمد أنفاس المعارضة، وتسعى للحصول على الإجماع، كما أنها لم تحسن التفكير فى العواقب. وقد طبقت فكرة تفكير الجماعة فى فضيحة ووترجيت[١١٤]، التى أطاحت بالرئيس نيكسون بعد أن ثبت أنه سمح بالتجسس على خصومه السياسيين، وفى السياسة التى اتبعها نيقيل تشامبرلين، وزير الخارجية البريطانية فى أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، فى تهدئة أو استرضاء ألمانيا النازية[١١٥]، قبل اشتعال أحداث الحرب العالمية الثانية، وفى قرار شركة فورد للسيارات بتسويق السيارة من طراز إدسل، وفى إطلاق وكالة الفضاء الأمريكية ناسا لمكوك الفضاء تشالنجر، وفى غزو ألمانيا النازية للاتحاد السوفيتى فى سنة ١٩٤١، وفى قرار شركة كيمى جرونتتال بتسويق دواء الثاليدميد المسكن، والذى تسبب فى إحداث حالات خطيرة من التشوهات فى المواليد[١١٦]، الذين وضعتهم أمهات تعاطين هذا الدواء أثناء الحمل. وإن بإمكان أن يفهم بسهولة قرار الرئيس جورج دبليو بوش بإعلان الحرب على العراق فى ضوء فهم تفكير الجماعة[١١٧]. ويرى جانيس أن تفكير الجماعة يؤدى إلى مشكلات كثيرة من صناعة القرارات المعيبة، بما فيها التقدير القاصر للبدائل والأهداف، والإخفاق فى تفحص مخاطر الاختيار المفضل، والبحث الهزيل

عن المعلومات، والتحيز الانتقائى فى معالجة المعلومات، والعجز عن تقدير البدائل.

ذهب جانيس إلى أن تفكير الجماعة يتضمن أنماطا من الأعراض المرضية[١١٩]. وتشتمل هذه الأعراض على ضيق العقلية، وهو الأمر الذى يتضمن القيام بجهد جمعى للتعقلن. أى الظهور بمظهر التفكير العقلى الرشيد، وذلك بهدف تجاهل التحذيرات أو تجاهل المعلومات التى قد تؤدى إلى إعادة التفكير وإمعان النظر، كما تتضمن الآراء النمطية، أى الصور الذهنية الجامدة: الكليشيهات عن الأعداء، وذلك باعتبار أنهم إما أن يكونوا أشرارا جدا لدرجة تجعلهم لا يستحقون بذل جهد معهم فى مفاوضتهم، أو أن يكونوا من شدة الضعف والغباء فى درجة تمنعهم من الموازنة بين الاختيارات الخطيرة التى تقررها الجماعة. لذلك فإن المنظمات التى تكون شديدة التأثر بتفكير الجماعة تفرض ضغوطا على أعضائها فى اتجاه التماثل. وهنا يشير جانيس إلى الرقابة الذاتية التى يمارسها أعضاء الجماعة على أنفسهم، والذين يقللون – إلى الحد الأدنى – من أهمية ما يساورهم من شكوك وآراء شخصية مضادة. فالرقابة الذاتية مرتبطة بشكل من أشكال وهم الإجماع. وهذا الوهم يتم دعمه وتعزيزه عن طريق الضغط المباشر على أى أعضاء يبدون آراء مخالفة لما لدى الجماعة من صور نمطية جامدة، أى إكليشيهات فكرية وأوهام والتزامات.

أضاف جانيس، أن تفكير الجماعة له مجموعة من الأسباب التى يمكن تمييزها. والسبب الأول والأشد أهمية هو التماسك؛ فالجماعة التى تفتقد هذه الصفة ليس من المحتمل أن تبدى الأعراض المرضية التى تتصف بها عملية اتخاذ القرار المعيب. لكن تفكير الجماعة يحتاج إلى ظروف إضافية.

وتشتمل هذه الظروف على انعزال المجموعة التى تصنع السياسة، أى التى تتخذ القرارات، وهو الأمر الذى يقلل من فرص تلقى نصائح الخبراء والتقييم النقدى الوافد من خارج الجماعة، وتشتمل على افتقاد الجماعة للتراث المتمثل فى القيادة النزيهة أو المحايدة، بمعنى أن القادة لا يشجعون البحث أو الاستقصاء الصريح للحقائق ولا التقييم النقدى، كما تشتمل هذه الظروف على افتقاد أساليب رفع مستوى صناعة القرار السليم، وعلى ما يتصف به أعضاء الجماعة من خلفيات اجتماعية وإيديولوجيا متجانسة أو متماثلة.

أكد جانيس، أن العلاج المطلوب لتفكير الجماعة يتضمن المعالجة اليقظة للمعلومات[١٢٠]. فالقادة ينبغى عليهم أن يشجعوا التفكير النقدى، وذلك بإعطائهم أولوية كبيرة للاعتراضات والشكوك. ومن أجل رفع مستوى الاختلاف فى الرؤية، ينبغى على المجموعات المستقلة المكلفة بالتخطيط السياسى والتقييم أن تعمل على نفس المشكلات، ومع قادة مختلفين. وينبغى أن يسند للأعضاء دور محامى الشيطان، أى من يظهر نواحى الضعف فى الآراء، مما يجعلهم يأتون بمنظورات فكرية جديدة يتم نشرها. وينبغى تشجيع الخبراء الخارجيين الذين ليسوا من أعضاء الجماعة والأفراد المؤهلين، أى الأكفاء والذين لا يكونون مشغولين بصورة مباشرة بالقضية المطروحة، نقول: ينبغى تشجيعهم على تحدى أو الاعتراض على الرؤى السائدة وتمحيصها. وفى دعم هذه الأفكار، أى فيما يؤكد صحتها، وجد جانيس أن تفكير الجماعة كان غائبا فى كثير من القرارات الناجحة، كما هى الحال فى الحل السلمى الذى اختارته إدارة كيندى لمعالجة أزمة الصواريخ الروسية فى كوبا، وكما هى الحال فى مشروع مارشال لإعادة بناء أوربا بعد الحرب العالمية الثانية.

إلى أى مدى توجد صلة بين دعاوى جانيس، وما أذهب إليه من أفكار فى هذا الفصل؟ سبق أن أكدت أن بإمكان الجماعة أن تصل إلى طرفى التناقض فى الآراء. أى إلى الأفكار المتطرفة المتناقضة مع بعضها. كما سبق لى أن ألححت على القول بأن الضغوط الاجتماعية، سواء منها ما كان مصدره المعلومات التى تصل للجماعة أم ما كان مصدره مواقف الشخصيات المحترمة فى الجماعة، نقول: إن هذه الضغوط الاجتماعية تشتد حدتها عندما يتصف أعضاء الجماعة بدرجة مرتفعة من التماسك والمحبة. وفى ضوء ذلك، يمكن النظر إلى الشواهد التى ذكرها جانيس بوصفها دراسات حالة لموضوع استقطاب الجماعة، حيث تنتقل الجماعات إلى وجهات النظر الأكثر تطرفا والتى تتماشى مع ميولها الأصلية. وإن تأكيد جانيس على أهمية الرقابة الذاتية التى يفرضها الفرد على نفسه، والتى تزيدها الضغوط الاجتماعية إحكاما، نقول: إن تأكيد جانيس هذا على أهمية الرقابة الذاتية ليتماشى - إلى حد كبير - مع دعاواى الأساسية. وكما يبين جانيس، فإن كثيرا من الشواهد الدالة على استقطاب الجماعة تتطلب نوعا من التقدير. أى الاحترام لدور القادة، والذين تكون لآرائهم أهمية تفوق أهمية آراء أعضاء الجماعة الآخرين إلى حد بعيد. فإن لم يشجع القائد الاعتراض أو الخلاف، وإن كان ميالا إلى نتيجة معينة، فمن المرجح بدرجة كبيرة أن هذه الجماعة ككل ستتحرك صوب تلك النتيجة.

وإنى أرى أن فكرة استقطاب الجماعة تعتبر أكثر فائدة - إلى حد بعيد - فى تفسير التطرف وارتكاب الخطأ، من فكرة تفكير الجماعة، وينبغى أن يكون واضحا أن جانيس لم يقترح أى فرض بسيط يمكن اختباره. فالعمل الإمبيريقى على ظاهرة تفكير الجماعة قد أوحى برأى مختلط(٢١)، كما أنه

يوجد جدال مفعم الحيوية يدور حول دعاوى جانيس[١٢٢]. وينجم القدر الأعظم من هذا الجدال من عدم التأكد من العلاقة بين ما يزعمه جانيس من أعراض مرضية والإخفاقات السياسية الذريعة. فقد ألح النقاد على أن ذاك الدعم، أى الدليل المؤيد لتلك الصفات المميزة للتصنيفات المفترضة لتفكير الجماعة، مستمد من إحدى الحكايات، أو من ملاحظة عرضية، أو اتهام قائم على الحارس، وليس مستمدا من البحث العلمى الدقيق[١٢٣].

حاولت دراسة دقيقة لموضوع اتخاذ القرارات الناجحة والقرارات غير الناجحة فى سبع شركات أمريكية مشهورة، منها شركة كريزلر، وكوكاكولا، وسى بى إس للأخبار، أن تفحص ما إذا كانت تلك الشركات تبدى أعراض تفكير الجماعة، وأن تفحص، فى حالة ثبوت هذه الأعراض، ما إذا كان افتقاد الشركات المذكورة للنجاح مرتبطًا بتفكير الجماعة، أم لا[١٢٤]. ومما يؤكد دعاوى جانيس، أن المؤلفين وجدوا بالفعل رابطة أو علاقة قوية بين إحدى عمليات اتخاذ القرار التى قامت بها الجماعة ككل، واحتمال نجاحها. وحينما كانت المعلومات تعالج بصورة جيدة، كانت الشركات أعلى احتمالا لأن تتخذ القرارات الصائبة. ومن الناحية الأخرى، أظهرت الجماعات الناجحة بعض سمات تفكير الجماعة. والواقع أن تلك الجماعات كان لديها قادة أقوياء حاولوا أن يقنعوا الآخرين بأنهم محقون. ولا يرتكب أمثال هؤلاء القادة أخطاء إلا إذا تسببوا فى خلق اعتقادات مطلقة، وهى الاعتقادات التى تظهر بوضوح فى صورة تركيز قوة المنطقة فى شخص وحيد هو القائد[١٢٥]. ويرتبط هذا التركيز، أكثر من أى شىء آخر، بالعواقب السيئة.

تقدم هذه الدراسة وجوها للتشابه، أى نظائر موجودة فى دراسات كثيرة غيرها قدمت دعما جزئيا، وليس تاما، لنموذج تفكير الجماعة، أى للمفهوم الفلسفى لتفكير الجماعة [١٢٦]. وقد انتهى استكشاف منهجى للأمثلة التى طرحها جانيس إلى نتيجة مفادها، أن السمات التى يتصف بها تفكير الجماعة مرتبطة فعلا بالإخفاقات[١٢٧]. وعلى وجه الخصوص، وجدت هذه الدراسة أن عملية اتخاذ القرار المعيب كانت مرتبطة ارتباطا قويا بالعيوب البنائية للجماعات، والتى منها الانعزال. إلا أنه عندما يكون أعضاء الجماعة أصدقاء أكثر من كونهم غرباء، أو عندما يكونون قد عملوا معا فى الماضى، أو عندما يطلب منهم أن يرتدوا شارات تميز جماعتهم، فإنهم لا يبدون من الرقابة الذاتية التى يمارسها الفرد على نفسه قدرا أكبر من القدر الذى تبديه الجماعات الأخرى، كما لا يكون من الواضح إطلاقا أن تتخذ مثل تلك الجماعات المتماسكة قرارات سيئة[١٢٨]. ولعل حقيقة الأمر؛ أنه عندما يثق الأعضاء ببعضهم بعضًا ويشتركون معا فى معايير الصراحة والخلاف فى الرأى، فسوف يوجد فيهم قدر من الرقابة الذاتية، أقل مما يوجد فى الجماعات المكونة من الغرباء، ذلك أن الأفراد الموجودين فى أمثال تلك الجماعات الأخيرة، قد يخافون من أن يتسبب الرأى المخالف فى إحداث خلاف خطير بين أفرادها.

لكن بعض دعاوى جانيس لقيت نجاحا. فقد وجد أن الجماعات المنعزلة تفكر فى عدد من البدائل، وتتخذ عددا من القرارات السيئة أقل مما يوجد فى حالة الجماعات غير المنعزلة[١٢٩]. وكذلك مما يؤكد مزاعم جانيس، أنه وجد أن الجماعات التى لها قادة ذوو نزعة توجيهية أو إدارية عالية، تقترح عددا أقل من البدائل، وتستعمل قدرا أقل من المعلومات، وتقمع

الخلاف، وتبدى - بصورة عامة - عمليات اتخاذ قرار رديئة[١٣٠]. كما أن معظم الدراسات تجد أن الأساليب الرديئة لاتخاذ القرار، وذلك بمقتضى معيار جانيس، تتسبب فى إحداث قدر أقل من الاختلاف، ومن القرارات السيئة أقل مما تتسبب فى إحداثه الأساليب الجيدة[١٣١].

إلى أى مدى تتصل هذه النتائج جميعها بالتحليل الوارد هنا؟ وما العلاقة بين تفكير الجماعة واستقطاب الجماعة؟ إن أوضح الأمور هنا هو؛ أن استقطاب الجماعة يقدم تنبؤا بسيطًا وواضحا لما ستؤول إليه أحوال الجماعة. فمن المطرد إحصائيًا، أن الجماعات التى تتداول الرأى فيما بينها ستنتهى بها الحال إلى نقطة أكثر تطرفا تقع على خط ميولهم التى كانت تميل إليها قبل تداول الرأى. أما فكرة تفكير الجماعة فهى معقدة وصعبة المراس بدرجة كبيرة، وليس بها أى تنبؤات بسيطة. ولقيام جانيس بالعمل المستمد من شواهد العالم الفعلى، أى الحياة الواقعية، فإنه عمم مجموعة من الآراء المتعلقة بمتى يزداد احتمال أن تتخبط الجماعة فى قراراتها. وتعتبر هذه الأحكام العامة أو التعميمات موحية بأفكار كثيرة ومفيدة، إلا أنها لا تقدم بيانا واضحا يحدد ما سمات الجماعات التى سوف تؤدى إلى التطرف، أو إلى الأخطاء الفادحة أو إلى الكوارث.

- الشلالات أو التداعيات المتفاقمة

حتى الآن كان تأكيدى منصبا على موضوع استقطاب الجماعة. إلا أن التطرف يمكن تغذيته عن طريق ظاهرة لها صلة وثيقة به، وهى ظاهرة الشلالات الاجتماعية، أى التداعيات الاجتماعية المتفاقمة. فكما تحدث الشلالات، تنتشر الاعتقادات والآراء من بعض الناس إلى غيرهم، وذلك إلى

حد أن يكون كثير من الناس معتمدين، ليس على ما يعرفونه فعلا، ولكن على ما يتصورون أن الآخرين يعتقدونه. وقد يكون هذا الاعتقاد خطأ إلى حد كبير، وذلك لأن الأفراد لا يعتمدون على معلوماتهم الخاصة، بل على أحكام من يثقون بهم من الآخرين. فعندما ينتهى الناس إلى نتيجة مفادها؛ أن الولايات المتحدة أو إسرائيل مسئولة عن هجمات ٩/١١، أو أن الأطباء مسئولون عن انتشار مرض الإيدز بين الأمريكيين ذوى الأصول الأفريقية، أو أن استثمارًا معينًا لا يمكن أن يخفق، فإن الشلالات الاجتماعية، أى التداعيات المتفاقمة تكون هى المسئولة كما هو معهود عنها. وتقوم التداعيات المتفاقمة بدور كبير فى سوق الأوراق المالية وفى سوق العقارات. فحينما تصبح بعض الأوراق المالية رائجة بصورة فجائية، فإن هذا الأمر ينطوى عادة على تأثير التداعيات المتفاقمة[١٣٢]، وتبذل الشركات ما فى وسعها لخلق التداعيات المتفاقمة؛ "فالآى فون: I phone" و"الآى بود: I pod" كلاهما منتجان رائعان، لكنهما استفادا قطعا من تأثيرات التداعيات المتفاقمة. وعندما يخاف الناس – فجأة- من مجازفة جديدة، فعادة ما تكون التداعيات المتفاقمة هى التى تغذى مخاوفهم. وتميل نظريات المؤامرة – عموما – للانتشار من شخص لآخر من خلال عملية تشبه تدفق الشلالات أو تشبه عملية التداعيات المتفاقمة. وتأتى الشلالات الاجتماعية، أى التداعيات الاجتماعية، فى صورتين مختلفتين هما: التداعيات القائمة على المعلومات، والتداعيات القائمة على رغبة الفرد فى الحفاظ على احترام الآخرين له أو الاحتفاظ بصورة حسنة فى نظرهم.

- التداعيات القائمة على المعلومات

لمعرفة الطريقة التى تعمل بها التداعيات القائمة على المعلومات، تخيل جماعة من الأفراد المتحاورين وهى تقرر ما إذا كان شخص ما أو مجموعة ما قد تورطت فى سلوك جائر أو حتى سلوك شنيع، وأنها تقوم بتبرير الحكم بنوع ما من العقوبة أو الانتقام(١٣٣). افترض أن أعضاء هذه الجماعة يقومون بالإعلان عن آرائهم تباعًا. وانطلاقًا مما عند كل عضو من معرفة وخبرة شخصيتين، توافر له معلومات خاصة تتعلق بما فعله هذا الشخص أو تلك الجماعة. إلا أن كل عضو يهتم أيضًا، وبشكل رشيد بما فيه الكفاية، بالأحكام التى تصدر من الآخرين.

آندروز هو أول من يتكلم. وهو يعطى انطباعًا بأن هذا السلوك الردىء قد حدث بالفعل. حينئذ تعرف بارنس حكم آندروز، ومن الواضح أنها، هى الأخرى، ستنتهى يقينًا إلى الحكم بأنه يوجد خطأ ما، إن كانت تتفق مع آندروز بصورة مستقلة، أى من تلقاء نفسها. ولكن إن كان حكمها المستقل مخالفًا، فإنها إن كانت تثق بآندروز بنفس درجة ثقتها بنفسها، فإنها لن تبالى بما تتصوره أو تفعله، وربما لجأت إلى طريقة من طرق القرعة وهى قذف قطعة نقود فى الهواء ومعرفة الوجه الذى تستقر عليه، لتقرر ما إذا كانت توافق على حكم آندروز أم لا. والآن لنلتفت إلى شخص آخر، وهو كارلتون. افترض أن آندروز وبارنس كليهما قال: إن سلوكًا شنيعًا قد حدث، ولكن افترض أن معلومات كارلتون الخاصة، وإن لم تكن معلومات مقطوعًا بها، توحى بأنهما مخطئان فى هذه الحالة، يكون من الراجح إلى حد بعيد أن يتجاهل كارلتون ما يعلمه، ويتبع آندروز وبارنس فى حكمهما. وفى آخر الأمر، يحتمل أن آندروز وبارنس كليهما كانت لديه المبررات التى تبرر ما انتهيا إليه من نتيجة، وأنه إن لم يتصور كارلتون أن معلوماته الخاصة أفضل

من معلوماتهما، فإنه سيتبع طريقهما. فإن اتبع طريقهما، فإنه - أي كارلتون - يكون داخل شلال ما، أي يكون مسوقا بفعل التداعيات المتفاقمة.

والآن لنفترض أن كارلتون كان يتكلم متجاوبًا مع ما كان آندروز وبارنس يتكلمان به، وليس على أساس معرفته الخاصة، ولنفترض كذلك أن الأفراد الباقين، في طابورنا الصغير هذا، يعرفون ما قاله آندروز، وبارنس وكارلتون. إنهم بناءً على افتراض معقول، سيفعلون ما فعله كارلتون تمامًا. ومعنى ذلك، أنهم سيوافقون على أن ذاك السلوك الشنيع قد حدث، وذلك بصرف النظر عن معلوماتهم الخاصة، وهي المعلومات التي نفترض أنها ذات صلة ولكنها ليست قاطعة. وسوف يحدث هذا الوضع حتى لو كان آندروز قد أخطأ في بادئ الأمر. وهنا الخطأ الذي يحدث في مبدأ الأمر، باختصار، يمكنه أن يستهل عملية يسهم من خلالها الأفراد في خلق أخطاء فادحة.

فإن يكن هذا هو الذي يحدث، فإنه توجد مشكلة اجتماعية كبرى، وهي أن الأفراد الموجودين داخل هذا الشلال لا يفصحون عن المعلومات التي يؤمنون بصحتها بصفة شخصية. ففي المثال المذكور حالاً، لن يعكس حكم أعضاء الجماعة المعرفة الكلية، أو المعرفة الإجمالية، لهؤلاء الموجودين داخل نطاق هذه الجماعة، حتى وإن كان من شأن المعلومات التي يؤمن بصحتها الأفراد، وفي حالة الكشف عنها وتجميعها مع بعضها فعلاً، حتى وإن كان من شأن هذه المعلومات أن تتسبب في الوصول إلى نتيجة أفضل ومختلفة تمامًا عن النتيجة التي تصل إليها الجماعة بدون الإفصاح عن المعلومات المختلفة، وسبب هذه المشكلة هو؛ أن الأفراد يتبعون الطريق أو المسار الذي سلكه من جاءوا قبل ذلك. وإذا فعل الناس ذلك، فإنهم حينئذ

سينتهون إلى اتجاهات متطرفة تماما. وقد يلتقون، أى يتفقون كذلك على حكم يتعلق بتغير المناخ، أو يتعلق بالاستثمارات السديدة، أو يتعلق بإيران، أو بالصين، أو بمقاصد الولايات المتحدة، نقول: إنهم قد يلتقون، أى يتفقون على حكم يتحدى الواقع، وأن ذلك يتسبب فى إحداث تأثير خطير.

هل يبدو كل ذلك أمرًا غير واقعى؟ ينبغى ألا يكون كذلك، فكثيرًا ما تحدث الشلالات، أى التداعيات المتفاقمة فى الحياة الواقعية. فقد كان ازدهار سوق العقارات فى أوائل سنوات القرن الواحد والعشرين، والذى بلغ ذروته فى صورة أزمة مساعدى المديرين التنفيذيين لشركات تمويل وإقراض بناء العقارات، نقول: كان هذا الوضع نتيجة لنوع ما من التداعيات المتفاقمة [٣٤]. وحينما توجد فقاعات أى آمال ضخمة فى المكاسب تتعلق بالأسواق المالية، فإن الناس، وكما هو معهود عنهم، لا يعتمدون على الحقائق الأساسية، بل على أحكامهم الخاصة بما يترجح أن يعتقده الآخرون أو يفعلوه. وحينئذ يمكن للأسعار، أى أسعار الأوراق المالية، أن تواصل الارتفاع لمجرد أن الناس تتصور أن أناسًا آخرين منهمكون فى الاستثمار، إلى أن يقع انهيار مفاجئ. وقد شاع الاعتقاد، كما شاع القول، إن أسعار العقارات أو المنازل ترتفع باستمرار، حتى لو كان هذا غير صحيح. فطبقًا للمعايير التاريخية منذ سنة ١٩٤٠، لم تقفز أسعار المنازل بصورة لافتة للنظر إلا فى فترة واحدة: وهى من سنة ١٩٩٧ حتى سنة ٢٠٠٤. وفى تلك الفترة، ظن كثير من الناس، كما قالوا، أن من طبيعة أسعار العقارات أو المنازل أن تزداد بمرور الزمن، كما أن سلوك الناس سار فى أعقاب ما يعتقدون. إلا أن هذا الاعتقاد كان خاطئًا بصورة واضحة. فعلى امتداد عقود كثيرة، كانت أسعار المنازل مستقرة نسبيًا، وإلى أن حدث ذلك الازدهار غير المتوقع الذى بدأ فى سنة ١٩٩٧.

وكما بين ذلك "روبرت شيلر: Robert Shiller"، فإن أفضل تفسير لفقاعة سوق العقارات يتطابق بصورة كبيرة مع أفضل تفسير لفقاعة سوق الأوراق المالية فى أواخر سنوات التسعينيات من القرن العشرين. ففى كلتا الحالتين، كان الناس متأثرين تأثرًا شديدًا بعملية من عمليات العدوى الاجتماعية التى وصلت إلى حالة الشلال المعلوماتى، أى التداعيات المعلوماتية المتفاقمة. وقد أدى هذا الأعتقاد - وبصورة مفرطة - إلى أن تشيع لدى الناس تقديرات غير واقعية للاحتمالات المستقبلية، مع ما يصاحبها من النتائج الواضحة فيما يتصل بشراء العقارات وبصكوك الرهن العقارى الممتازة. وفى سنة ٢٠٠٥، قام شيلر و"كارل كيس: Karl Case" بإجراء مسح اجتماعى بين المشترين من أهالى مدينة سان فرانسسكو. وكان متوسط الزيادة المتوقعة فى الأسعار، والمنتظر حدوثها على امتداد العقد التالى، ٩ فى المائة فى السنة! والواقع، أن ثلث من أجرى عليهم هذا المسح كانوا يتصورون أن هذه الزيادة السنوية ستكون أعلى بكثير من تلك الزيادة المذكورة. وكان تفاؤلهم هذا، والذى لا أساس له، قائمًا على عاملين؛ الزيادات الملحوظة فى الأسعار فى الماضى القريب، بجانب ما يشيع لدى الناس الآخرين من تفاؤل ظاهر معدٍ.

ولا شك أن القدر الأعظم من المعرفة العامة لدى الناس لا يعتمد فقط على ما يتناقلونه من كلمات وعلى ما يرونه من مبيعات، ولكنه يعتمد كذلك على وسائل الإعلام. ففى أواخر سنوات التسعينيات من القرن العشرين وأوائل سنوات القرن الواحد والعشرين، شاعت فى وسائل الإعلام التقارير التى تقول: إن أسعار العقارات ترتفع بسرعة بالغة بمرور الزمن، وهذا صحيح، وأنها سوف تستمر فى الزيادة بمرور الزمن، وهذا غير صحيح. فإذا أكد الخبراء السطحيون "ما يعرفه كل إنسان"، فسوف يكون من الواضح

- حينئذ - صعوبة مقاومة عقد الصفقات. المحفوفة بالمخاطر، والتى من نوع الصفقات التى ساقت كثيرًا من الناس إلى الكارثة. وكانت فقاعة الإنترنت التى حدثت فى أواخر سنوات التسعينيات من القرن العشرين نتيجة لقوى مشابهة، حيث أفرزت شكلها الخاص بها من أشكال التطرف. فعلى الرغم من الدليل الضمنى المتعلق بالقيم أى: بالأسعار، فإن الناس كانوا يعتقدون أن النمو المستمر محتمل بدرجة عالية، وذلك بسبب ما كان غيرهم من الناس يعتقدونه مرتبطًا بالأحداث القريبة العهد، لذلك نجم عن هذا الوضع وقوع اختيارات استثمارية رديئة.

هل تحدث ظاهرة الشلالات أو التداعيات المتفاقمة للمنتجات الثقافية، كالفن مثلاً، والموسيقى، والأفلام السينمائية، والأدب؟ يقينًا أنها تحدث، كما أن بمقدورها أن تتسبب فى إيجاد حركات متطرفة لا يتنبأ بها أحد. وللاطلاع على مثال جذاب فى هذه النقطة، تأمل دراسة عن التسجيلات الموسيقية التى يضعها الهواة على مواقعهم الإلكترونية. فقد أنشأ "ماتيو سالجانيك: Mauhew Salganick" والمؤلفون المساعدون معه[١٣٥]، أنشأوا سوقًا اصطناعية للموسيقى، بها ١٤٣٤١ مشاركًا من زوار أحد مواقع الشبكة الحافل بالشباب. أعطى المشاركون قائمة بأغنيات مجهولة من قبل مستمدة من فرق موسيقية مجهولة. وقد طلب منهم أن يستمعوا إلى مجموعة من الأغانى ذات المدة القصيرة يختارونها من الأغانى التى تعجبهم، وأن يحددوا ما الأغنيات -إن وجدت- التى يقررون تسجيلها أو تحميلها على مواقعهم، كما طلب منهم أن يضعوا ترتيبًا تدريجيًا لمكانة الأغنيات التى اختاروها. وطلب من نحو نصف المشاركين أن يتخذوا قراراتهم بصورة مستقلة، وذلك بأن تكون مبنية على أساس أسماء الفرق الموسيقية وأسماء الأغنيات، وعلى حكمهم الشخصى المتعلق بنوعية أو جودة الموسيقى. وكان بمقدور النصف

الثانى أن يعرف كم عدد المرات التى قام فيها المشاركون الآخرون فى تحميل، أى تنزيل أو تسجيل كل أغنية على حدة. كما أن هؤلاء المشاركين، أى النصف الثانى وزعوا عشوائيًا على واحد أو آخر من عوالم ثمانية ممكنة، حال كون كل عالم منها يتطور مستقلاً عن غيره، فلا يستطيع الموجودون فى أى عالم بعينه أن يعرفوا إلا التسجيلات الموجودة فى عالمهم الخاص بهم. وكان السؤال الأساسى هو: عما إذا كان هؤلاء الناس سيتأثرون باختيارات الآخرين وكذلك عما إذا كانت الموسيقى المختلفة ستصبح شائعة أو رائجة فى العوالم المختلفة أم لا.

هل ظهرت الشلالات؟ هل وجدت حركات متطرفة؟ لا يوجد أدنى شك فى ذلك. ففى جميع هذه العوالم الثمانية، زاد – إلى حد بعيد – احتمال قيام الأفراد بتحميل أو تسجيل الأغنيات التى سبق أن سجلت بأعداد كبيرة – وقل احتمال تسجيلهم للأغنيات التى لم تكن بنفس هذا الرواج والانتشار. والأمر الأشد لفتًا للنظر هو؛ أن نجاح الأغنيات كان أمرًا لا يمكن التنبؤ به أبدًا. فالأغنيات التى راجت أو فشلت فى المجموعة الضابطة، وهى المجموعة التى لا يعرف الأفراد فيها أحكام الأفراد الآخرين، استطاعت أن تقوم بدور مختلف جدًا فى "العوالم التى خضعت للتأثيرات الاجتماعية". ففى تلك العوالم، كان بإمكان معظم الأغنيات أن تصبح رائجة جدًا أو شائعة جدًا أو تصبح غير رائجة تمامًا، وذلك بسبب توقف القدر الأعظم من الرواج أو عدمه على الاختيارات التى فضلها أوائل الأفراد الذين قاموا بتحميل الأغانى على مواقعهم. وكان بالإمكان أن تكون نفس الأغنية بمثابة نجاح ساحق أو إخفاق شديد، وذلك لمجرد أن الأفراد الآخرين، فى بداية الأمر، عرف عنهم أنهم اختاروا أن يحملوا هذه الأغنية على مواقعهم أو أن لا يحملوها. وكما

عبر عن ذلك سالجانيك والمؤلفون المشاركون له فقالوا: "على وجه العموم، فإن أفضل' الأغنيات لم تتصرف أبدًا بشكل سيىء جدا، أى لم تحقق أبدًا إخفاقًا شديدا، كما أن أسوأ" الأغانى لم تتصرف أبدًا بشكل جيد جدًا، أى لم تحقق أبدا نجاحًا ساحقًا"، ولكن وهذه هى النقطة الجديرة بالملاحظة "فى أغلب الأحوال تكون أى نتيجة أخرى أمرًا ممكنًا".

وكما سبق أن رأينا من قبل، فإن نتائج مماثلة تم التوصل إليها فى سياق الأحكام التى تصدرها هيئات المحلفين بخصوص التعويضات الجزائية عن الأضرار، والتى يحكم بها على الشركات المتسببة فى إلحاق هذه الأضرار بالأفراد. إذ يوجد قدر كبير من عدم القابلية للتنبؤ بالنسبة للحالات المتماثلة، ويرجع ذلك فى جزء منه إلى أن التأثيرات الاجتماعية بين أعضاء هيئات المحلفين يمكنها أن تدفع هذه الهيئات إلى الحكم بصرف تعويضات مرتفعة ارتفاعًا شديدًا. وكما يحدث فى حالة الأحكام التى تصدرها هيئة المحلفين، يحدث نفس الأمر، كذلك، فى حالة الموسيقى والأفلام السينمائية والكتب والآراء السياسية. فنظرًا لأن الأفراد يهتمون ببعضهم بعضًا، فإن الحركة المبكرة التى تسير فى اتجاه بعينه تستطيع أن تقوم بدور الشرارة التى تشعل النار، مؤدية بذلك إلى عواقب غير متوقعة وحادة. ويتوافر لمجالات كثيرة من مجالات الحياة ما يسميه الاقتصاديون "التوازنات المتعددة" وهى مجموعة من النتائج الممكنة، وكلها نتائج متوازنة، ونتائج ممكنة، مع وجود فروق طفيفة بينها فيما يتصل بنقاط ابتداء ظهورها. والغالب على الأفراد فى هذه التجربة أنهم كانوا منجذبين، أى ميالين إلى أن يتصوروا، وبمقتضى هذه الحقيقة، أن إحدى النتائج متوقعة تمامًا، وأن نجاح أحد الموسيقيين، أو أحد الممثلين، أو أحد المؤلفين، أو أحد السياسيين أمر حتمى فى ضوء ما له من مهارات وصفات شخصية مميزة. وبمقدور التدخلات

البسيطة، بل وبمقدور المصادفات، وذلك عند مرحلة أساسية، أن تحدث تغييرات ضخمة فى النتيجة النهائية.

وبالنسبة لمثال أقل جاذبية، تذكر وجود الأحكام الشديدة الاختلاف والتى تصدرها الجماعات بشأن مصادر وأسباب مرض الإيدز. حيث تعتقد بعض الجماعات، على نحو خطأ، أن الأسباب الأولى لوحظت فى أفريقيا نتيجة للعلاقات الجنسية بين الكائنات الإنسانية والقردة، كما تعتقد جماعات أخرى، وعلى نحو خطأ كذلك، أن هذا الفيروس كان قد أنتج فى معامل الحكومة(١٣٦). وتعتبر وجهات النظر هذه وغيرها من وجهات النظر ثمرة للتفاعلات الاجتماعية، وتعتبر بالذات ثمرة لتأثيرات التداعيات المتفاقمة. ذلك أنه كثيرًا ما يخفق الحوار وتبادل الرأى، كما أنه كثيرًا ما تنتشر الآراء المتطرفة، وذلك نتيجة للحوار وتبادل الرأى، وعندما تصل الجماعات إلى التصديق بحدوث واقعة مزعومة تتعلق بصدور خطأ فظيع من شخص ما أو من بلد ما، فالغالب أن نوعًا من التداعيات المعلوماتية المتفاقمة يكون منهمكًا فى عمله، أى يحدث تأثيراته.

- تداعيات السمعة الشخصية (*)

فى حالة التداعيات القائمة على حرص الأفراد على سمعتهم الشخصية، يتصور الأفراد أنهم يعرفون ما هو صحيح، أو ما يترجح أن يكون صحيحًا،

(*) سبق أن ورد التعبير (Reputational Cascades) بمعنى: التداعيات المتفاقمة الناتجة عن تأثر الأفراد بمواقف وآراء الشخصيات ذات السمعة الطيبة من المحترمين فى المجتمع؛ وفى هذه الفقرة الحالية يستعمل نفس هذا التعبير بمعنى: التداعيات المتفاقمة الناتجة عن حرص الأفراد على سمعتهم الشخصية. لذا لزم التنويه. "المترجم".

ولكنهم على الرغم من ذلك يسايرون الحشد حتى يحافظوا على حسن ظن الآخرين بهم. افترض أن ألبرت يرى أن ظاهرة الاحترار العالمى ستتسبب فى إحداث أضرار كارثية فى المستقبل القريب، وأن باربارا تتفق فى الرأى مع ألبرت، ليس لأنها تتصور بالفعل أن ألبرت محق، ولكن لأنها لا ترغب فى أن تبدو فى نظر ألبرت جاهلة بموضوع حماية البيئة أو لا تبالى بها. فإن قال ألبرت وباربارا إن الاحترار العالمى سيتسبب فى إحداث أضرار كارثية فى المستقبل القريب، فقد لا تعارضهما سينثيا علانية، بل قد تبدو مشاركة لهما فى حكمها، ليس لأنها تعتقد أن حكمهما صحيح، بل لأنها لا تريد أن تواجه خصومتهما لها أو تفقد رأيهما الحسن فيها.

ينبغى أن يكون من السهل إدراك كيف يمكن أن تولد هذه العملية نوعًا من التداعى المتفاقم. فبمجرد أن يبدى ألبرت وباربارا وسينثيا موقفًا موحدًا من هذه القضية، فإن صديقهم دافيد يترجح أن يكون عازفًا عن معارضتهم، وذلك حتى لو كان يرى أنهم مخطئون. ذلك أن وجهة النظر التى تبدو مشتركة لألبرت وباربارا وسينثيا تحمل معلومات بأن وجهة النظر هذه يترجح أن تكون صائبة، ولكن حتى لو كان لدى دافيد سبب للاعتقاد بأنهم مخطئون، فإنه قد لا يرغب فى لفت نظرهم علانية إلى أنهم مخطئون. والمشكلة، بطبيعة الأمر، هى أن هذه الجماعة لن تسمع ما يعرفه دافيد. وتساعد تداعيات السمعة الشخصية على تفسير انتشار الرؤى المتطرفة. وخاصة عندما يعيش الأفراد داخل نوع ما من المنعزلات، أى البيئات المنعزلة عن غيرها، فإنهم يسكتون أنفسهم فى مواجهة حكم أو رأى بازغ أى ظهر حديثًا، حتى لو كانوا يعتقدون أنه خطأ.

وفى العالم الفعلى للقرارات التى تتخذها الجماعة، يكون الأفراد، بطبيعة الأمر، غير متأكدين مما إذا كانت الأحكام المعبر عنها بصورة علنية ثمرة للمعارف المستقلة لمجموع الأفراد، أم ثمرة للمشاركة فى تداعيات معلوماتية، أم ثمرة للضغوط التى تفرضها رغبة الأفراد فى الحفاظ على سمعتهم الشخصية. وفى معظم الأوقات، يغالى المستمعون والملاحظون فى تقدير مدى ارتكاز أفعال الآخرين على معلوماتهم الشخصية، بدلاً من أن ينسبوها إلى الضغوط الاجتماعية الواقعة عليهم. ونتيجة لذلك، فإن الجماعات التى يتبادل أعضاؤها الرأى، كثيرًا ما تنتقل إلى الآراء المتطرفة.

- السياسة

يتوافر كل سبب للاعتقاد بأن تأثيرات التداعيات المتفاقمة تحدث فى قضايا السياسة والأخلاق، وأن بإمكان هذه التأثيرات أن تحدث حركات حادة ومتطرفة. افترض أن الناس يتساءلون عما إذا كان من شأن أحد السياسيين أن يكون مرشحًا جيدًا لمنصب رفيع أم لا. حينئذٍ يترجح حدوث التداعيات المعلوماتية إلى حدٍ بعيد، وقد حدث بالفعل أن ساعد أحد التداعيات المعلوماتية فى تفسير ترشيحات أعضاء الحزب الديمقراطى لكل من جون كيرى فى سنة ٢٠٠٤[١٣٧]، ولباراك أوباما فى سنة ٢٠٠٨. فحينما تحول الديمقراطيون عن هوارد دين إلى جون كيرى، أو عندما تحولوا عن هيلارى كلينتون إلى باراك أوباما، لم يكن سبب ذلك أن كل ناخب ديمقراطى على حدة اتخذ حكمًا مستقلاً لصالح كيرى أو أوباما. بل كان سبب ذلك راجعًا، فى قدر كبير منه إلى وجود تصور شائع الانتشار بأن الأفراد

الآخرين يتدفقون أفواجًا نحو الفائز النهائى. وفيما يتصل بكيرى، فإن التقرير الذى كتبه "دنكان واتس: Duncan Watts" يستحق الاقتباس منه بالتفصيل، وذلك لأنه يدرك هذه الدينامية العامة بصورة ممتازة جدًا حيث كتب يقول:

"قبل أسابيع من المؤتمرات الحزبية لاختيار المرشح لرئاسة الجمهورية أو نائبه فى ولاية" أيوا: Iowa"، بدا أن حملات كيرى قد ماتت، إلا أنه بعد ذلك فاز بولاية أيوا بطريقة غير متوقعة، ثم فاز بولاية نيو هامبشاير، ثم فاز بهذه الانتخابات الأولية مرة بعد أخرى. فكيف حدث هذا؟ حينما ينظر كل إنسان إلى امرئ ما طلبًا لرأيه فيحاول، مثلاً، أن يختار المرشح الديمقراطى الذى يتصور أن أى إنسان آخر سيختاره، فمن الممكن أن تضيع هباءً أى معلومات قد تتوافر للأفراد الآخرين، وبدلاً من ذلك نحصل على شلال من التقليد والمحاكاة بين الأفراد يمكنه، وكما يحدث فى حالة قطيع من الأنعام التى تفر فرارًا جماعيًا مذعورًا، نقول: يمكن لهذا الشلال من التقليد والمحاكاة أن ينطلق فجأة بدون سبب ظاهر، وأن تذهب بعد ذلك، ماضية فى أى اتجاه بدرجة احتمال متساوية وتعد فقاعات سوق الأوراق المالية والتقاليع الثقافية المثالين اللذين يربطهما معظم الناس بالتداعيات المتفاقمة. إلا أن نفس هذه الديناميات بمقدورها أن تبدو بوضوح حتى فى المسألة الخطيرة المتعلقة بالانتخابات الأولية التى أجراها الحزب الديمقراطى لاختيار المرشح لرئاسة الجمهورية ونائبه. فنحن نتصور أنفسنا أفرادًا مستقلين، وأن كل واحد إنما تحركه قدراته ورغباته الداخلية الشخصية، وأننا لهذا السبب وحده مسئولون عن سلوكنا الشخصى، وبالذات حين يتعلق الأمر بالانتخاب، ولا تعترف أى

ناخبة أبدا - حتى ولا لنفسها - بأنها اختارت انتخاب كيرى لأنه فاز بولاية نيو هامبشاير".

إن عملية مماثلة قد نفعت أوباما نفعًا كبيرًا، وهو الذى ركز على الانتخابات الأولية لترشيح رئيس الجمهورية ونائبه فى ولاية أيوا، فى الوقت الذى كان يسير سيرًا بطيئًا وبصورة رديئة فى استفتاءات الرأى القومية. وبعد أن فاز فى هذه الحملة الانتخابية الأولية بدا على كل من التداعيات المعلوماتية والتداعيات المتعلقة بحفاظ المرء على سمعته الشخصية، أنها تعمل لصالحه، دافعة إياه إلى الترشيح. إذ إن المعلومات المتعلقة بصفاته الجيدة انتشرت بسرعة بين الناس الذين لم يكونوا يعرفون عنه شيئًا حتى ذلك الوقت. وتلقى الأفراد الذين كانوا معجبين بأوباما وأدلوا بعبارات مؤيدة له، أشكالاً من التأييد الذى جعلهم يحظون بسمعة طيبة، وعملت الضغوط الاجتماعية لصالحه.

من الممكن العثور على التداعيات الاجتماعية فى كثير من المسائل السياسية المختلف عليها، بما فيها مسألة شرعية الزواج من نفس الجنس، ومسألة الإجهاض، ومسألة الحروب الخاصة، ومسألة عقوبة الإعدام. كما أنه كثيرًا ما تكون المنظورات الفكرية الخاصة بكل من القضايا البيئية والقضايا الاقتصادية ثمرة لتأثيرات التداعيات المتفاقمة. فالقليل منا فكروا طويلاً وبشدة فى تلك المسائل. ونحن يغلب علينا أن ننتهى إلى أن نتصور أن الآخرين يتصورونه، أى ننتهى إلى اعتقاد ما نتصور أن الآخرين يعتقدونه - ويحدث ذلك على الأقل إذا كنا نتصور أن هؤلاء الآخرين يفكرون بالطريقة التى نفكر بها. وحينما تؤدى "المقاومة السياسية" إلى نقل الأفراد - بشكل حاد - إلى اليسار أو إلى اليمين، فإن التداعيات المتفاقمة

تكون متورطة فى إحداث هذه التغيرات الحادة على النحو المعهود فيها. وتطلق وجهات النظر هذه نوعًا من الإشارات التحذيرية الإضافية التى تحذر من أن أى موقف يصنف الناس فيه أنفسهم إلى مجتمعات صغيرة مكونة من الآخرين المتشابهين فى التفكير معهم. وفى مثل تلك المجتمعات الصغيرة تكاد التداعيات المتفاقمة أن تكون أمرًا حتميًا لا يمكن تفاديه، كما أن من الراجح إلى حد كبير، أن ترتكز هذه التداعيات على أساس التفكير القاصر والخلط بين الأمور. والمشكلة هى أن نفس القوى التى تنتج الأخطاء الفعلية تقوم بدورها، أى تفعل فعلها وتحدث أثرها فى المجالات الأخلاقية والسياسية كذلك.

الفصل الثالث

الحـــركات

إن فهمنا لحقيقة استقطاب الجماعة ولعواقب التداعى(*)، تكون له دلالته الضمنية بالنسبة لجميع أنواع المعتقدات الاجتماعية والحركات الاجتماعية. فهيا بنا الآن نفكر فى بعض الأمثلة، بالنسبة لأى مثال من هذه الأمثلة، فلا ريب أننا سنحتاج بالضرورة إلى مجلد بأكمله لنقدم معنى وافيًا لهذه الديناميات الأساسية، وليس هدفى هنا أن أقدم هذا المعنى الوافى، ولكن أن أقول ما يكفى للإشارة إلى أن القوى الاجتماعية المؤثرة التي نستكشفها هنا قد قامت بدور حاسم.

- حركات المعارضة و العزلة الجغرافية

تحت أى الظروف تقوم جماعة من الأفراد، تتصف بدرجة ما من درجات التشارك بتكوين إحساس مشترك لا يقتصر على الإحساس بالهوية، بل يشمل كذلك الإحساس المشترك بالظلم، ويؤول أمرها فى النهاية إلى أن تسعى لمعارضة الممارسات الاجتماعية القائمة، لماذا تحدث الحركات المعارضة؟

(*) عواقب التداعى أو تأثيرات التداعى أو نتائج التداعى: تعبيرات تشير إلى تعاقب الأحداث فى صورة مراحل تفضى كل مرحلة منها إلى ما يليها من المراحل، وهو الأمر الذى يرافقه شكل من أشكال التفاقم أو الاستفحال الذى يتزايد في كل مرحلة بعد المرحلة السابقة لها. "المترجم".

إن الحياة الواقعية حياة تفتقد الترتيب والنظام، وهى ليست تجربة خاضعة للسيطرة. ولكن بحثا عن حل، أمعن النظر فى مناقشة "شارون جروتش:Sharon Groch" للحركة من أجل حقوق المصابين بالعجز البدنى، إذ إن جروتش يركز، قبل كل شيء، على الصم، والذين تم تعزيز إحساسهم بالهوية المشتركة عن طريق وجودهم فى درجة عالية من العزلة الجغرافية[١]. ومن بين جماعة الأفراد العاجزين بدنيا، يعتبر الصم أكثرهم احتواء على الفئات الاجتماعية الممتزجة ببعضها، وهو الأمر الذي يرجع - عموما- إلى أنهم يعيشون قدرا كبيرا من وقتهم فى نفس الأماكن أو الفضاءات الجغرافية. وعلى النقيض من ذلك، يعتبر المصابون بضعف الحركة أقل من الصم بكثير فى تلك الصفة، وهى امتزاج الفئات الاجتماعية بينهم، ويرجع ذلك، فى جزء منه، إلى أنه لم يتم عزلهم، ولم يكوّنوا إحساسا قويا بهويتهم الجمعية. ويمثل المكفوفون حالة متوسطة. ونظرا لإلحاق المكفوفين بمدارس ذات مستوى بدائى يقيمون فيها إقامة داخلية، فقد طوروا أحيانا نوعا من الثقافة المعارضة. ولكن نظرًا لأنه يتم دمجهم أحيانا كثيرة فى المدارس العامة، كما أنهم يفتقدون العزلة الجغرافية من نواح أخرى، فقد تطورت هذه الثقافة المعارضة بصورة ضعيفة.

فماذا عن نتائج بحث جروتش؟ يتوقف كل شيء على ما إذا كان يتوافر للعاجزين بدنيا "فضاءات حرة" أو "فضاءات للعمل المستقل" [٢]. وهذه القدرة على العمل المستقل تتأثر تأثرا كبيرا بالعزلة المادية للجماعة. ففى كل عزلة يزداد رجحان عثور العاجزين على فضاءات حرة، والتى يكونون فيها قادرين على أن يتقاسموا همومهم ومشاغلهم، وأن يطوروا إحساسا بأنهم يقفون فى مواجهة باقى المجتمع. وينطبق تفسير جروتش هذا إلى حد بعيد

جدا على النتائج التى أكدت على أهميتها. فإنه إن كانت للجماعة "فضاءات حرة"، فإنه تكون لها درجة من العزلة، وقد يحدث الاستقطاب إلى حد بعيد، على الأقل إذا بدأ أعضاء الجماعة بإحساس بالظلم أو بمستوى من القلق والانشغال. وعلى العكس من ذلك، فإن الجماعة التي تنتشر خلال السكان في عمومهم وتفتقد "فضاءات العمل المستقل" سوف تكون لديها فرصة ضئيلة للنقاش المقصور على أعضاء الجماعة، ومن ثم فإن الوعى المعارض، والذى يغذيه الاستقطاب ويعززه، سيكون أبعد احتمالا لأن يظهر للوجود.

تساعد هذه النقاط، أي: الآراء، فى تفسير التباينات الموجودة بين الأفراد العاجزين بدنيا، كما تلقى الضوء على الديناميات الكامنة وراء الحركات الاجتماعية التى تشتمل على التوجهات العرقية، وتوجهات النوع الاجتماعى، والتوجهات العمرية، والتوجهات الجنسية. وتعد بعض تلك الديناميات غير مناسبة إلى أبعد حد من وجهة النظر الخاصة بالعدالة الاجتماعية. فمن بين فئة الأفراد العاجزين بدنيًا، يمكن لبعض من أقوى الحقوق المعنوية فى الحصول على الدعم الاجتماعى أن يطالب بها هؤلاء المصابون بالمرض العقلى، كالاكتئاب، واضطراب الوسواس القهرى. فالمرض العقلى قد يكون معطلا للحياة، وكثيرا ما يعطل الحياة بأكثر مما يفعل المرض البدنى الشديد، وذلك بمعنى أنه يقوض دعائم قدرة الأفراد على التمتع بحيواتهم تقويضًا شديدًا.

إن برنامجا حكوميا شاملا وكبيرا يمكن أن، وينبغى أن، ينفذ لمساعدة هؤلاء الذين يعانون من المرض العقلى. بيد أن المرضى العقليين ليست لديهم فضاءات حرة، كما أنهم بمقتضى طبيعة مرضهم نفسها، يندر أن يكونوا قادرين على التنظيم وعلى طلب ما يوفر لهم إشباع حاجاتهم أو طلب

مساعدتهم. أما بالنسبة للتوجه العرقى، والتوجه الخاص بالنوع الاجتماعى، والتوجه العمرى، والتوجه الجنسى، فكثيرا ما ظهرت حركات الإصلاح الناجحة بسبب عمليات الاستقطاب فقط، وذلك لأن الناس يتجمعون معا فى جماعات من ذوى التفكير المتشابه [٣]. ولا شك أن الحركات الساعية للمساواة، والقائمة على أسس فكرية أو مبررات منطقية مختلفة، تتضمن استقطاب الجماعة.

- المشروعات الوهمية، والاستثمارات السيئة، وأزمة مساعدى المديرين سنة ٢٠٠٨

يعتقد كثير من الناس أن الأسواق "فاعلة" بمعنى أنها تعكس معلومات تعطى مجالات واسعة، ومن ثم فإنها تكشف عن معرفة أكبر مما يحتمل أن يتوافر لدى أى شخص بمفرده، أو أى لجنة بمفردها، مهما كان هذا الفرد خبيرا ومهما كانت هذه اللجنة من الخبراء. وحتى إن كانت هذه الدعوى صحيحة، فإنه ينبغى أن يكون واضحا أن الجماعات الصغيرة من المستثمرين، والذين يتحدثون مع بعضهم، قد تصبح مستقطبة بشكل يتسبب فى إحداث أخطاء واسعة النطاق. شاهد ذلك، أنه فى مناقشة كاشفة بصورة استثنائية، قدم "بروك هارينجتون: Broke Harrington" قدرًا كبيرًا من البرهان المؤيد [٤] لهذه الدعوى. وتعد "نوادى الاستثمار" جماعات صغيرة من الأفراد الذين يجمعون أموالهم ويتخذون قرارات مشتركة بشأن الاستثمارات فى البورصة. ويبين هارينجتون أن أسوأ هذه النوادى أداء هى نواد اجتماعية أساسا، وأن أعضاءها يصغون إلى بعضهم بانتباه. وهم يعرفون بعضهم، ويأكلون معا، وتجمعهم روابط المحبة. وعادة ما تكون أصوات أعضاء هذه النوادى ذات الأداء المتدنى، أصواتا إجماعية، ليس فيها

إلا قدر قليل من المناقشة المفتوحة أو الصريحة. فأصواتهم تطرح لكى تبنى التماسك الاجتماعى بينهم، وليس لكى تجلب لهم أعلى العوائد أو الأرباح. وعلى العكس من ذلك، فإن النوادى ذات الأداء الأفضل توفر "لأعضائها" روابط اجتماعية محدودة وتركز على زيادة العوائد أو الأرباح. ويتكرر وقوع المعارضة أو الانشقاق بمعدل أعلى فى النوادى ذات الأداء المرتفع. وداخل النوادى ذات الأداء المتدنى، تتسبب التفاعلات الاجتماعية فى إحداث "ظاهرة" عواقب التداعى، وفى إحداث درجة مرتفعة من الاستقطاب معا، وهو ما يؤدى إلى الإضرار الجسيم بأعضائها.

ولسوء الحظ، فإن هذه العواقب ليست مقصورة على أعضاء نوادى الاستثمار. فالتداعيات المعلوماتية تقوم بدور كبير فى الاستثمارات ككل، كما أنها تتسبب أحيانا فى إحداث أوهام خادعة، وبطريقة تثير مشكلات حادة بالنسبة للكفاءة المزعومة للأسواق [٥]. ما الذى يفسر ما حدث سنة ٢٠٠٨ من أزمة مساعدى المديرين، وما انتهت إليه من الأزمة المالية للولايات المتحدة ككل؟ سوف تحتاج الإجابة الوافية إلى صفحات كثيرة العدد. ولكن كما سبق أن اقترحت، فإن جزءا من الصورة يتمثل فى وجود اعتقاد اجتماعى مشترك بأن أسعار العقارات تتصاعد دائما، ومن ثم كانت الاستثمارات وصكوك الرهن العقارى المحفوفة – ظاهريا – بالمخاطر، فكرة جيدة لا محالة. فقد خلقت دعوى الأسعار المتزايدة على الدوام للعقارات فقاعة تقليدية، أى وهما خادعا، فقد كان الأفراد يعتقدون أن الأسعار سوف تتصاعد، وأدى هذا الاعتقاد الذى شاع تصديقه، بالشركات والأفراد إلى اتخاذ سلسلة من القرارات التى من شأنها أن تنتهى إلى إحداث الكارثة.

هذا التفسير الأفضل قدمه "روبرت شيلر: Robert Shiller" والذى يؤكد على أن "أهم عنصر وحيد يتوجب إدخاله فى الحسبان عند فهم هذا الانتعاش أو أى انتعاش آخر فى مجال المضاربات، أي البورصة هى "العدوى الاجتماعية للتفكير فى الانتعاش، والتى يتم نشرها عبر الملاحظة الشائعة للأسعار المتسارعة فى صعودها" (٦). ويقول شيلر: إن العدوى الاجتماعية تقوم بعملها كأنها وباء مرضى، بمعنى أن كليهما له معدل إصابة، أى عدوى، والذى يعنى ضمنا الانتشار، كما أنهما لهما معدل زوال، والذى يعنى ضمنا الشفاء أو الموت. فحين تسود رؤية متفائلة بالسوق، فسبب ذلك أن معدل الإصابة أعلى من معدل الزوال. وفى نهاية الأمر، تكون المعرفة العامة التي تشيع بين الناس محلا لنوع من التصعيد أو تبادل التأثير، حيث يبدو كل فرد وكأنه يتصور أن هذه الرؤية المتفائلة صحيحة. ونظرا لأن وسائل الإعلام تقر هذه الرؤية، فإن الناس يؤول بهم الأمر إلى الاعتقاد بأننا فى "حقبة جديدة"، كما أن دورات التغذية المرتدة تساعد على إحداث تصاعد مستمر فى الأسعار. "وتتكرر الدورة التي تبدأ بالسعر ثم العرض الإخبارى له فى وسائل الإعلام، وتنتهى بسعر آخر "أعلى من السابق"، نقول: تتكرر هذه الدورة مرارًا وتكرارًا من خلال وهم خادع أو فقاعة فى مجال البورصة" (٧).

ويرى شيلر- صراحة - أنه بناء على هذا التفسير، فإن الفقاعات أو الأوهام الخادعة فى مجال البورصة إنما تنشأ نتيجة للتداعيات المعلوماتية، وذلك لأن الناس تكتم شكوكها الشخصية فى ضوء ما يبدو أن كل امرئ آخر يتصوره من الرؤية المتفائلة. كما أن استقطاب الجماعة يقوم بأداء عمله، حيث يقود الناس فيصل بهم إلى الإيمان الأقوى بأحد المعتقدات

المتطرفة نسبيا. وهكذا فإن الذى حدث فى حالة انتعاش سوق العقارات ليس مختلفا جذريًا عن الذى حدث فيما يتصل بالقضايا السياسية التي اختبرناها فى تجربتنا التى أجريناها فى كولورادو (انظر الفصل ١).

ولا ريب أن من الممكن دائما طرح مثل هذا التفسير بعد حدوث ما حدث، إلا أن بعض الناس، وأولهم شيلر، تنبأ به فى وقت سابق تماما عن هذه الأحداث، بجانب أنه أشار بصراحة إلى تأثيرات التفاعلات الاجتماعية وعواقب التداعى فى إحداث فقاعة سوق العقارات[٨]. ويرى شيلر أن من "الواضح"، أن "نوعا من التداعى المعلوماتى، أى التدفق المتلاحق للمعلومات، ساعد على خلق هذه الفقاعة فى سوق العقارات. والآن من الممكن لنوع من التداعى المنحدر أو الهابط أن يظهر للوجود فى المستقبل، حيث يصبح فيه الأفراد الراشدون أى العقلاء مفرطين فى التشاؤم إذ يرون الآخرين يعرضون بيوتهم للبيع بأسعار منخفضة إلى مستويات غير عادية"[٩].

- الحركات الإثنية والتأثين

عندما يشتعل الصراع الإثنى، فإن من المجازفة أن نتصور أن الأحقاد القديمة العهد طفحت صاعدة إلى السطح. وبناء على هذه الرؤية، فإن الحقد الإثنى يظهر للوجود عندما تصل العداوات الدينية والإثنية، التى طالما تعرضت للقمع إلى قمة عنفوانها. وعلى امتداد العالم بأسره، قد ينظر إلى الصراع الإثنى باعتباره نوعا من وصول مظاهر التذمر والغضب الدفينة إلى أوجها.

إلا أنه توجد مشكلة حقيقية فى هذه الرؤية، والتى تتمثل فى أن الأحقاد الإثنية ليست أزلية أو قديمة العهد بأى معنى من المعانى. وهى لا توجد في دم أى إنسان. إذ الغالب عليها أنها حصيلة نوع من "التأثين" المتسارع، أى

التركيز على الاعتبارات الإثنية للجماعة البشرية، والذى يقوم استقطاب الجماعة بالحث عليه، فكثير من الأفراد الذين يشاركون فى النزاع الإثنى ويبدون عداوة إثنية حادة يكونون متأثرين تأثرا حادا بالضغوط الاجتماعية الحديثة العهد، وليس بأى أمر يرجع إلى الماضى البعيد. والواقع أن الحكومات نفسها قد تعمل جاهدة على أن تغرس فى الأذهان، وأن تستديم العداوات التى تتخطى الحدود. فعندما يولد أبناء كوريا الشمالية لا يكون لديهم شيء ضد اليابانيين. إلا أن نظام الحكم فى كوريا الشمالية كان – ولا يزال – يحاول أن يرسم صورة تاريخ هذه الأمة بطريقة توحى بأن شعب اليابان، فى الحاضر كما فى الماضى، من الأعداء. فالعداوة الموجهة لليابانيين والتى يبديها كثير من الناس فى كوريا الشمالية هى بالتأكيد حصيلة الضغوط الراهنة.

وبصورة أعم، تتباين مستويات النشاط الإثنى تباينًا عظيمًا جدًا على امتداد الزمان والمكان. ففى معظم المدن الأمريكية، مثلا، لا يتصرف أغلب الناس علانية بطريقة تلفت أقل انتباه لإثنيتهم. وأنا أستثنى المواكب الإثنية جانبا، كاستعراض عيد سانت باتريك. ففى معظم الأوقات لا تختلف الملابس، وقصات الشعر وما أشبه ذلك اختلافا له معناه عبر الاتجاهات الدينية، والإثنية، والعرقية. فلا يرتدى الأمريكيون الآسيويون ملابس تختلف عن ملابس البيض، وعادة ما يكون غير ممكن تقرير ما إذا كان أحدهم كاثوليكيا، أو يهوديا، أو من أتباع الكنيسة الأسقفية البروتستانتية، أو بوذيًا، أو ملحدا. أما غياب مظاهر التميز القائمة على أسس متعددة، فينبغى مقابلتها بالمجالات التى تكون فيها الملابس وقصات الشعر تختلف اختلافا فعليا، وذلك لإظهار الفروق بينها؛ لاحظ مثلا الفروق الحادة بشكل واضح بين الرجال والنساء، وبين الشباب وكبار السن، وبين الأغنياء والفقراء.

فى الواقع، فإن لكل واحدة من هذه الحالات مجال اهتمامها المتميز الذى يخصها، بما فيه من فروق بسيطة أو متطرفة، والتى تظهر من فترة إلى فترة أخرى، وتوجد بين الرجال والنساء، أو بين الشباب وكبار السن، أو بين الأغنياء والفقراء. وفيما يتصل بالطبقة، فإن ما قدمه "جوردون وود: Gordon Wood" من تفسير للفروق الاجتماعية فى أمريكا قبل الثورة يحدد هذه القضية. ففى تلك الفترة، كان المجتمع الأمريكى مجتمعا هرميا بشكل مفرط، وفيما يتصل بالملابس ومظاهر السلوك، كان "العوام" "مجبرين على الإقرار بدونيتهم وخضوعهم للسادة، وعلى الشعور بذلك. ولكن نظرا لأن تجاهلهم، ودونيَّتهم، وخضوعهم بدت جزءًا من النظام الطبيعى للأمور، فإن كثيرا من العوام. كانوا ينحنون ويرفعون قبعاتهم أمام سيدات الطبقة الراقية وأمام السادة من علية القوم وهم يشعرون أن ذلك واجب عليهم؛ وقد كانوا يعرفون موقعهم ويمشون – عن طيب خاطر – بينما كان السادة يركبون، كما أنهم أى العوام – كانوا حتى ذلك الوقت، نادرا ما يبدون رغبة عارمة فى تغيير موقعهم ممن هم أفضل منهم [١٠]، أى من سادتهم.

أبدى كثير من المجتمعات مظاهر للتزايد البطىء أو المتسارع فى التأثين أى: التركيز على الاعتبارات الإثنية، حيث يكرس الأفراد المزيد من جهودهم لعرض هويتهم الإثنية. ويتنامى استعمالهم لما يخصهم من ملابس، أو قصات شعر، أو لهجات بمرور الوقت. وإن بإمكاننا أن نعثر – بسهولة – على عهود زمنية فى تاريخ الولايات المتحدة تنامى فيها التوحد الإثنى أو التماهى الإثنى، وعادة ما كان هذا التنامى طفيفا أو هبط مستواه وأحيانا يكون هذا الهبوط كبيرا [١١]. وعندما استولى هتلر على الحكم، أصبح كثير من اليهود الألمان أشد توحدا مع بعضهم بوصفهم يهودًا،

ويرجع ذلك فى جزء منه إلى دواع تتعلق بحماية النفس. وأخفى الكثيــرون ديانتهم، ولدواع تتعلق بحماية النفس كذلك. وهكذا كان التــأثين، أى تركيــز أبناء الإثنية على إثنيتهم ونقيضه استجابتين ملموستين أو محسوستين للتهديد النازى. وإن بإمكاننا أن نستخرج حكما عاما من هذا المثال مفاده؛ أنه عندما تكون جماعة إثنية أو دينية معرضة للخطر، فقد يتــرابط أعــضاؤها معــا ويؤكدون على ما يوحدهم، أو قد تحاول أن تصبح مندمجة بغيرها. وعلــى امتداد قدر كبير من الوقت، سوف تعكس قراراتهم نوعا ما من التقيــيم لأى الإستراتيجيات التي يترجح أن تزودهم بأقصى درجات الحماية.

عودة إلى الفروق أو الاختلافات المتعلقة بالنوع الاجتماعى، والــسن، والثروة، والتى فيها تكون الفروق أو الاختلافات فى الملابس وفى قــصات الشعر سائدة. فالضغوط الاجتماعية تعاقب النساء اللاتى يرتدين ملابس تشبه ملابس الرجال، أو تعاقب كبار السن الذين يلبــسون كالــشباب، أو تعاقــب الأغنياء الذين يلبسون كالفقراء. فالرجال الذين يلبــسون كالنــساء يكونــون عرضة لعقاب خاص. وتتم زيادة حدة هذه الفروق ذات الصلة عن طريــق أمثال تلك الضغوط. وفى بعض العصور والأمــاكن، يــتم تخفيــف هــذه الضغوط، بل قد يصل الأمر إلى أن تغير اتجاها، كما يحدث، مثلا، عندما يتم تشجيع الرجال والنساء على ارتداء ملابس متشابهة، وفى معظــم الأحيــان يكون هذا التشجيع، بلا شك، تشجيعا على ارتداء ملابس الرجال.

تأمل مسألة التأثين فى هذا الضوء. ومن الأسئلة الأساسية هنا السؤال عما إذا كانت المعايير الاجتماعية ذات الصلة تفرض الضغط لإحداث التوحد على أساس إثنى، أم أنها لا تفعل ذلك؟ فقد يكون من الأمور "الصائبة سياسيا" أن يعلن المرء عن إثنيته، أو قد يكون من الــصواب سياســيا أن يخفيهــا.

وأحيانًا ما تختلف المعايير الحاكمة من مكان لآخر. وأحيانا ما تتغير فجأة. وحين يكون الأمر كذلك، يمكن أن يوجد ضغط شديد على الفرد لتعريف نفسه على أسس إثنية أحيانا، أو للاحتفاظ بالأصدقاء أحيانا، أو لتحصيل الامتيازات المادية أحيانا، أو لإنقاذ حياته أحيانا. ويمكن "لتجار الهوية" أى سماسرتها والمنتفعين بترويجها ولذوى المشارب المتعددة أن يزيدوا الضغط للتأكيد على الإثنية. ويترتب على ذلك أن مظاهر التوحد الإثنى قد تكون حصيلة الضغط المعاصر إلى حد بعيد، وأنها ذات صلة طفيفة أو لا صلة لها بأى شيء قديم العهد أو سحيق الزمان. وعندما تحدث أشكال التوحد الإثنى، فقد يقوم الاستقطاب، أو نوع ما من التداعى الإثنى المتلاحق، قد يقوم بعمله. أى يحدث تأثيره إلى حد بعيد.

عن طريق التركيز على الأحقاد الإثنية فى يوغوسلافيا السابقة، نوقشت العمليات الأساسية لهذه الأحقاد مناقشة كاشفة من جانب الاقتصادى "تيمور كوران: Timur Kuran" (١٢). والدعوى المحورية لكوران هى؛ أن شكلا من أشكال التداعى المتلاحق للاعتقادات المصدقة بين الناس(*) يساعد على تفسير ظهور التأثين. ويبين كوران أن الناس فى يوغسلافيا السابقة، وحتى مرحلة أخيرة، كانوا يعيشون معا فى تناغم عبر الخطوط الإثنية. والواقع أن هذه الخطوط كانت – فى جوهر الأمر – لا صلة لها بالموضوع، أي غير أساسية أو مهمة. ومن الأمور المسلم بها أن الأحقاد القديمة العهد لم تقم بأى دور فى حيوات معظم الناس. إذ إن الأحداث التاريخية القديمة كان

(*) المرجع: قاموس وبسترا الجامعى الجديد، الطبعة التاسعة.
Webster's Ninth New collegiate Dictionary.

يندر ظهورها. والواقع أنها كان من النادر أن يعرفها احد، كما أنها في الغالب مجهولة تماما. ولكن كما كتب كوران قائلا:

"في بحر عدة أشهر، بدأ ملايين من الصرب الذين لم يسبق لهم أن أبدو شيئا من الحمية الإثنية إلا قليلا، يهتمون بالإحصائيات الإثنية، ويرفعون من شأن الرموز التي تمثل اعتقاد الصرب بأنهم أعلى منزلة من غيرهم، ويحطون من شأن غير الصرب ويطردونهم من بينهم، ويشير مرارا وتكرارا إلى ما لاقاه أسلافهم من أشكال المعاناة، ويؤيدون توسيع نطاق الأقاليم التي يمتلكها الصربيون. وانحلت الزيجات المختلطة التي كانت زيجات سعيدة قبل ذلك. وهكذا فإن الأحداث التاريخية المهمة لا تتحول بصورة مفاجئة أبدا إلى أحداث محورية يدور حولها الجدل السياسي [١٣].

والنتيجة الرئيسية؛ أنه حتى أشد أشكال الحقد والخوف الإثنية من الممكن أن تكون حصيلة أو ثمرة لعملية من عمليات التأثين، أي التركيز على الاعتبارات الإثنية، وليست سببا لهذه العملية. ولا ريب أن من اللازم إجراء فحص دقيق لأي وضع خاص، وذلك لمعرفة ما إذا كانت هذه النتيجة تصدق على هذا الوضع أم لا. ولكن تذكر أن الحقد الإثني ليس شيئا في دم أي إنسان. فسواء أكان الناس يركزون على الهوية الإثنية أم على أمر آخر، فإن ذلك يمثل– بصورة عامة – حصيلة للضغوط الاجتماعية الجارية والحديثة التي تتضمن بالتأكيد استقطاب الجماعة، وليست حصيلة أي أمر حدث في الماضي البعيد. وإن هذه النظرة تعطي انطباعا قويا بإمكانية التوازنات المتعددة، فعن طريق إحداث صدمات صغيرة نسبيا، قد يؤول الأمر بجماعة سكانية لم تنفصل كثيرا على امتداد الخطوط الإثنية إلى أن تقه د بهذا الانفصال.

ومع أن هذه القضايا ذات صلة بالأمم التى عانت يوما ما من الصراع الإثنى، فإن بالإمكان أن يحدث التأثين فى أى أمة، حتى فى تلك الأمم التـــى ليس فيها عنف إثنى. وإن بإمكاننا أن نجد أوجه تشابه قوية حيثما يؤول الأمر بالناس إلى أن يتوحدوا معا بـــصورة أشـــد قـــوة علـــى امتـــداد الخطـــوط الديموجرافية الخاصة، والتى تتضمن أمثال تلك الخصائص التى منها: النوع الاجتماعى، أو القناعة السياسية، أو السن، أو العجـــز البـــدنى، أو التوجـــه الجنسي. والأمر المثير للاهتمام بالذات هو؛ كيف ومتى يصبح مرغوبا فيـــه أن يتوحد بعض الناس معا، وأن يرفضوا هذا التوحد، وفقا لهذه الاعتبارات، وذلك عندما توحى الضغوط الاجتماعية المتزايدة بـــأن النـــاس ينبغـــى أن يتوحدوا معا أو أن يرفضوا ذلك التوحد. وهنا، أيضا، وجهة نظـــر أساســـية مفادها؛ أنه بسبب وجود الاختلافات التى تبدو فى ظاهرها بـــسيطة، والتـــى تحدث فى مرحلة أو في غيرها من المراحل، ينتهى أمر النتائج الاجتماعيـــة لهذه الاختلافات إلى أن تصبح مختلفة اختلافا جذريا عما كانت ستصير إليه لولا هذه الاختلافات.

- نظريات المؤامرة

لماذا يتقبل الناس نظريات المؤامرة التى يثبت فى النهاية أنها زائفـــة، وأن الدليل الذى تقوم عليه دليل واه أو حتى لا وجود له [٤٤]؟ إن من الأمور المغرية أن نجيب بلغة علم الباثولوجيا الفردية، أى علم الأمراض الفرديـــة [٤٥]. وربما تكون نظريات المؤامرة حصيلة المرض العقلى، كمـــرض البارانويـــا

أى: جنون العظمة(*)، أو النرجسية أى: عشق الذات. وفى الواقع، يكون الأفراد الذين يسلمون بنظريات المؤامرة مرضى عقليين، ويكونون عرضة للضلالات. بيد أنه فى كثير من المجتمعات المحلية بل وفى الأمم، يشيع الاعتقاد بهذه النظريات. وليس من المقبول إعطاء الانطباع بأن كل أو معظم أعضاء هذه المجتمعات المحلية مصابون بالمرض العقلى. ذلك أن أهم نظريات المؤامرة يندر أن تكون مقصورة على هؤلاء الذين يعانون من أى نوع من المرض. بالنسبة لأهدافنا الحالية، فإن أفيد طريقة لفهم شيوع نظريات المؤامرة هى، أن نفحص الطريقة التى يكتسب بها الناس معتقداتهم. إن الكائنات الإنسانية، وفيما يتصل بمعظم ما يعتقدون أنهم يعرفونه، تنقصهم المعلومات الشخصية أو المباشرة، لذلك لابد لهم من الاعتماد على ما يتصوره غيرهم من الناس. وقد رأينا أن الناس فى بعض الميادين يعانون من "إبيستمولوجيا شلاء"، بمعنى أنهم لا يعرفون إلا أمورًا قليلة جدًا، وأن ما يعرفونه خطأ (١٦). ويندرج كثير من المتطرفين فى هذه الفئة، ولا تنجم نزعتهم المتطرفة من اللاعقلانية، ولكن من كونهم لا يعلمون إلا معلومات قليلة ذات صلة، كما أن وجهات نظرهم المتطرفة يدعمها ذلك القدر القليل الذي يعلمونه (١٧). وكثيرًا ما يكون للتنظير القائم على فكرة المؤامرة نفس هذه السمة. فهؤلاء الذين يعتقدون أن إسرائيل مسئولة عن هجمات ١١ سبتمبر، أو يعتقدون أن وكالة المخابرات المركزية قتلت الرئيس كنيدى قد

(*) المصدر: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، د. محمد الجوهرى، المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠.

يكونون مستجيبين إلى حد بعيد وبصورة عقلانية تماما للإشارات المعلوماتية التى يتلقونها.

تأمل هنا تلك الدعوى الموحية بأن الأرجح أن يظهر الإرهاب فى الأمم التى تفتقد الحقوق المدنية والحريات المدنية (١٨). ولو كان الأمر هكذا، فربما يرجع إلى أن الإرهاب ليس عنفا مجردا، ولكنه شكل متطرف من الاحتجاج السياسى، وأنه عندما يفتقد الناس المتنفسات المعتادة للتعبير عن احتجاجهم، فقد يلجأون إلى العنف(١٩). ولكن تأمل حالة أخرى محتملة: عندما تكون الحقوق والحريات المدنية مقيدتين ولا يتاح للناس إلا قدر يسير من المعلومات، ويكون ما يأتى من الحكومة مما لا يمكن الثقة به. حينئذ إذا كانت المعلومات الأجدر بالتصديق أو المعلومات الأقل استحقاقا للتكذيب تبرر نظريات المؤامرة، ومن ثم تبرر التطرفية ومن ثم تبرر العنف، فإن الأرجح حينئذ أن يظهر الإرهاب.

وبطبيعة الأمر، لابد من التحديد الدقيق للكيفية التى بها تبدأ نظريات المؤامرة. إذ إن بعض هذه النظريات تبدو أنها تظهر على السطح بطريقة تلقائية، وتبدو وكأنها ظهرت فى وقت واحد تقريبا فى كثير من الشبكات الاجتماعية المختلفة، وبعضها الآخر يتم إطلاقها ونشرها، وبطريقة عمدية تماما، على يد تجار المؤامرة أو المنتفعين بها الذين يربحون بصورة مباشرة أو غير مباشرة من الترويج لنظرياتهم. ومن أمثلة هؤلاء المؤلف الفرنسى ثيرى ميسان:Thierry Meyssan"، والذى أصبح كتابه "٩/١١ : الكذبة الكبيرة" أحد الكتب الأكثر مبيعًا كما أصبح حدثا مثيرا لما فيه من دعاوى بأن تفجير مبنى البنتاجون وزارة الدفاع الأمريكية فى هجمات ٩/١١ ، كان

نتيجة لإطلاق صاروخ عليها، وذلك باعتباره طلقة البداية فى انقلاب تقوم به المجموعة العسكرية الصناعية، وليس نتيجة لانفجار طائرة تابعة للخطوط الجوية الأمريكية فى رحلتها رقم ٧٧.

داخل سياق هجمات ٩/١١ توجد أمثلة أخرى كثيرة [٢٠]. وقد يكون بعض المنتفعين بالمؤامرة مخلصين تماما، ويكون الآخرون مهتمين بالمال أو بالقوة أو بتحقيق هدف ما من الأهداف الاجتماعية العامة. وداخل سياق فيروس الإيدز، قامت مجموعات مختلفة من الناس بإطلاق الشائعات، والتى يتضمن الكثير منها ذكر المؤامرات، وفى ضوء الاضطراب والخوف اللذين يحيطان بذلك الفيروس، انتشر العديد من تلك الشائعات انتشارا واسعا [٢١]. ولكن حتى بالنسبة للنظريات التى يصفها بعض المنتفعين بالمؤامرة، فإن السؤال الرئيسى هو: لماذا تستمر بعض النظريات صامدة بينما لا يصمد كثير غيرها من النظريات، ويتلاشى فى الظلام؟

حينما تقع حادثة سيئة، تكون الشائعات والتخمينات أمرا محتما لا محالة. إذ يكون معظم الناس غير قادرين على أن يعرفوا، وبناء على المعرفة الشخصية أو المباشرة، لماذا تحطمت إحدى الطائرات، أو لماذا اغتيل أحد القادة، أو لماذا نجحت هجمة من الهجمات الإرهابية. وفى أعقاب مثل تلك الحادثة، سوف نطرح تخمينات متعددة، ومن المرجح أن يشير بعضها إلى نوع ما من المؤامرات. وبالنسبة لبعض الأفراد، سوف تبدو هذه التخمينات مقبولة، وقد يرجع ذلك إلى أنها توفر متنفسا مناسبا للغضب والتوبيخ، أو يرجع إلى أن هذه التخمينات تتطابق تماما مع ما يؤمن به الأفراد من معتقدات عميقة الجذور. فالأحداث المرعبة تخلق الغضب، وعندما يغضب الناس، فإنهم جميعا يكونون أشد بحثا عن الأسباب التى تبرر

حالتهم الانفعالية هذه، والتى تعزو هذه الأحداث – كذلك – إلى فعل متعمد[٢٢]. ونظريات المؤامرة، شأنها شأن الشائعات، قد تقوم – في نفس الوقت – بالتنفيس عن الانفعالات الحادة وبتقديم تفسير لهؤلاء الذين يسلمون بنظرية المؤامرة يبين لهم سبب شعورهم بهذا الشعور، فالنظرية تطلق تلك الانفعالات فى نفس الوقت الذى تسوغها، أو تفسرها تفسيرا عقلانيا.

بالإضافة إلى ذلك، تعد المعتقدات السابقة، أي الموجودة لدى الناس من قبل مفتاحا لنجاح أو فشل نظريات المؤامرة. فبعض الناس يرى أنه مما يصدم النفس لا محالة تصور، أن وكالة المخابرات المركزية كانت مسئولة عن اغتيال أحد قادة الحقوق المدنية، فهذا التصور من شأنه أن يزعزع الكثير جدا من آرائهم. ويرى غيرهم أن تلك الآراء الأخرى تتأكد تأكيدا قويا، بل تثبت بالبرهان، عن طريق الأخذ بنظرية أن وكالة المخابرات المركزية كانت مسئولة عن مثل ذلك الاغتيال. قارن حالة الهجمات الإرهابية " في سبتمبر ٢٠٠١". ففى نظر معظم الأمريكيين، يكون من شأن الدعوى التى تقول: إن حكومة الولايات المتحدة اعتدت على مواطنيها، وذلك لتحقيق هدف آخر، يكون من شأنها أن تجعل من المحال انطباقها على طائفة واسعة من آرائهم الأخرى. ومن الواضح أن وجهة النظر هذه، والتى تستبعد تماما مسئولية الحكومة الأمريكية عن هجمات سبتمبر ٢٠٠١، لا تروق لكثير من الناس فى البلاد الإسلامية، والذين يرون أنه ليس مما يصدم النفس الاعتقاد بأن المسئولية تقع على عاتق الولايات المتحدة أو إسرائيل في افتعال هذه الهجمات.

وموجز القول، إن الناس مدفوعون إلى تصديق التفسيرات التى تتلاءم مع قناعاتهم السابقة؛ فتصديق تلك التفسيرات يجعلهم يشعرون شعورًا طيبًا،

وتصديق التفسيرات المناوئة لها يجعلهم يشعرون شعورًا سيئًا [٢٣]. وفي كثير من الأحيان، تكون الاستجابات لدعوى من دعاوى المؤامرة التي تقول بالتآمر على اغتيال أحد القادة السياسيين، أو بالتآمر على ارتكاب عمل وحشي ما، أو السماح به في داخل البلاد أو خارجها، في كثير من الأحيان تكون الاستجابات التي يبديها الناس لهذه الدعوى متوقفة على الدوافع التي تحرك هؤلاء الذين يسمعون هذه الدعوى. كما أن الناس لديهم أسباب بمعنى مبررات وجيهة لتصديق التفسيرات التي تتلاءم مع ما يعرفونه من قبل، فإن كانت إحدى نظريات المؤامرة مما يصدم نفسك بشدة إذا نظرت إليها في ضوء معرفتك الراهنة، فحينئذ يتوفر لك سبب وجيه لرفضها. فالناس هنا، كما هم في أي مكان آخر، يحاولون إيجاد نوع ما من التوازن بين ما لديهم من مجموعة متنوعة من المعتقدات، كما أن تصديق أو رفض إحدى نظريات المؤامرة سيتوقف – في معظم الأحيان – على تحديد أي هذين الموقفين، وهما التصديق والرفض اللذان يؤديان إلى التوازن.

فهذه وجهات نظر تدور حول الآراء الفردية، والتي تتضمن تأثيرات اجتماعية. إلا أنه بعد أن تقع حادثة كريهة، تكون هذه التأثيرات ذات طابع حاسم، لأن معظم الناس لن تكون لديهم إلا معرفة قليلة أو لن تكون لديهم معرفة مباشرة بالأمر الذي تسبب في وقوع هذه الحادثة. فكم عدد الأفراد الذين يعلمون، بصورة مباشرة أو على أساس ما يقومون به من استقصاء شخصي، ما إذا كانت منظمة "القاعدة" مسئولة عن هجمات ٩/١١ أم لا، أو ما إذا كان لي "هارفي أوزوالد: Lee Harvey Oswald" قتل الرئيس كنيدي من تلقاء نفسه أم لا، أو ما إذا كانت إحدى حوادث الموت الفاجعة المتمثلة في حادثة تحطم ظاهرية لطائرة وقعت بالمصادفة حقا أم لا؟ ومما لا مناص

منه، أن الناس لابد أن يعتمدوا على معتقدات الأفـراد الآخـرين. وسـوف يتطلب الأمر مع بعض الأفراد قدرًا كبيرًا من البرهـان ليـصدقوا إحـدى نظريات المؤامرة، وسوف يتطلب غيرهم قدرا أقل كثيرا. ومن ثم فإن الناس سوف تكون لديهم عتبات مختلفة من تصديق أو رفض مثل تلـك النظريـة، ومن العمل استنادا إلى هذه النظرية [٢٤]. ومن طرق الوفاء بمتطلبات إحدى العتبات ذات الصلة، تقديم برهان مباشر أو غير مباشر على صحتها. وتتمثل طريقة أخرى فى إثبات أن بعض الأفراد المحترمين من أهل الثقة أو كثيـر منهم، أو معظمهم، يصدقون هذه النظرية أو يرفضونها. وهذه هى الظروف الملائمة لحدوث التداعيات الاجتماعية المتلاحقـة أو المتفاقمـة – وبالـذات التداعيات المعلوماتية – والتى تقوم ديناميتها، وإن لم تكن هذه الديناميات مما تتصف به نظريات المؤامرة وحدها، تقوم بالمساعدة على شرح الكيفية التى بها تنتشر هذه النظريات.

ويمكن أن تحدث التداعيات المعلوماتية المتلاحقة بدون أن تتـسبب فى إطلاقها حادثة معينة. إلا أنه يظهر نوع متميز من التـداعى المتلاحـق عندما تكون هذه الحادثة بارزة بدرجة كبيرة، أو مـن الممكـن أن يعرفهـا الجميع. ففى سياق كثير من المخاطر، كالمخـاطر المرتبطـة بالإرهـاب، والقدرة النووية، ومقالب النفايات الخطيرة المهجورة، تقـوم حادثـة معينـة بإطلاق نوع من التداعى المتلاحق، كما أنها تبدو مفجرًا أو رمزًا يبرر القلق الذى يعم الناس، وبصرف النظر عما إذا كان هذا القلق لـه مـا يبـرره أم لا[٢٥]. وتحدث التداعيات المتلاحقة الناجمة عن توافر المعرفة، تحدث مـن خلال التفاعل بين حادثة بارزة والتأثيرات الاجتماعية، والتى تضم كلا مـن التأثيرات المعلوماتية والتأثيرات الصادرة من الأفراد المحترمين أهل الثقـة.

وغالبا ما يقوم الفاعلون السياسيون، سواء ذوى المصالح الشخصية أو المؤثرين لمصالح الآخرين، بالسعى الجاد لإحداث مثل هذه التداعيات المتلاحقة.

وتتحكم فى نظريات المؤامرة نفس هذه الآليات. إذ تصبح المعرفة بحادثة معينة متاحة للجميع، وتطلق نظريات المؤامرة، بما فيها النظريات التى تفسر هذه الحادثة والنظريات التى تستخدم هذه الحادثة بوصفها رمزًا لقوى اجتماعية أوسع نطاقا، حيث تقوم هذه النظريات بإلقاء الشك فى المعرفة التى يصدق بها الناس فى مجالات كثيرة. شاهد ذلك، أنه داخل بعض البلاد وبعض الجماعات، تأخذ دعوى أن الولايات المتحدة أو إسرائيل هى المسئولة عن هجمات ٩/١١، موقعا مناسبا تماما داخل إطار سردية عامة تحكى عن هو المعتدى ومن هو الكذاب فى سلسلة من المناقشات، كما أن وجهة النظر القائلة بأن القاعدة هى المسئولة عن هذه الهجمات تثير الشكوك فى نفس هذه القصة. فكثيرا ما تكون نظريات المؤامرة ثمرة أو نتاجا للتداعيات المتلاحقة لتوافر المعرفة للجميع.

وإلى هنا، فإن هذا التفسير تفسير معرفى بحت: إذ إن نظريات المؤامرة تروِّج أى تنتشر بنفس الطريقة التى تروج بها الاعتقادات الأخرى، وذلك لأن الناس يعطون وزنا لوجهات نظر الآخرين ويعتنون بما لهم من سمعة حسنة. إلا أن من الواضح أن العوامل العاطفية، وليس مجرد المعلومات، تقوم بدور كبير فى نشر الشائعات من كل، بما فيها نظريات المؤامرة. ويصمد كثير من الشائعات وينتشر لأنه يساعد على تبرير أو تقديم تفسير منطقى أو عقلانى لحالة انفعالية سابقة أفرزتها إحدى الحوادث المهمة، كأن تكون وقوع كارثة أو نشوب حرب. وحينما يكون الناس غاضبين أو

فزعين بصفة خاصة، فقد يزداد احتمال تركيزهم على أصناف بعينها من الشائعات وعلى نشرها بين الآخرين. وعندما تطلق الشائعات المشاعر الحادة، يزداد احتمال نشرها وترويجها زيادة بالغة.

ويؤيد البرهان التجريبي هذا التخمين أو التصور في السياق المناظر للأساطير الحضرية أو الأكاذيب الحضرية (٢٦). فعندما تختلق الأساطير الحضرية، والتي تتضمن، مثلا، سقوط راكب موتوسيكل وانفصال رأسه عنه، أو وجود فأر في زجاجة مياه غازية، أو طعام للقطط وضعت عليه – خطأ – بطاقة تقول إنه من سمك التونة، نقول: عندما تختلق الأساطير الحضرية لتتسبب في إطلاق انفعالات قوية كانفعال التقزز، يزداد احتمال أن يتناقلها الناس بينهم. ولعل أشد هذه التجارب كشفا "لحقيقة هذا التصور" كانت تتضمن الانتشار الفعلي للأساطير الحضرية على الإنترنت (٢٧). والنتيجة هي أنه في سوق الأفكار يقوم "الانتقاء الانفعالي" بدور مهم، كما أنه يفسر أمثال تلك الظواهر المختلفة: كحالات الرعب المعنوي أو النفسي من السلوك المنحرف، أو الخوف الشديد "أو الهستيريا" من إيذاء الأطفال، وما تبديه وسائل الإعلام من اهتمام شديد بمصادر للخطر ضئيلة نسبيا كالشغب في الشوارع و"البكتيريا الآكلة للحم" (٢٨). وهذه مشكلة في حد ذاتها تتضمن عملية "التضخيم الانفعالي"، أي الانتقاء السريع للمحتوى الانفعالي وليس للمعلومات (٢٩).

إن تطبيق المفاهيم السابقة على نظريات المؤامرة ينبغي ألا يكون غامضا. فحين تقع حادثة رهيبة، قد يقوم تصديق الناس بأمثال تلك النظريات بتبرير الحالة الشعورية الناجمة عن هذه الحادثة أو بتفسيرها تفسيرا منطقيا أو عقلانيا، تأمل مثلاً نظريات المؤامرة التي تظهر بوصفها رد فعل

للاغتيالات السياسية. يضاف إلى ذلك، أن من المعهـود فـي أمثـال هـذه النظريات أن تحتوى على روايات، أو شائعات، تخلق انفعالات حادة، كانفعال السخط، متسببة بهذا الشكل فى إحداث نوع من الانتقاء الانفعالى التى تنتشر الاعتقادات من شخص لآخر. ولا ريب أن البرهان له أهميته. فطالما وجد نوع ما من العمليات لمواجهة الأكاذيب بالحقيقة، فـإن بالإمكـان تـصحيح الاعتقادات المغلوطة، إلا أنه يحدث فى بعض الأحيان ألا توجـد الظـروف المطلوبة للتصحيح.

وبهدف فهم انتشار نظريات المؤامرة، فإن من الأمور المهمة بـصفة خاصة ملاحظة أن استقطاب الجماعة يكون محتملا بشكل واضح، كما يـتم الإفصاح عنه بشكل ظاهر، وذلك حينما يكون لدى الناس شـعور مـشترك بالهوية ويكونون مرتبطين بروابط التضامن. وهذه ظروف تفقد فيها المزاعم التى يقول بها الأغراب، والذين لا صلة تربطهم بهذه الجماعة، قدرا كبيـرا من المصداقية، وتخفق فى أن يكون لها قدر كبير من التأثير فى تخفيف حدة الاستقطاب.

إن بالإمكان نشوء الإبستمولوجيا الشلاء، أى المعرفة العاجزة ليس فقط بسبب الديناميات المعلوماتية والديناميات التى يحركها تصديق الناس للأفراد من أهل الثقة داخل جماعة معينة، ولكنها تنشأ كذلك بسبب ما يقوم به أعضاء الجماعة من انتقاء ذاتى داخل وخارج وجهات النظر المتطرفة. وبمجرد أن يحدث الاستقطاب أو تنشأ التداعيات المتلاحقة، وتبدأ وجهة النظر المتوسطة للجماعة تتحرك فى اتجاه معين، فإن المتشككين والمؤمنين بالالتقاء فى نقطة فى منتصف الطريق سيميلون إلى الرحيل، بينما يظل المؤمنون إيمانا حـادا باقين فى أماكنهم، أى على اعتقاداتهم. وقد ينكمش الحجم الإجمالى للجماعة،

إلا أن الجماعة قد تلتقط بمعنى تجتذب مؤمنين جددا قد يكونون أكثر التزاما، كما أنه مهما كان الأمر، سيقوم الأعضاء الباقون، و عن طريـــق الانتقـــاء الذاتى، بإبداء المزيد من التعصب وقد ينخرط أعضاء الجماعة فى نوع مـــن الإيمان بفكرتين متناقضتين فى وقت واحد، حيث يقسمون أنفسهم، بـــصورة حسية أو معنوية، وذلك ليحافظوا على معتقداتهم من التحديات الصادرة مـــن الأغراب (٣٠). ونتيجة لذلك، سوف يكون استقطاب الجماعة حادا.

- السخط والتأثيرات الاجتماعية والإرهاب

رأينا أن الأحكام العقابية لها جذورها الممتدة فـــى انفعـــال أو حالـــة السخط، ذلك أن نوعا من "الحث على السخط أو التشجيع على السخط" يكون له تأثير قوى على "تلك الأحكام" (٣١). ومن ثم يكون سخط الجماعة الواقـــع على إحدى درجات مقياس محدد مؤشرا ممتازا للتنبؤ بمـــا "ســـيكون" لهـــذه الجماعة نفسها من أحكام عقابية على نفس المقياس (٣٢). فقد رأينا أن الأفراد الذين يبدأون بمستوى عال من السخط يصبحون فيما بعد أكثر سخطا نتيجـــة للنقاش الجماعى بين أعضاء جماعتهم. يضاف إلى ذلك، أن درجة هذا التغير أو الانزياح تتوقف على مستوى السخط قبل أن يبدأ الأفـــراد الكـــلام مـــع بعضهم. فكلما كان مستوى السخط الأول مرتفعا كلما كان هذا التغير أعظـــم نتيجة للتحاور وتبادل الرأى داخل الجماعة (٣٣).

وهنا توجد نظرية عن الديناميات الاجتماعية التى لا تقتصر على أنها تكمن وراء العقوبات القاسية التى يحكم بهـــا أعـــضاء هيئـــات المحلفـــين، والحشود أو الدهماء، والحكومات، بل تكمن كذلك وراء التمـــرد والعنـــف. فالسخط يفسر هذه الديناميات كذلك. فعندما يوضع الأفراد المتـــشابهون

فى التفكير، والمهيأون للسخط، حين يوضعون معا، فإننـــا نتوقـــع حـــدوث تغيرات لها شأنها وخطورتها. وإنه ينبغى أن يكون مـــن اليـــسير إدراك أن استقطاب الجماعة، والذى يزيد السخط حدة، يقوم بدوره لا محالة فى إحداث العداوات، والنزاع الدولى، والحرب. وإن من السمات المميزة للعـــداوات أن أعضاء الجماعات المتعادية يميلون إلى الاقتصار على الكلام مـــع بعـــضهم بعضا فقط، أو على الأقل يميلون إلى الإصغاء إلى بعضهم بعضا فقط، وهو الأمر الذي يشعل سخطهم ويضخمه، وذلك فى الوقت الـــذى يرســـخ فيـــه انطباعهم عن هذه الأحداث ذات الصلة، أى الأحداث المهمة.

في ضوء هذا، سوف تكون بعض الملاحظات التى نعلق بهـــا على موضوع الإرهاب ذات فائدة، ويرجع ذلك فـــى جـــزء منـــه إلـــى أن الإرهاب يحظى باهتمام مستقل، ويرجع فى جزء آخر إلى أن العمليات التى ينطوى عليها الإرهاب، يمكنها أن تعثر على نظائر لها فى العمليـــات التـــى يغلب عليها الطابع الحميد. فحينما تقع الجماعة أسيرة لسوء الفهم، أو الشك، أو الكراهية، أو العنف، فإن ذلك يكون فى الغالب نتاجا للآليات الاجتماعيـــة التى نناقشها هنا.

إن من الأمور المغرية، أن نتـــصور أن الإرهـــاب نتـــاج للفقـــر المدقع، أو افتقاد التعليم، أو أنه نوع من المرض العقلى. ويتـــضح الآن أن جميع هذه التصورات مخطئة تماما [٣٤]. فليس الإرهابيون فقراء فى العادة، كما أنهم – على وجه العموم – لم ينشأوا فى ضائقة اقتصادية. وهـــم، فـــى أغلب الأوقات، يأتون من العائلات ذات الدخل المتوسط؛ كما أن الإرهابيين لا ينقصهم التعليم [٣٥]. ولا يوجد دليل على أنهم يعانون من المرض العقلى.

وقد رأينا أنه إن كان الهدف هو تمييز الممارسات الاجتماعية المرتبطة بالإرهاب. فالظاهر أن فقدان الحقوق المدنية والحريات المدنية يقدم حلا لهذه المسألة. ويذهب "آلان كريوجر: Alan Krueger" إلى أن الإرهاب أحد أشكال الاحتجاج السياسى، وأن هؤلاء الذين تنقصهم الحقوق والحريات المدنية، وليست لديهم وسيلة أخرى للمشاركة فى الاحتجاج، يلجأون إلى الإرهاب[٣٦]. وقد نضيف إلى وجهة نظر كريوجر، أنه عندما لا تكون الحريات المدنية موجودة، فإن المواطنين لا يكون لديهم – فى حقيقة الأمر – إلا مصدر واحد بارز للمعلومات وهو الدولة، وأن هذا المصدر لا يمكن أن يوثق به. فإن نجح المنشقون أو المعارضون للنظام فى نشر المعلومات، فقد يكون ما يقولونه مصدقا إلى حد بعيد، وإن لم يكن ذلك راجعًا إلا إلى أن المصادر الرسمية لا تستطيع أن تقارعه بشكل يصدقه الناس. يضاف إلى ذلك أن الأمم التى تقمع الحقوق المدنية والحريات المدنية تستحق، وغالبا ما يرى أنها تستحق، معارضة واسعة الانتشار يواجهها بها مواطنوها. فهذه الأوضاع تمثل ظروفا واعدة لظهور الإرهاب.

إن جوهر الأمر هو؛ أن الأمم التسلطية تثمر معرفة شلاء لدى مواطنيها. وعندما يقدم المنتفعون بأعمال العنف تفسيرات لما يحدث ولما يتوجب عمله، فالراجح إلى حد بعيد جدا أنهم يجدون أرضا خصبة، وعلى النقيض من ذلك، فإنه فى دولة ديمقراطية يكون من الأرجح أن يؤدى وجود المعلومات الوفيرة، والتى يصحبها نوع ما من أسواق الأفكار، إلى إزالة خطر الإرهابيين، ولا يرجع ذلك إلا لأن بالإمكان إثبات أن تفسيراتهم غير قابلة للتصديق. إنى لا أرى أن الإرهاب لا يمكن أن يحدث، أو لا يحدث،

فى المجتمعات الحرة، فهو يمكن أن يحدث كما أنه يحدث بالفعل فى هذه المجتمعات. ولكنى أرى فحسب، وفى حالة تساوى الأمور الأخرى، أن احتمال ظهور الإرهاب ينخفض فى المجتمعات الحرة، ولا يرجع ذلك إلى احتمال أن يصبح الإرهاب أقل جاذبية.

إن هذا الدليل بأكمله يوحى بأن الإرهاب نتاج للشبكات الاجتماعية، والتى يعمل داخلها أولئك الميالون للعنف جادين لتجنيد الآخرين[٣٧]. فالقادة الإرهابيون يعملون متاجرين بالاستقطاب أى منتفعين به. فهم يساعدون على خلق جيوب معزولة من الأفراد المتشابهين فى التفكير. وهم يخمدون الآراء المخالفة ولا يسمحون بالخلاف الداخلى، وهم يتخذون خطوات لضمان وجود درجة عالية من التماسك الداخلى. وهم يقيدون نطاق الجماعة التى تقوم بمناقشة الأمور المهمة، كما ينتفعون انتفاعا تاما بالقوى التى تحظى بالاحترام والثقة، وفوق كل ذلك ينتفعون باستغلال الحوافز الخاصة بحث الجماعة على الموافقة والحوافز التى تحثها على الرفض. والأعمال الإرهابية نفسها إنما تحركها هذه القوى والحوافز. والواقع أن المنظمات الإرهابية تفرض ضغوطا نفسية لتسريع الحركة فى الاتجاهات المتطرفة. وهنا تقوم عضوية الجماعة بدور أساسى. ومن ثم فإنه:

"من النتائج الأخرى للتحفيز النفسى حدوث الحدة فى ديناميات الجماعة بين الإرهابيين. فهم يميلون للمطالبة بالإجماع ولا يسمحون بالخلاف. ولأن العدو محدد تحديدا واضحا، ولأنه شرير قطعا، فإن الضغط لتصعيد تكرار القيام بالعمليات الإرهابية وزيادة حدتها يكون حاضرا على الدوام. وتثبط الحاجة للانتماء للجماعة طلبات الاستعفاء من القيام بالعمليات الإرهابية، كما أن الخوف الذى يساور قيادة الإرهابيين

من الإذعان لهذه الطلبات يمنع من قبولها. والحل الوسط مرفوض، كما أن الجماعات الإرهابية تميل نحو المواقف المتطرفة. وفي المجتمعات التي يعرف فيها الأفراد أنفسهم في ضوء عضوية الجماعة كالعائلة، والعشيرة، والقبيلة، قد توجد رغبة للتضحية بالنفس نادرا ما ترى في مكان آخر" (٣٨).

تقوم الإجراءات الروتينية الخاصة بالتدريب، وبصفة محددة، بتعزيز الرسالة الأساسية للتماسك وسط السخط والإذلال. وللإرهابيين في هذا المقام أسلاف كثيرون. فقد حاول هتلر بالمثل أن يخلق عضوية الجماعة، ويحث الحركات نحو أشكال المغالاة والإفراط، وذلك بالتأكيد على ما كابده الشعب الألماني من معاناة وإذلال. فهذه إستراتيجية مميزة لمثيري الحروب والإرهابيين من كل الشرائح، حيث إن الإذلال يشعل السخط. "كان كثير ممن دربتهم القاعدة يشاهدون أفلام فيديو... يوميا باعتبارها جزءًا من إجراءات تدريبهم. فقد كان العرض الذي يستغرق مئات الساعات لمشاهد المسلمين الذين يعيشون في مكابدات رهيبة من شظف العيش – من أطفال الفلسطينيين.. والبوسنيين والشيشان والعراقيين – بأكمله جزءا من إستراتيجية القاعدة في الحث والتحريض" (٣٩).

وفي السياق الخاص بالقاعدة، يوجد جهد واسع الانتشار لربط المسلمين في جميع أنحاء العالم، وذلك عن طريق التأكيد- أولا وقبل كل شيء على أهمية هويتهم المشتركة، وهو جهد يتضمن إظهارنا نحن باعتبارنا ضحايا واستبعاد الآخرين الظلمة. لذلك، فإن أسامة بن لادن "يسعى لإحداث شعور واسع الانتشار بالإذلال والعجز في البلاد الإسلامية. فالمسلمون ضحايا في

كل أنحاء العالم. فى البوسنة، والصومال، وفلسطين، والشيشان والمملكة العربية السعودية. فهو يجعل العالم واضحا فى أعين الأفراد الذين هم – من نواح أخرى – مشوشون، ويمنحهم إحساسا بأن لهم رسالة" (٤٠). وهنا توجد فى هذا الجهد التلقينى سمات تشبه سمات الطوائف الدينية لا تحطها العين. "يكون التدريب العسكرى "فى معسكرات القاعدة" مصحوبا بالتلقين الدينى الفاعل، هذا فى نفس الوقت الذى يتلقى فيه الأعضاء الجدد تيارا متدفقا من الدعاية المعادية للغرب، كما يتم تذكيرهم باستمرار بواجبهم فى خوض الجهاد"(٤١). ويتم بناء الروابط الوثيقة بين الأعضاء داخل نفس بناء هذه الجهود. "إن بناء القاعدة، وهى منظمة كلها من الذكور. يبدو فى ظاهره أنه يشتمل على جماعات صغيرة من الرجال الشباب الذين يحافظون على الروابط القوية بين بعضهم بعضًا، وهي روابط تزداد قوتها حدة وتضاعفا عن طريق السرية التى تتطلبها رسالتهم والخطر الماثل فى مشروعاتهم"(٤٢).

وفى السنوات الحديثة، أصبح صدور الإرهاب من القادة أقل من صدوره عن طريق عملية أكثر تلقائية، تقوم فيها شبكات صغيرة من الأفراد بالمساعدة على إحداث التطرف. ومن ثم يتوجب التمييز بين منظمة "القاعدة المركزية" والحركة الاجتماعية للقاعدة ذات التنظيم الفضفاض. وقد وردت كلمات "مارك سيجمان: Marc sageman" التى قال فيها إن" الحركة الاجتماعية الإرهابية الإسلامية العالمية تتشكل من خلال التنظيم الذاتى التلقائى لمجموعة غير رسمية من الفتيان، وهم الأصدقاء الذين يثقون ببعضهم، ويتم هذا التنظيم بدءا من أسفل إلى أعلى" (٤٣). ومن مفاتيح الحل الأساسية لغموض هذه الظاهرة؛ أن أغلبية قوية من الأفراد المذكورين فى عينة سيجمان كانوا من المغتربين، وأنهم انضموا إلى منظمة إرهابية أثناء

إقامتهم فى دولة لم ينشأوا فيها. والواقع أن أربعة أخماس عينته كانت تحتوى على أفراد إما مغتربين وإما أبناء أو أحفاد المهاجرين المسلمين إلى الغرب. وقد انضموا إلى الحركة الاجتماعية الإرهابية الإسلامية العالمية، إما نتيجة للصداقة أو للقرابة. ولما كانوا قد جاءوا إلى الغرب وهم بالغون صغار السن، فإن كثيرا منهم كانوا يبحثون عن، ويعثرون على، أصدقاء طفولتهم فى بلدهم الجديد وأصبحوا منخرطين فى الإرهاب نتيجة لذلك. وانضم كثيرون غيرهم إلى أقاربهم الذين كانوا قبل ذلك جزءا من هذه الحركة الإرهابية.. والآن، وكما كان من قبل، فإن غيرهم مكوَّنون من "مجموعة من الفتيان قرروا بصورة جماعية أن ينضموا إلى منظمة إرهابية "[٤٤].

وإلى حد كبير، كان الدافع للنزعة الإرهابية الإسلامية هو ذلك التنظيم الذاتى التلقائى الذى يصدر عن تشكيلات غير رسمية من أفراد. وفى معظم الحالات كان هذا الالتزام الأيديولوجى مسبوقًا من الناحية الزمنية بالروابط الاجتماعية، وفى مقدمتها رابطة الصداقة والروابط الأسرية، وتليها رابطة التطرفية السياسية. ويسجل سيجمان اندهاشه الشخصى من "غياب برنامج التجنيد القيادى، أى الذى يبدأ من قمة التنظيم حتى قاعدته فى منظمة القاعدة. إذ لم توجد حملات للبحث عن أعضاء جدد، ولم يوجد التزام مكرس لتجنيد الأعضاء، ولم توجد ميزانية مخصصة لهذه المهمة تحديدا".

وغالبًا ما ينجم الإرهاب عن عملية تتسبب فى إحداث التطرف، وتبدأ بدرجة من درجات السخط أو الثورة المعنوية. فكثيرون ممن يحتمل أن يصيروا إرهابيين يشاهدون، على الإنترنت أو فى التليفزيون، أحداثًا وصورًا تزعجهم إزعاجا شديدا، كقتل الأطفال المسلمين مثلا. ويرى بعض الناس أن ما ينجم عن ذلك من شعور بالسخط يصبح جزءا من حكاية أكبر يؤول فيها

أمر "الذين يريدون أن يكونوا إرهابيين" إلى أن يروا أنفسهم منخرطين فى نوع من الحرب ضد من يتآمرون على الأفراد الذين يشبهونهم. وفى نظر كثير من المغتربين المسلمين فى أوربا، أن هذه الخبرات تتضمن الاستبعاد والتمييز. ويقوم المسلمون من المغتربين ومن الجيل الثانى منهم بمقارنة أنفسهم بنظرائهم من أبناء البلد المضيف. فهم، فى أوربا، لا يحيون فى رغد من العيش مثل شبان البلد المضيف. وهم يفسرون ما يشعرون به من تمييز فى سياق الانتهاكات الأخلاقية التى توجه ضد المسلمين فى مكان آخر، كما أن الفكرة التى تقول: إن ما ينزل بهم من المظالم يعد جزءا من نوع أشد اتساعا من العداء الموجه للإسلام، نقول: إن هذه الفكرة تبدو أشد ضغطا عليهم" (٤٤).

ويستفاد من تفسير سيجمان لهذه القضية، أن الرغبة فى ارتكاب أعمال عنيفة تنبثق نتيجة للشبكات الاجتماعية التى لها نوعان مختلفان هما: المجموعات التى تتلاقى وجها لوجه، والمجموعات الإلكترونية الافتراضية أى التى تتواصل على الإنترنت. وتشتمل المجموعات الأولى على المساجد المتطرفة والمنظمات المتطرفة للطلاب المسلمين، والتى تتألف – عموما– من الأفراد الذين أتوا إلى الغرب للدراسة. وتمارس هذه المجموعات غير الرسمية نسبيا تأثيرا خطيرا. وفى الحالات المتطرفة لهذه المجموعات، تقوم بخلق شعور بنوع من الهوية الجماعية، حيث "يبدأ أعضاؤها المعيشة فى عالمهم الخاص". وتكشف التفاعلات الناتجة عن هذه المعيشة عن شكل حاد من استقطاب الجماعة، حيث يتسبب فى إحداث عملية حب داخلى للجماعة، كما تضمن هذه التفاعلات أن "هذه الجماعة تعمل بوصفها غرفة صدى "فاعلة"، إذ تحث على تصعيد مشاعر الأسى، أى الإحساس بالظلم

ومظاهر الإيمان بالمؤامرة حتى تصل إلى مرحلة الكراهية"[٤٦]. وأعـضاء الجماعة ليسوا – على وجه الدقة – فاقدين للرشد، بل الحقيقـة أن مـصادر معلوماتهم تصبح ضيقة أو محصورة بشكل حاد. فيؤول بهم الأمر إلـى الاعتماد على بعضهم البعض فقط فى المصادقة على المعلومات الجديـدة، كما أن كل شيء يؤمنون به يكون ثمرة للتفاعلات التى تتم داخل منعزلاتهم الخاصة. ومن ثم فإن المعلومات التى تفند اعتقاداتهم تكون منبوذة باعتبارها دعاية صادرة عن الغرب.

ولا ريب أن بعض أعضاء الجماعة يرفضون عملية التحويـل إلى متطرفين. لذلك يتركون الجماعة، مؤكدين بذلك موقفا من مواقـف التوافق أو الانسجام الاختيارى والانتقاء الشخصى الذى فيـه لا يبقـى داخل الجماعة إلا المؤمنون الصادقون. وهؤلاء المؤمنون ينظـرون إلـى أنفسهم باعتبارهم أصدقاء حميميين، بل كعائلة بديلة. وبالنسبة لهم، فإن مـن العسير – بصفة خاصة– أن يفارقوا الجماعة.

وحتى سنة ٢٠٠٤، قامت التفاعلات المباشرة بأداء الدور الأساسى فى إنتاج الشبكات الإرهابية. وفى سنوات أحدث أصبحت للإنترنت أهميـة عظيمة فى هذا الصدد. إذ إن غـرف الدردشـة والمنتـديات المخصـصة لاهتمامات معينة تساعد على إلهام كثير من المسلمين الـشباب أن ينـضموا للحركة الإرهابية الإسلامية. وكما جاء فى وصف أو عرض سيجمان، فـإن دور الإنترنت لم يتم التخطيط له، كما أنه دور لا يمكن ضبطه، بجانب أنـه دور خطير. ونظرا لأن الشرطة بدأت مراقبة أماكن التلاقـى الحـسية، أى أماكن التلاقى المباشر بين الأفراد وخاصة فى أوربـا، فقـد بـدأ الـشبان المتشابهون فى التفكير، وبدأوا يتبادلون الآراء والمعلومـات إلكترونيـا: أى

على الشبكة. وينصب تأكيد سيجمان الخاص علـــى المـــستخدمين الفـــاعلين للإنترنت وليس على المستخدمين السلبيين. فمواقع الشبكة، فى حد ذاتها، أقل أهمية بكثير من "المذكرات"، أو: البلوجز المكتوبة على الإنترنت ومن غرف الدردشة، والتى يساعد فيها تأثير "غرف الـــصدى" علـــى جعـــل الأفـــراد المتواصلين على الشبكة متطرفين. "إن هذه المنتديات الجديدة لها نفس التأثير الذى مارسته المساجد المتطرفة على الجيل السابق للإرهابيين". وهنا تنتشر نظريات المؤامرة، والتى تؤجج السخط، بشكل سريع. وذلـــك لأن "الأفـــراد يبحثون عن، وينتقون غرف الدردشة التى تكون أكثر توافقا مـــع وجهـــات نظرهم ويهجرون الغرف التى يختلفون معها. وبمعنى ما، فإن هؤلاء الأتباع يدلون بأصواتهم مستعملين فى ذلك فأرة الكمبيوتر، أى المـــاوس، وينتقـــون الآراء التى تعجبهم".

وموجز القول، إن التفاعل الذى يتم بين الأفراد المتشابهين فى التفكير يتسبب فى إحداث استقطاب الجماعة، مع ما يصحب ذلـــك مـــن العواقـــب العنيفة. وإن عرض سيجمان لهذا الأمر لجدير بالاقتباس بشىء من التفصيل، حيث يقول:

"إن الوجه الآخر لعمله حب من بداخل الجماعة هو كراهية من هم خارج الجماعة. ولا ريب أن هذا التمييز الموجه ضد من هم خارج الجماعة أمر طبيعى، لكن، فى هذه الحالة، يتحول هذا التمييز إلى الكراهية من خـــلال ديناميات الجماعة التى تمزج السخط المعنـــوى، والخبـــرات الشخـــصية بالتفرقة والاستبعاد الاقتصادى، وذلك بجانب وجود نـــوع مـــن التأويـــل الخاص الذى يربط كل شىء معا فى مزيج خطير. وهنا، تعمل الجماعـــة "باعتبارها غرفة صدى" تفاعلية، حيث تصعد مظـــاهر الـــشعور بـــالظلم

والاعتقادات التى تؤمن بالمؤامرة حتى تصل إلى مرحلة الكراهية. فهم أى أفراد الجماعة يستخفون بالمعلومات التى تفند اعتقاداتهم باعتبارها دعاية صادرة من الغرب. ويعد هذا التقدم تقدما تصاعديا. فالذين يعتقدون أن الجماعة قد بالغت فى شططها فى تطرفها المتزايد، ينحرفون عن مسارها من خلال الانتقاء الذاتى. فلا يبقى إلا المؤمنون الصادقون [٤٧].

إن أوضح وأهم نقطة هنا هى؛ أنه، وكما هو الوضع تماما فى حالة التوحد أو التماهى الإثنى الحاد، أن الإرهابيين يصنعون، ولا يولدون. وبصورة أدق، أن الإرهابيين يصنعون من خلال العمليات الاجتماعية التى يمكن تمييزها، وهى العمليات التى تتضمن استقطاب الجماعة يقينا. إن أهم درس بالنسبة للقانون والسياسة هو؛ أنه إذا استهدفت دولة منع الأنشطة الإرهابية، فإن من الإستراتيجيات الجيدة لذلك أن تمنع ظهور المنعزلات أو الجيوب المكونة من الأفراد المتشابهين فى التفكير. فهؤلاء الذين يصبحون متورطين فى أنشطة إرهابية قد ينتهى بهم الأمر إلى أن يفعلوا شيئا آخر بحيواتهم. فإن تم تمزيق هذه الروابط الوثيقة التى تجمع بينهم، فسيكون الإرهاب أقل احتمالا للظهور إلى حد بعيد.

- التطرفية الراشدة أو العقلانية

هل التطرفيون راشدون أو عقلانيون؟ لقد رأينا أن المتطرفين غالبًا ما تكون لديهم معرفة شلاء[٤٨]، بمعنى أن معرفتهم قليلة جدا، وأن ما يعرفونه يعزز ما يتصورونه. "إن عزلة الأفراد فى جماعة ذات اتصال محدود نسبيًا مع المجتمع الأوسع تولد المعرفة الهذائية، وهى المعرفة التى فى نطاقها يبدأ

الأفراد فى افتراض صدور الأسوأ من هؤلاء الذين لا يعرفونهم، بل حتى يفترضون صدور الأسوأ من هؤلاء الذين لا يتصلون بهم بصورة مباشرة[٤٩]. والهذاء أو البارانويا: مرض عقلى، إلا أنه فى سياق معظم أشكال التطرفية، ينبغى ألا تؤخذ هذه الكلمة بمعناها الحرفى. فكما رأينا كذلك، لا يعانى المتطرفون من المرض العقلى عادة. فهم يفكرون ويعملون وفقا لما تعلموه. وبهذا المعنى، فإنه لا يوجد ما هو غير عقلانى فى التطرفية، وذلك على الأقل من وجهة نظر الأفراد الذين بلوروا اعتقادات متطرفة.

ويعد استقطاب الجماعة، فى جانب كبير منه، ثمرة أو نتاجا لتبادل المعلومات. ولا ريب أن من يتعرضون للاستقطاب بصورة متوالية يسلمون بأن جماعتهم ليست منحرفة أو متحيزة ؛ فهم يخفقون فى القيام بالتصويبات السليمة لدوافعهم وللمعلومات المحدودة لأعضاء الجماعة[٥٠]. إلا أنه ليس من اليسير وصف هذا الإخفاق بأنه شكل من أشكال اللاعقلانية.

وماذا عن أعمال المتطرفين؟ لتقدير هذه الأعمال، نحتاج لمعرفة ما يريده المتطرفون، كما نحتاج للسؤال عما إذا كانت أعمالهم وسيلة جيدة لتحقيق أهدافهم، أم لا. وفى عبارة مؤثرة، ذهب "روبرت بيب: "Robert Pape" إلى أن الإرهاب الانتحارى، أى الذى يفجر فيه المرء نفسه نوع من "المنطق الاستراتيجى" [٥١]. ومفاد دعوى بيب، أن من ينتحرون بتفجير أنفسهم بالقنابل لهم هدف محدد، وهو أن ترغم الدول الديمقراطية الليبرالية على تقديم تنازلات إقليمية. فهو يرى أن المجموعات القيادية التى تنسق الهجمات الانتحارية وتوجهها أبعد ما تكون عن اللاعقلانية. إذ إن أغلب الهجمات الانتحارية "ليست أعمالا منعزلة أو عشوائية يقوم بها متعصبون بصفتهم

الفردية، بل الأصح أنها تحدث فى صورة عناقيد أو تكتلات باعتبارها جزءا من حملة كبيرة تقوم بها مجموعة سياسية منظمة لتحقيق هدف سياسى محدد"[٥٢]. ويتمثل ذاك الهدف، وبصورة نمطية متكررة، فى إرغام الدول على الانسحاب مما يؤمن الإرهابيون أنه وطنهم القومى. وليست مظاهر الزيادة فى الإرهاب الانتحارى نتاجا للغضب المنفلت أو غير الموجه، ذلك أن هذا التفجير يفعل فعله غالبا، ومن ثم يوجد المزيد منه. وقد ساعدت الهجمات الانتحارية على إقناع حكومة سرى لانكا بإنشاء دولة مستقلة لشعب التاميل؛ وإقناع القوات الإسرائيلية بمغادرة لبنان سنة ١٩٨٥، وإقناع القوات الأمريكية والفرنسية بمغادرة لبنان سنة ١٩٨٣، وإقناع القوات الإسرائيلية بمغادرة قطاع غزة والضفة الغربية فى سنة ١٩٩٤، وسنة ١٩٩٥ [٥٣].

وتعد دعاوى بيب مما تختلف فيه الآراء، كما أن فئة التطرفيين أوسع بكثير من فئة مفجرى القنابل، أى الانتحاريين. ولمعرفة ما إذا كان الإرهابيون يعملون بشكل عقلانى أم لا، نحتاج إلى تحديد أهدافهم ولمعرفة ما إذا كانت وسائلهم مرتبطة – على نحو معقول – بتلك الأهداف أم لا. فكثيرا ما يرتكب الإرهابيون والمتطرفون أخطاء كبيرة، وبعض أعمالهم تحبط نفسها، إذ تتسبب فى إحداث حالات موت لأعضائهم أنفسهم وبعائد قليل أو بدون عائد، بل بعائد سلبى. ذلك أنه عندما تصل الأنماط المتشابهة التفكير من الأفراد إلى الأطراف القصوى، أى إلى مرحلة الشطط والغلو، فقد يخطئون خطأ فادحا بتطبيقهم لفلسفاتهم فى الحياة – كأن يستثمرون الاستثمارات رهيبة الحجم [٥٤]، أو يسيئون الاختيارات الإستراتيجية بشأن الحرب والسلام[٥٥]، أو يرتكبون أخطاء فى مسائل الواقع الواضحة. وبيب مشغول بما إذا كان مفجرو القنابل الانتحاريون يختارون وسائل جيدة لتحقيق

غاياتهم أم لا. وبالنسبة للإرهابيين، فإنه غالبا ما تنطوى إحـدى مـشكلاتهم الأساسية على غاياتهم البغيضة، كما أنه يبقى صحيحا أن بعض وسائلهم غير فاعلة بشكل يدعو للسخرية.

وعلى الرغم من ذلك، فإن من الحق، وكما أثبته البرهان، أن بعـض المتطرفين، والذين يشتملون على بعض الإرهابيين، يختارون - بالفعـل - وسائل معقولة لتحقيق أهدافهم. وبالنسبة لمن يريدون تقليل الإرهـاب، فـإن أمامهم مشكلة خاصة تتمثل فى أن تلك الأهداف كثيرا ما تكون "غير قابلـة للتقسيم" (٥٦). فالمتطرفون يريدون السيطرة على الأرض، أو يريدون نـسف الأغراب، أو تأسيس نوع معين من المجتمعات كأن يكون مجتمعا إسـلاميا خالصا. وهؤلاء الذين قد يرغبون فى مساومتهم يفتقدون طرق تقـسيم تلـك الأهداف إلى أجزاء بغية إتاحة الفرصة للتسويات الثابتـة، أى التـى تـدوم وتستقر. ويساعد الاستقطاب على ترسيخ تلك الأهداف وعلى إقناع الأفـراد بأن يشتركوا فيها، إلا أن بعض المتطرفين يتخذون قرارات صـائبة فيمـا يتصل بالحصول على ما يريدون. ومع ذلك، فنادرا ما يكونون لا عقلانيين، حتى لو كانت هذه القرارات مهلكة.

إلا أنه توجد هنا نقيصتان؛ أولا، إن الكائنات الإنسانية تعانى غالبا من التفاؤل غير الواقعى (٥٧)، كما أنه يبدو أن المتطرفين معرضون - بالذات - لهذه المشكلة. شاهد ذلك أن نحو ٩٠ فى المائة من السائقين يعتقـدون أنهـم آمنون بدرجة أكبر من السائق العادى، وأنهم أقل احتمالا للوقوع فى حادثـة خطيرة (٥٨). وهؤلاء الذين يشعلون الحرب يكونون عرضة - فى الغالب - للتفاؤل غير الواقعى بالمثـل (٥٩). إن مـن المعقـول أن نـذهب إلـى أن المتطرفين، والإرهابيين بالذات، لديهم إحساس متـضخم ببـشائر نجـاحهم

مستقبلا. ثانيا، وكما رأينا من قبل، فإن الكائنات الإنسانية تستعمل أسلوب "تخمين المنافع المتوقعة" (٦٠)، والذى يعنى أنهم يقومون بتقدير الاحتمالات عن طريق التساؤل عما إذا كانت الشواهد الدالة على هذه التوقعات ترد على الذهن بسهولة أم لا. وبناء على ذلك فإن تحديد ما إذا كان الأفراد سيشترون صكوك التأمين الخاصة بالكوارث الطبيعية، هو أمر يتأثر تأثرا كبيرا بخبرات الأفراد الحديثة العهد (٦١). فالأفراد يبدون "تحيزا للمنافع المتوقعة" أى: ترجيحا لوقوع المنافع أو تحقق الآمال عندما تجعلهم الوقائع الحديثة يضخمون هذه الاحتمالات، ويبدون "تحيزا للنذر"، أى ترجيحا للمخاطر والأضرار عندما يجعلهم غياب الوقائع الحديثة يقلصون من حجم هذه الاحتمالات. ويبدو أن الإرهابيين يتشبثون بالنجاحات الفعلية أو الظاهرية، حيث يضفون عليها معنى غير مبرر بأن الأعمال العنيفة بالذات أقرب ما تكون للنجاح فى تحقيق أهدافها.

ينبغى أن يكون واضحا أن التفاؤل غير الواقعى، وترجيح تحقق الآمال يمكن أن يمثلا مزيجًا مفضيا لحدوث الكوارث، من وجهة نظر الإرهابيين ومن وجهة نظر الضحايا. وغالبًا ما يرتكب الإرهابيون أخطاء واضحة، حتى من وجهة نظر من ينشغل الإرهابيون بشأنهم. بيد أن الأمر الطيب هنا هو أن المتطرفين يحاولون عادة أن يعثروا على أفضل وسيلة لتحقيق غاياتهم. لذلك لا يمكن لأى محاولة لفهم المتطرفين أو لمنع أعمالهم من الحدوث أن تنجح إذا كانت ستعاملهم باعتبارهم أفرادًا لا عقلانيين.

اشتمل هذا الفصل على بعض الموضوعات الكبيرة التى عولجت فى مساحة ضيقة، وسيكون من المفيد أن نوجز ما جاء فيه من القضايا الرئيسية. عندما تصل الجماعات إلى حدود الشطط والغلو، فعادة ما يكون ذلك راجعا

إلى أن الأفراد المتشابهين فى التفكير يقدرون على التجمع، حيث ينتقلــون – فى أغلب الأحوال – من إحساس مبدئى بالقلق حتى يصلوا إلى السخط، ثــم ينتهى بهم الأمر إلى العمل. وفى بعض الأحيان، يكشف الاســتقطاب عــن وجود مجموعة من المعتقدات والرغبات المكبوتة. وفى ســياق الحركــات الاجتماعية المطالبة بالحقوق، عادة ما تكون هــذه المعتقــدات والرغبــات المكبوتة جاهزة للبدء بها. وعندما يسعى الناس فى الحصول على حقــوقهم، فإن بإمكان استقطاب الجماعة أن يكون أمرا مرغوبا فيه بدرجة عالية. فقــد ساعد هذا الاستقطاب حركة إبطال الرق فى الولايات المتحدة. وساعد كذلك فى الإفضاء إلى انهيار التفرقة العنصرية فى دولة جنوب أفريقيــا وإنهيــار الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى سابقا. وتعد حالة المصابين بــالعجز البــدنى بالذات حالة كاشفة، وذلك لأن هذه الفئة الكبيرة تحتــوى علــى مجموعــات متنوعة كالمكفوفين، والصم، والمقعدين الــذين يــستعملون الكراســى ذات العجل، وذوى الضعف المعرفى، والمرضى العقليين. وقد كانت الحركــات المطالبة بالحقوق للمصابين بالعجز البدنى قوة لها أهميتها عند بعــض هــذه الجماعات، ولكن ليس عند غيرها، وتساعد الديناميات الاجتماعية على تفسير سبب ذلك.

تختلف الكائنات الإنسانية عن بعضها بعضًا على أنحــاء لا تحــصى، وعندما يتم التأكيد على بعض أوجه الاختلاف، فإن ذلك يكون راجعــا فــى العادة إلى استقطاب الجماعة. وعندما تصير النزعة الإثنية شديدة البــروز، فإن الضغوط الصادرة من الشخصيات ذات التقدير والاحترام تقــوم بــدور كبير، وعندما يترابط الأفراد الذين تجمعهم صلات إثنية مع بعضهم البعض ويعاقبون من لا يترابطون معهم، فإن الظروف الخاصة بالتأثين، أى التركيز

على الاعتبارات الإثنية تكون فى موقعها الملائم. والقضية الأساسية فى هذا المقام هى أنه فى كثير من الدول– بما فيها العراق ويوغوسلافيا السابقة – بدا الأمر وكأن كثيرا من المراقبين يتصورون أن الأحقاد القديمة، وليست الضغوط الجديدة، هى القوة المؤثرة. ونظرا لأنه لم يكن يوجد أحد – تقريبا – على قيد الحياة عندما أفرزت هذه الأحداث تلك الأحقاد القديمة، ونظرا لأن الحقد لا يوجد فى الحامض النووى لأى إنسان، أى لا يورث بيولوجيا، فإن هؤلاء المراقبين كانوا مخطئين تماما. ذلك أن مظاهر التوحد الإثنى ليست مختلفة كثيرًا عن غيرها من المنتجات الثقافية، كالموسيقى، والأدب، والأفلام السينمائية. ويمكن للأمور، ونتيجة لتعرضها لنوع ما من الدفع، أو الضغط، أن تصبح مختلفة اختلافا جذريا عما كان من شأنها أن تصير إليه لولا ذلك الدفع أو الضغط.

وسواء أكان الإرهاب يتم تنسيقه بإحكام على يد القادة أم أنه عمل أكثر تلقائية، فإن هؤلاء الجناة ليسوا – على الإطلاق – فقراء، ولا ذوى تعليم متدن، ولا هم مرضى عقليون، ولا هم مصابون بصدمة نفسية فسلوكهم ثمرة للشبكات الاجتماعية واستقطاب الجماعة. وهنا يوجد درس كبير، ليس فيما يتصل بالإرهاب وحده، بل فيما يتصل كذلك بالجرائم وأعمال الهيجان والشغب من جميع الأصناف. وكما سنرى، يقدم هذا الدرس مفاتيح لما ينبغى عمله على سبيل الوقاية من هذه العواقب.

الفصل الرابع

الوقاية من التطرف

افترض أن أمة تسعى للوقاية من التطرف غير المبرر. فما الذى ينبغى عليها أن تفعله؟ أتخيل هنا ثلاث إجابات محتملة. الأولى، والتـى يفـضلها كثيرون من ذوى النزعة المحافظة، هى "النزعة التقليدية". وتتضمن الإجابة الثانية "النزعة العواقبية". وتتضمن الإجابة الثالثة، وهى إجابة مشهورة فـى مرحلة تأسيس الدولة فى تاريخ أمريكا، فكرة "الكوابح والتوازنـات"، وهـى الفكرة التى من عناصرها الأساسية وجود نظام لحرية التعبير، ووجود نوع من اختلاف الآراء. وبإمكاننا أن نربط هذه الإجابات الثلاث بثلاثـة أفـراد: "إدموند بورك: Edmund Burke"، وجيرمـى بنتـام: Jermmy Bentham"، و"جيمس ماديسون: James Madison". وأنا فى هذا الفصل أكـرس القـدر الأعظم من اهتمامى لفكرة الكوابح والتوازنات، وذلك لأن هذا الاتجاه يبـدو أشد هذه الاتجاهات إثارة للاهتمام، كما أنه الأكثر نفعًا فى كل مـن الحيـاة العادية والمجال السياسى.

- النزعة التقليدية

بالنسبة لهؤلاء المشغولين بشأن التطرف، يكون طبيعيًا أن نركز على المقالة الرائعة التى كتبها "بورك: Burke" عن الثورة الأمريكية، والتى يمكن فهمها باعتبارها تحذيرًا مستدامًا من نفس هذه العمليات التى أقوم باستكشاف معالمها فى هذا الفصل. فعن طريق تأكيده على الحاجة إلى العناية بالتقاليـد،

أبدى بورك اهتمامًا شديدًا بالمشاعر الشعبية أو الجماهيرية بخطورة أن تقوم جماعة من الناس، بعد أن يستثير أفرادها بعضهم بعضًا وبعد أن تثيرهم فكرة أو أخرى، بالمضى فى اتجاهات متطرفة.

تتمثل الدعوى المحورية لبورك فى أن "علم تكوين دولة ديمقراطية، أو إصلاحها، يشبه أى علم تجريبى آخر، فلا يتم تعلمه بالبداهة" (١). وبقوله بهذا الرأى، فإن بورك يعارض الأفكار والتجريدات النظرية فى معالجة موضوع التقاليد، وهى الأفكار التى طورها أصحاب التفكير الفردى، والتى صاغتها عقول كثيرة على امتداد فترات طويلة من الزمان. وفى فقرة هى أشد فقرات مقالة بورك حيوية، يكتب بورك قائلاً :

> **"كنا فى عهد الثورة الفرنسية نتمنى – ونتمنى الآن الأمنية نفسها – أن نستلهم كل ما لدينا من تراث ورثناه من أسلافنا. لذلك يعد علم السياسة – فى حد ذاته – علمًا عمليًا جدًا ، كما أن المقصود منه هو تحقيق أمثال هذه الأهداف العملية، وهو الأمر الذى يقتضى وجود الخبرة، بل يقتضى وجود الخبرة التى تزيد على كل ما يمكن أن يحصله أى شخص فى حياته كلها مهما بلغ احتمال كونه حكيمًا دقيق الملاحظة. وإن الأمر ليحتاج إلى حذر لا نهائى حتى يمكن لأى إنسان أن يغامر بهدم صرح وهو صرح التراث والتقاليد قام على امتداد العصور، بتحقيق الأهداف المشتركة للمجتمع بأى درجة مقبولة من درجات التحقيق، أو أن يغامر بإنشاء هذا الصرح مرة ثانية، وبدون أن تكون لديه النماذج والأنماط ذات المنفعة المتفق عليها ماثلة أمام عينيه"(٢).**

بهذا الشكل يؤكد بورك على ضرورة الاعتماد على الخبرة، وبصفة خاصة، على خبرة الأجيال. وهو يعترض على "هدم الصرح" الذى يمثل التراث والتقاليد، وهو تصور مجازى لاعتراضه على المشاعر الشعبية التى تعتبر "محصلة النزعة الأنانية والأفكار الضيقة النطاق"(٣). ولنفس هذا السبب يقدم بورك مصطلح "التحيز" بوصفه مصطلحًا يدل على الاتفاق المشترك بين الناس والقائم على الحماسة، مشيرًا إلى أننا "بدلاً من أن ننبذ كل ما لدينا من أشكال التحيز القديمة، نتعلق بها بدرجة بالغة جدًا " (٤).

لماذا، وعلى وجه الدقة، تروق لبورك فكرة وجود أشكال التحيز؟ إن الكلمة فى حد ذاتها تزودنا بنوع من الإجابة. فالتحيزات تقوم بعملها قبل إصدار الحكم، فهى تزود الناس بإجابات قبل أن يتفكروا فى أمرهم، وبما يحتوى عليه هذا التفكر من الأشكال التى يمكن أن توجد وتنتشر بين أعضاء الجماعة. فإن كانت التحيزات راسخة فى الممارسات والأعراف القديمة العهد، فلن يكون مدهشًا لنا أن نجد أن بورك يثق بها. وبتأكيده على الأهمية الشديدة للاستقرار الاجتماعى، يضيف بورك إشارة إلى "شرور التحول والتقلب الاجتماعيين، وهى أسوأ عشرة آلاف مرة من شرور العناد والتحيز الأعمى عمى مطبقًا " (٥).

ومن ثم، فإن دعوى بورك تذهب إلى أن المواطنين العقلاء، والمدركين لأوجه قصورهم، سوف يعطون قدرًا كبيرًا من السلطة لتقاليدهم وتراثهم. "إننا نخشى من ترك الناس بحيث يعيش كل واحد منهم، ويتعامل مع غيره، بالاعتماد على رصيده الشخصى من العقل"، وذلك لأننا نرى أن رصيد أى شخص بمفرده من العقل "رصيد ضئيل، كما أننا نرى أن من

الأفضل للأفراد أن يستفيدوا من رصيد الخبرة المتوافر فى المصرف الشامل ورأس المال المتوافر للأمم والأجيال. وإن الكثيرين من أهل الحكمة والنظر هنا يقومون، بدلاً من استكشاف معالم التحيزات العامة، يقومون بتوظيف حكمتهم وعلمهم فى اكتشاف الحكمة الكامنة فى طوايا نفوسهم" (٦).

من المؤكد أن النزعة التقليدية يمكنها أن تعمل بمثابة كابح يحد من الحركات المتطرفة. فعندما يحترم أعضاء الجماعة ما سبق للناس أن فعلوه من قبل، فإنه من غير المحتمل أن يرفضوا ذلك، ويفضلوا عليه ما ينبثق من خلال المناقشات الداخلية بينهم. والذين يحترمون التقاليد هم أبعد الناس احتمالاً لأن يستقطَبوا. إلا أن النزعة التقليدية، بوصفها إجابة كاملة عن المشكلات التى قدمت وصفًا مجملاً لها فى هذا الفصل، تعانى من صعوبات شديدة. فقد تصمد التقاليد وتظل باقية ليس لأنها تقاليد جيدة، ولكن بسبب نفس أنواع التأثيرات الاجتماعية التى تتسبب فى إحداث استقطاب الجماعة. والأهم من ذلك، أن التقاليد تنقل المعلومات، وقد لا يكون سبب استماع الناس لها أنهم يؤمنون، وبصورة مستقلة، أنها تقاليد جيدة، ولكن لأن الأفراد الآخرين يبدو أنهم يؤمنون أنها تقاليد جيدة. وعلى ذلك، قد يتبع الناس التقاليد حتى على الرغم من أن لديهم أسبابًا أو مبررات مستقلة تجعلهم يعتقدون أن هذه التقاليد رديئة. ويوجد فى المواقع التجريبية برهان قوى على أن الناس سوف يتبعون التقاليد التحكمية نفسها، مخفقين فى حشد أحكامهم للتأثير فيها (٧). وتتمثل المشكلة الأساسية فى أن التقاليد تنقل المعلومات، وأن الناس قد يتصورون أن هذه المعلومات أكثر منفعة، أو أكثر كشفًا للحقائق، مما هى عليه بالفعل.

فى ظاهرة منفصلة، قد يعرف الناس أن التقاليد سيئة، وقد تكون ثقتهم بأحكام الجيل الماضى ثقة ضئيلة، إلا أنهم على الرغم من ذلك قد يلتزمون بالممارسات والأعراف التى كانت موجودة فى الماضى نتيجة للضغوط التى تمليها عليهم رغبتهم فى احترام الناس لهم، وهى الضغوط التى تتراوح بين الرفض والنبذ من المجتمع والعقوبات الرسمية وغير الرسمية. وغالبًا ما يواجه هؤلاء الذين ينحرفون عن التقاليد أحكامًا اجتماعية صارمة [٨]. وعلى أية حال، لا يوجد مبرر، من الناحية العقلية المجردة للاعتقاد بأن الممارسات القديمة العهد أفضل دائمًا من البدائل الأخرى التى يقترحها المصلحون أو حتى المتطرفون [٩].

الأهم من ذلك، أن الثورة الأمريكية لم تكن ثورة ملتزمة بالتقاليد. فالبيان الفيدرالى رقم ١ يطرح اعتراضًا مباشرًا على فلسفة بورك المؤيدة للتمسك بالتقاليد بما ورد فيه من قوله: "لقد لوحظ مرارًا أنه يبدو أن أبناء هذا الوطن قد استأثروا، لما لهم من سلوك وبما قدموه من مثل تُحتذى، بفضيلة اتخاذ القرار بشأن الإجابة عن السؤال المهم: عما إذا كانت مجتمعات البشر قادرة حقًا، أم غير قادرة، على إقامة حكومة صالحة من خلال التفكير المتعمق وحرية الاختيار، أو ما إذا كان مقدرًا عليهم للأبد أن يعتمدوا فى قوانينهم السياسية على المصادفة والقوة الجبرية". وإن هذا التضاد القائم بين "التفكير المتعمق وحرية الاختيار" من جانب، و"المصادفة والقوة الجبرية" من جانب آخر ليوحى بوجود انتقاد حاد يوجه إلى من يقدرون قيمة التقاليد باعتبارها مستودعات للحكمة.

تمعَّن كذلك، فى كلمات جيمس ماديسون، وهو يكتب قائلاً فى شأن أمريكا فتية جدًا:

"أليس مما يفخر به أبناء أمريكا أنهم، فى نفس الوقت الذى يبدون فيه الاحترام للآراء التى كانت سائدة فى العصور السابقة وللأمم الأخرى، لم يعانوا من مرض التبجيل الأعمى للعصور القديمة، أو لما فيها من العادات الاجتماعية، أو لما شاع فيها من أسماء المشاهير، حتى يكونوا هم المسيطرين على الأفكار والاقتراحات التى تنبع من حسن إدراكهم، وعلى المعرفة المكتسبة من وضعهم الخاص بهم، وعلى الدروس المستمدة من خبرتهم التى عايشوها بأنفسهم؟"(١٠).

فى هذا البيان الذى قدمه ماديسون، والمضاد للنزعة التقليدية بصورة واضحة، "حقق الأمريكيون ثورة ليس لها ما يناظرها فى سجلات المجتمع البشرى. فقد شادوا صروح أنظمة الحكم التى لم يكن لها مثال يُحتذى على وجه الأرض"(١١).

تعتبر هذه الفقرات، بصورة عامة، فقرات بلاغية تؤثر فى النفوس، إلا أنه يوجد نزاع ما فى الخلفية، وهو نزاع يقلب فلسفة بورك رأسًا على عقب. وقد أدرك توماس جيفرسون هذا النزاع، وذلك باعتراضه القائم على أن بعض الناس "ينسبون إلى أبناء العصر السابق حكمة أعلى من مستوى البشر". وكان رده على هذا التصور، وهو نوع من التوبيخ، أن عصر المؤسسين "كان شبيهًا جدًا بالحاضر، لكنه كان يدوّن الخبرة التى يمتلكها للحاضر، كما أن أربعين سنة من الخبرة بنظام الحكم تساوى قرنًا من قراءة الكتب" (١٢). يميل الآخذون بفلسفة بورك إلى الاعتزاز بخبرة من مضى على موتهم وقت طويل، ولكنهم فى نظر جيفرسون كانوا يملكون رصيدًا من

الحكمة أقل بكثير مما نملكه نحن. وفى نفس المسار الفكرى، يؤكد "باسكال: "Pascal" - أننا نحن القدماء، فيقول: "هؤلاء الذين نسميهم القدماء كانوا فى الحقيقة جددًا فى كل الأمور، كما أنهم شكلوا، وعلى نحو ملائم، طفولة الجنس البشرى، ونظرًا لأننا ضممنا إلى معرفتهم خبرة القرون التى أتت بعدهم، فلن نعثر، إلا فى أنفسنا نحن، على تلك العراقة التى نبجلها فى الآخرين"[١٣].

وهاجم جيرمى بنتام الحكمة التى عرف بها القدماء مستعملاً تعبيرات مماثلة لتعبيرات باسكال، مؤكدًا أن هؤلاء الذين يعدون قدماء، إنما هم، وبمقتضى هذا المعنى النسبى، شباب صغار السن جدًا [١٤]. وقد أقر بنتام أن كبار السن لديهم خبرة أكثر مما لدى صغار السن، إلا أنه أكد على أنه "فيما بين جيل وجيل، فإن عكس هذا هو الحق" [١٥]. والواقع، "أن حكمة العصور التى تسمى عصورًا قديمة" هى "حكمة المهد" [١٦]، الذى يرقد فيه الطفل الوليد. واستنكر بنتام "ما يسود التأبين المتحيز لصالح الموتى" كما استنكر أيضًا ذلك الميل للاستخفاف بالجيل الحالى، وهو الجيل الذى لديه رصيد من الحكمة أكبر مما كان لدى "الأجيال التى لم تتلق تعليمًا ولم تكن لديها خبرة". وانظر، فى هذا الصدد، الهجمات التى وجهت للقضاء على الممارسات والأعراف الراسخة فى بعض المجالات التى منها، مثلاً ، مجال التمييز القائم على أساس العرق، والتمييز على أساس الجنس، والتمييز على أساس العجز البدنى. فكما رأينا، نجد أن الحركات الاجتماعية التى أدت إلى شن هذه الهجمات، قد استفادت فائدة عظيمة من ظاهرة استقطاب الجماعة. وفى مجالات كثيرة، تعد النزعة التقليدية قيدًا مهمًا على الحركات الاجتماعية

العنيفة أو المتطرفة غير المبررة، ولكن يحدث فى أغلب الأحوال أن تكون التقاليد نفسها ثمرة لنفس أنواع القوى التى تقود الناس للسير فى اتجاهات سيئة أى عنيفة أو متطرفة.

- تدبر العواقب

من الاتجاهات المتعلقة بالنظر فى المخاطر المرتبطة بظاهرة استقطاب الجماعة اتجاه يدعو للقيام بالتشخيص الدقيق للعواقب المترتبة على سلوك مسار أو غيره من مسارات الفعل، ومن المهم إدراك أن هذا الاتجاه، والمرتبط ببنتام، قد يكبح، أو لا يكبح، التطرف. وجوهر الأمر هنا هو أن تشخيص العواقب قد يعزز الرأى المنادى باتخاذ خطوات حادة أكثر من أن يقوض أساسه. إلا أنه يوجد على الرغم من ذلك قيد مهم فى هذا الصدد، وهو نوع من الكوابح التى يفرضها الواقع. فنزعة تشخيص العواقب وتدبرها تبشر بالتحكم فى الحركات الاجتماعية المتطرفة - أو تبشر فى هذا الشأن بحدوث الحماسة لبقاء الوضع الراهن - وذلك عن طريق وضع هذه الحركات تحت اختبارات معينة. ويأمل الآخذون بنزعة تشخيص العواقب فى أن يتمكن التشخيص الضرورى للعواقب من تخفيف حدة النزاع الاجتماعى، والحد من المخاطر المرتبطة بظاهرة استقطاب الجماعة عن طريق مطالبة الأفراد بالاشتغال بالحقائق بدلاً من المخاوف المتوهمة (١٧).

افترض، مثلاً ، أن الناس فى حى سكنى ما أصبحوا فى خوف مستمر من التعرض لخطر معين، كخطر الجريمة، أو خطر المبيدات الحشرية، أو خطر الحقول المغناطيسية الكهربائية التى تطلقها الأجهزة الكهربائية. فإن

كان بعضهم يثير مخاوف البعض الآخر، فقد يكون من المفيد أن نتساءل: هل الناس معرضون فعلاً لخطر جسيم؟ وما الذى نعرفه، على وجه الدقة، عن حجم هذا الخطر؟ وما الذى نعرفه عن أعباء محاولة تقليل هذا الخطر؟ فإن بإمكان أسئلة من هذا القبيل أن تحفظنا من ظهور وضع تقوم فيه ظاهرة غرفة الصدى بإحداث الخوف غير المبرر من المخاطر التى لا تستحق فى الواقع الانشغال بها.

فى مجال العمل الحكومى، يشتمل أحد الأمثلة الخاصة بتلك الظاهرة على معارك فكرية حول دور الردع فى القانون الجنائى. إذ يرى الكثيرون أنه ينبغى علينا أن نطرح أسئلة جادة عن الأثر الرادع لبعض العقوبات، كعقوبة الإعدام، أو أشكال الحظر على حيازة الأسلحة النارية، والسجن مدى الحياة لمن ارتكبوا ثلاث جنايات. وغايتهم من ذلك أنه إن طرحنا أسئلة عن هذه القضايا، فسوف نتمكن من تخفيف حدة بعض النزاعات عن طريق الانشغال بالحقائق بصورة دقيقة[١٨]. فإن استطعنا أن نتفق على أن الرأى المؤيد لتقييد حيازة الأسلحة النارية يجب أن يتوقف على ما إذا كان فاعلاً فى تقليل الجريمة، فإننا قد نتمكن حينئذ من تهدئة بعض ما لدينا من اعتراضات على هذا الرأى. وإن كانت عقوبة الإعدام لا تردع المجرم عن جريمته، فربما نستطيع الاتفاق على إلغاء عقوبة الإعدام. وفى أقل تقدير، فإن هذا هو ما يرجوه الذين يسعون لإلقاء ضوء على قضية الردع.

وفى سياق اللوائح الحكومية بما لها من قوة القانون، وهو السياق الذى يتم فيه استقطاب العملية الديمقراطية غالبًا بشكل ردىء، يمكننا أن نعثر على شواهد كثيرة. خذ، مثلاً ، موضوع الضوابط التى حددتها اللوائح الحكومية

لنسبة الزرنيخ فى مياه الشرب. فبعض الناس لا يزعجهم وجود مستويات ضئيلة جدا من التعرض للزرنيخ، كأن يوجد منه، مثلاً، ٥٠ جزءًا فى كل بليون جزء. فهم يعتقدون أن أمثال تلك المستويات الضئيلة قد لا تستحق أن ينزعج منها المجتمع، أو لا تستحق أن تنفق فى معالجتها مبالغ هائلة من المال. وهم يرون أنه ينبغى على الحكومة أن تولى اهتمامها للمشكلات الأشد خطورة. ويرى آخرون أن الزرنيخ نوع من السموم الضارة حتى فى حالة الجرعات المنخفضة، كأن تكون مثلاً ٣ أجزاء لكل بليون جزء. يمكننا بسهولة أن نتخيل موقفًا يصبح هذا الاختلاف حادًا جدًا ، وذلك لأن الأفراد المتشابهين فى التفكير يتحدثون فى معظم الأحوال مع بعضهم بعضًا، متسببين بذلك فى إثارة أنفسهم إلى أن يصلوا إلى مرحلة الخصومة للمعارضين لهم، والواقع أن معركة من هذا القبيل قد نشبت حول موضوع ضبط نسب الزرنيخ فى سنة ٢٠٠٠ (١٩).

ولمن يهتمون بالعواقب، فإن أفضل طريقة يتبعونها هى؛ أن يقوموا بتقدير النتائج الفعلية للتعرض للمستويات المنخفضة من الزرنيخ، وأن يدركوا قدر المبالغ التى يتكلفها تقليل تلك النتائج. فما احتمال خطر الإصابة بالسرطان فى حالة وجود ٥٠ جزءًا لكل بليون جزء؟ هل هذا الاحتمال هو واحد فى المليون؟ وإذا خفض المستوى المسموح به إلى ٣ أجزاء لكل بليون جزء، فكم عدد الحيوات التى سوف يتم إنقاذها فى كل سنة؟ وكم يتكلف هذا التخفيض من المبالغ؟ فهل ستزداد قيمة فواتير المياه التى يدفعها الناس بصورة كبيرة، أم ستزيد بصورة طفيفة؟ قد تمكننا الإجابات عن هذه الأسئلة كذلك من العثور على أرضية مشتركة للاتفاق بين الآراء المتعارضة. وفى

هذه العملية، تبدو هذه الأجوبة، وهى تقدم نوعًا من الضبط والتحكم فى أخطار متنوعة، بما فيها خطر قوة جماعات المصالح، وخطر البلبلة والتشويش، وخطر استقطاب الجماعة. فإن كانت بعض الجماعات تنادى بعدم فرض ضوابط على نسب الزرنيخ فى الماء وتنادى جماعات أخرى بفرض ضوابط صارمة، فقد يزودنا تحليل لعواقب كلا الرأيين بحل مفيد، وذلك إن استطاع هذا التحليل أن يقوم، فى أقل تقدير، بتضييق نطاق الاختلاف المعقول (٢٠). وإن أصرت أنماط بولدرية، أى أفراد يشبهون فى تفكيرهم تفكير أهالى مدينة بولدر على ضرورة حظر بعض المواد، وأصرت أنماط من الناس، يشبهون سكان مدينة كولورادو سبرنجز، فى تفكيرهم على أن عدم الحظر هو الاتجاه السليم، فقد يقوم تشخيص دقيق للنتائج الفعلية لكل من الحظر والإباحة بدور الحكم، أو بدور البرهان الذى يدل على أنه ليس أى من هذين الرأيين محقًا تمامًا. فى ضوء هذه الاعتبارات أمعن النظر فى الخلاف المستقطب استقطابًا شديدًا ، والذى يدور حول التغيير المناخى. فربما أمكن لتشخيص دقيق للعواقب المترتبة على هذا التغير - والتى تشمل الانبعاثات الغازية للدفيئة أو للصوبة والجهود المبذولة للتقليل من هذه الانبعاثات - أن يقدم فائدة عظيمة لتخفيف حدة هذا الخلاف.

ولا ريب أنه يحدث فى بعض المجالات أن يكون بإمكان الخلافات التى تدور حول العواقب أن تعكس ظاهرة استقطاب الجماعة بدلاً من أن تخفف من شدتها. فقد تجد بعض الجماعات، وتزعم بإصرار، أن المنافع التى نجنيها من اتخاذ خطوات معينة منافع قليلة، وأن التكاليف مرتفعة؛ وقد تؤكد جماعات أخرى على النتائج المعاكسة. ففى تاريخ إصدار اللوائح الفيدرالية،

يكاد يكون من الأمور النادرة أن نرى أصحاب الآراء المختلفة يستشهدون بآرائهم المتعلقة بالعواقب تأييدًا منهم للنتائج المختلفة عن بعضها اختلافًا حادًا. فقد تنتهى بعض الجماعات، والمكونة فقط من أشخاص متشابهين فى التفكير، أو يكون معظمهم من هذا النمط، إلى أن تحليل العواقب يبرر بوضوح اتخاذ نوع ما من أنواع الضبط والتنظيم، وذلك بينما قد تنتهى جماعات أخرى إلى أن نفس هذا التحليل يبرر عدم اتخاذ أى إجراء على الإطلاق. ومن المؤكد أن النزاعات التى تدور حول التغير المناخى تعكس صورة الخلافات التى من هذا النوع بالتحديد [٢١] ولا ريب أن ظاهرة استقطاب الجماعة عنصر مساهم فى تلك النزاعات. إلا أنه حق فى مجال التغير المناخى، والذى تظل أسئلة كثيرة فيه بلا أجوبة، فإن بإمكان تحليل العواقب أن يفرض نوعًا من الانضباط القيم. ويوحى هذا التحليل، مثلاً، بأن التراخى الذى تبديه حكومات العالم إزاء التغير المناخى أمر لا يمكن تبريره أو الدفاع عنه، كما أنه يوحى بأنه توجد حدود لمدى ما ينبغى علينا عمله بصورة حاسمة لمنع الانبعاثات الغازية فى المستقبل القريب[٢٢].

إن المعارك الفكرية الحادة بشأن السلامة المهنية، وحقوق أصحاب العجز البدنى، والأمن القومى، والعمل الإيجابى - والتى يمكن اختصارها فى كلمة القضايا المسببة للاستقطاب - من الممكن إلى حد بعيد تخفيف سخونتها نوعًا ما عن طريق وجود تصور أفضل لعواقب اتجاه ما أو اتجاه آخر. وبطبيعة الأمر، يكون من الأرجح بصفة خاصة، وفى تلك المجالات، أن الاستقطاب سيتكرر حدوثه، وليس تقليله إلى الحد الأدنى، وذلك لأن الجماعات المختلفة تحاول أن تحكم على العواقب بتقديرات مختلفة. إلا أن

الأمل الكبير الذى يرجى من هذا البحث هو؛ أن يكون بالإمكان تضييق نطاق الاختلاف المعقول، وأنه عندما يتخذ الأفراد مواقف راسخة قوية، فإن ذلك سيكون بعد انهماكهم فى بحث النتائج الفعلية، ولن يكون مجرد ثمرة من ثمرات التفاعلات الاجتماعية بين أفراد الجماعة الواحدة.

- الكوابح والتوازنات

تنبثق إجابة ثالثة، وربما كانت أعظم الإجابات قيمة، من تشخيص للمرحلة التاريخية لتأسيس أمريكا. ولفهم تلك الإجابة، فإن من المهم أن نعرف أن مرحلة التأسيس هذه شهدت نزاعًا فكريًا نادر المثال دار حول طبيعة المؤسسات الجمهورية. ما أنواع المؤسسات التى تناسب الأمة الفتية على أفضل وجه؟ وقد دار النزاع حول هذا السؤال بصفة جزئية عن طريق الرجوع إلى آراء المفكر السياسى مونتسكيو، والذى كان مصدرًا يوقره كل الأطراف المتنازعة، كما كان شخصية مهمة محورية فى تطور فكرة الفصل بين السلطات.

وكان المناهضون للفيدرالية، وهم الخصوم الفصحاء للدستور المقترح، متذمرين من أن من صاغوا هذه الوثيقة قد خانوا مونتسكيو بمحاولتهم خلق حكومة مركزية قوية، وهى حكومة ليس من المحتمل أن تقدر على إدارة أمة متنوعة المشارب. وقد تحدث" بروتس: Brutus"، وهو مناهض الفيدرالية يتسم بفصاحة خاصة، مطالبًا بهذا التقليد الجمهورى حينما ألح قائلاً: "فى دولة ذات نظام جمهورى، ينبغى أن تكون مناهج السلوك، والمشاعر، والاهتمامات التى تشغل الناس متشابهة. فإن لم تكن هذه هى

الحال، فسيوجد صدام مستمر بين الآراء، وسيكون ممثلو أحد الأطراف في كفاح مستمر ضد ممثلي الطرف الآخر"(٢٣).

كان المفكرون الذين يؤيدون هذا الدستور المقترح يعتقدون أن بروتس قد نكص على عقبيه. ولأنهم كانوا يشكون في إمكان وحدة الآراء وتماثلها، فإنهم رحبوا بالتنوع والاختلاف بصورة مؤكدة، كما رحبوا "بالتصادم المستمر للآراء". فقد كانوا يسعون للوصول إلى وضع "يكون فيه ممثلو أحد الأطراف في كفاح مستمر ضد ممثلي الطرف الآخر". وقد تحدث ألكسندر هاميلتون في هذا الموضوع بصورة أشد وضوحًا، ملحًا على أن "وجوه الاختلاف بين الآراء، وتضارب الأحزاب في الإدارة أو الشعبة التشريعية في نظام الحكم وهي البرلمان، تؤدي غالبًا إلى تعزيز تداول الرأي والأخذ بالحذر والاحتراس، كما تساعد في كبح تجاوزات الأغلبية"(٢٤). وكما أكد واضعو الدستور، فإن الخطأ الواسع الانتشار يكون من الأرجح حدوثه عندما يقوم الأفراد ذوو التفكير المتشابه، وهم معزولون عن الآخرين، بتداول الرأي فيما بينهم من غير مشاركة أحد سواهم. فقد كان واضعو الدستور يرون أن بإمكان اختلاف وجهات النظر أن يكون قوة واقية. فالدستور الذي يكفل "تضارب الأحزاب" و "الاختلافات في الرأي" يمكن أن يوفر إجراءات وقائية للحماية من حركات الرأي غير المبررة.

وبصورة أكثر تحديدًا، فإن المؤسسات التي ينادي بها دستورنا تعكس خوفًا ضمنيًا من الاستقطاب، حيث تنشئ مجموعة من الكوابح أو الضوابط التي تحد من الأحكام التي يحتمل أن تقول بها جماعات أساءت التقدير بسبب وقوعها أسيرة للاستقطاب. إن فكرة السلطة التشريعية التي تتكون من مجلسين تشريعيين، كان المقصود منها أن تكون بمثابة إجراء وقائي يمنع

حدوث وضع يكون فيه أحد المجلسين - والذى هو فى رأى واضعى الدستور مجلس النواب فى أغلب الأحول- مغلوبًا على أمره بسبب ما يسيطر عليه من الانفعالات الحادة العابرة، بل ومن استقطاب الجماعة كذلك. وفى مرحلة تأسيس الجمهورية فى أمريكا كان الرأى يتجه إلى اعتبار أن "مجلس الشيوخ" له أهميته الخاصة فى هذا الصدد. ولنذكر هنا تلك الرواية التى سجلتها كتب التاريخ على نطاق واسع، والتى جاء فيها أن توماس جيفرسون، بعد عودته من فرنسا، طلب من جورج واشنطن أن يفسر - أثناء جلوسه إلى مائدة الإفطار - سبب موافقته على وجود مجلس تشريعى ثان بجانب مجلس النواب. فسأله واشنطن قائلاً: "لماذا صببت هذه القهوة فى صحن الفنجان؟". فقال جيفرسون: "لألطف من حرارتها" فقال واشنطن: "وهو نفس الغرض فى هذا الموضوع فإننا نصب القوانين فى صحن مجلس الشيوخ لنلطف من تطرفها وغلوائها"[٢٥]. وقد تحدثت المحاضرات الرائعة التى ألقاها جيمس ويلسون فى القانون، تحدثت كثيرًا جدًا عن هذه الاعتبارات، مشيرًا إلى "حالات أصبح الناس فيها ضحايا بائسين للانفعالات الحادة، مما جعلهم يؤثرون بذلك على حكومتهم تأثيرًا شديدًا لا يمكن التحكم فيه"، ومبديًا رأيه الذى يقول فيه "إن التشريعى الوحيد" يكون عرضة لنوبات فجائية وعنيفة من الطغيان، والظلم، والقسوة" [٢٦].

إن بإمكاننا أن نفهم كثيرًا من جوانب منظومة الكوابح والتوازنات فى ضوء نفس هذه الاعتبارات العامة. فمهمة عرض القوانين على رئيس الجمهورية تقى من نتائج الاستقطاب داخل الشعبة التشريعية أى البرلمان أو الكونجرس فى أمريكا[٢٧]، كما أن فرصة رئيس الجمهورية للاعتراض على القوانين المعروضة عليه تعزز النظام القائم على وجود مجلسين

تشريعين، مما يزيد من تقليل مخاطر صدور قانون متعجل أو لم يعط القدر الكافى من التفكير المتعمق. وإن مجرد كون رئيس الجمهورية لا يستطيع أن يضع قانونًا بنفسه من غير أن يشاركه غيره، وأنه يتوجب عليه أن يعتمد على الكونجرس لإقراره، ليخلق إجراءً وقائيًا لا غنى عنه للحماية من النتائج الكارثية المحتملة لاستقطاب الجماعة الذى يحدث داخل الشعبة التنفيذية، أى الحكومة. قارن، مثلاً، الدول الديكتاتورية، أو الدول التى يسيطر عليها الطغاة، والتى تركز السلطة السياسية داخل شعبة، واحدة حيث تكون معرضة للوقوع فى خطأ فظيع، وهو الأمر الذى يرجع جزئيًا إلى تأثرها بظاهرة الاستقطاب. ثم إنه لما كان القانون لا يستطيع أن يعمل ضد المواطنين إلا إذا التحمت الشعبة التشريعية، أى البرلمان، والشعبة التنفيذية أى الحكومة، حيث تسن الشعبة الأولى القانون وتقوم الشعبة الثانية بتنفيذه، فإن هذا يمثل إجراءً وقائيًا أبعد مدى.

وقد كانت فلسفة الفيدرالية نفسها، ولا تزال، محركًا للتنوع، خالقةً "قواطع للدائرة الكهربائية" فى صورة تشكيلة متنوعة من الكيانات أو السلطات العليا التى لها ثقافات مختلفة. ففى النظام الفيدرالى قد تتسبب الشخصيات ذات النفوذ الاجتماعى فى إحداث الخطأ فى بعض الولايات، كما يمكن لولايات أخرى أن تسقط - بالتأكيد - فى تيار التأثيرات المتفاقمة أو التأثيرات الشلالية. إلا أن وجود أنظمة مستقلة يخلق كابحًا يمنع من انتشار الخطأ. وفى هذا الصدد، تتيح الفيدرالية للولايات أن تكبح بعضها بعضًا. ويشتمل أحد الجوانب ذات الأهمية الخاصة من هذه العملية على حق الخروج. ويعنى هذا الحق أنه إن اضطهدت إحدى الولايات مواطنيها، فإنه تتاح لهم دائمًا حرية مغادرة الولاية. وإن مجرد وجود هذه الحرية ليتسبب

فى إحداث رادع قبلى، أى يسبق صدور التشريع الذى يظلم المواطنين ويضطهدهم. كما أنها تتسبب فى إيجاد إجراء وقائى يتوافر بعد حدوث الاضطهاد. وبهذا المعنى، يكون حق السفر من مكان له سلطة سيادية إلى مكان آخر، حقًا سياسيًا أولاً وقبل كل شيء آخر، وهو مماثل لحق التصويت فى الانتخابات نفسه. وإن يحدث شكل من أشكال استقطاب الجماعة فى إحدى الولايات، فإن النظام الفيدرالى يضمن أن تصل الولايات الأخرى إلى وجهات نظر مختلفة. وهنا، أيضًا ، يمكننا أن نعثر على إجراء وقائى يحمى الحرية.

إن فهمنا لظاهرة استقطاب الجماعة ليلقى - أيضًا - ضوءًا جديدًا على واحد من أهم أحكام الدستور الأمريكى وأشدها إثارة للخلافات، ألا وهو منح الكونجرس، وليس رئيس الجمهورية، "سلطة إعلان الحرب"[٢٨]. وتعطينا الخلافات الفكرية التى ثارت أثناء فترة صياغة الدستور الأمريكى انطباعًا بأنه كان يوجد وقتها خوف من خطرين. فقد يعلن رئيس الجمهورية الحرب بدون تفويض كاف من المواطنين، كما أنه قد يعلن الحرب بدون قدر كاف من تداول الرأى والمناقشات العامة بين مختلف الأفراد. لهذا السبب ألح "بينكنى: Pinckney" على أن "من شأن مجلس الشيوخ أن يكون المصدر الأفضل لمثل هذا القرار، وذلك لكونه أكثر اطلاعا وخبرة بالشئون الخارجية، ولكونه أقدر على اتخاذ القرارات الملائمة"[٢٩]. وعلى النقيض من ذلك، سعى "بتلر: Butler" لتحويل رئيس الجمهورية سلطة إعلان الحرب، محتجًا بأن رئيس الجمهورية "سوف يتوافر له سائر الصفات المطلوبة، وأنه لن يشن الحرب إلا عندما تؤيد الأمة ذلك الموقف"[٣٠]. وقام "ماديسون:- Madison"- و"جرى: Gerry" بصياغة التسوية الأساسية لحل هذا الخلاف بين الرأيين السابقين، مقترحين بأنه ينبغى أن تكون للكونجرس السلطة فى

إعلان الحرب. وقد فهم من هذا الاحتياط الوارد في كلام، ماديسون وجرى، أن المراد منه السماح لرئيس الجمهورية "بالرد على الهجمات المفاجئة"[٣١]. إلا أنه من نواح أخرى، ينبغي أن يطالب رئيس الجمهورية بالسعى للحصول على موافقة الكونجرس، ويرجع ذلك إلى أن من شأن هذا السعى- وكما يقول ماديسون- أن يصل إلى "تعويق الحرب أكثر من تسهيلها" وإلى "تسهيل حدوث السلام"[٣٢].

إن يكن شن الحرب يعتبر عملاً خطيرًا بصورة خاصة، فقد يصيبنا الانزعاج بصورة خاصة من السماح لرئيس الجمهورية أن يعلن الحرب بمفرده. ولا يرجع سبب ذلك مطلقًا إلى أن رئيس الجمهورية يتمتع بحصانة تقيه من فرض الضوابط السياسية عليه. وإنما يرجع سببه إلى أن ديناميكيات الجماعة داخل الشعبة التنفيذية، أى الحكومة تتسبب في إحداث خطر التعرض للاستقطاب، حيث يقوم الأفراد المتشابهون فى التفكير بدفع بعضهم بعضًا إلى المواقف المتطرفة التى لا يمكن تبريرها أو الدفاع عنها. وقد رأينا قبل ذلك أن الشعبة التنفيذية تكون حينئذ معرضة للخطر بصورة واضحة، حتى لو اقتصر هذا الخطر على قيام رئيس الجمهورية بتكوين فرق من الأفراد غير المعارضين الذين يعززون، ولا يعارضون، الميول والنزعات الأولية لقادتهم. لذلك فإن اشتراط حصول الرئيس على موافقة الكونجرس وإقراره يكفل وجود كابح أو ضابط صادر من مؤسسة أخرى، تضم أصواتًا متنوعة المشارب، كما أن لها درجة ما من درجات الاستقلال عن الشعبة التنفيذية.

ولا ريب أن نظام حرية التعبير يعد أمرًا أساسيًا لابد منه لهذه العملية. ذلك أن النزعة غير المبررة للتطرف، داخل الحكومة وخارجها، يمكن مواجهتها بالأصوات المعارضة، وفى هذا الصدد تكون للتعديل الأول الذى

أجرى على الدستور الأمريكى وظيفة كابحة أو ضابطة[٣٣]؛ فهو يمثل جزءًا لا يتجزأ من الكوابح والتوازنات. ذلك أن من يقعون تحت إغراء الأخذ بالمواقف الفكرية المتطرفة، والذى قد يكون ناجمًا عن تأثرهم باستقطاب الجماعة، يمكن مقاومتهم والرد عليهم من قبل غيرهم، ممن يعتقدون أن ما لدى الأولين من المتطرفين من الوقائع والقيم ليست صائبة، أو على الأقل ينقصها شىء مهم وطالما أن الناس ينصت بعضهم لبعض، فإن حرية الكلام سوف تثبت أنه حينما تحدث الحركات الاجتماعية المتطرفة، فإن ذلك لا يكون ناجمًا عن عدم الاستماع إلى الأصوات المخالفة أو المنشقة.

تستفاد من هذه الآراء دروس مهمة فيما يتصل بمقاومة مخاطر العنف، والتى منها خطر التطرف. فإن يكن التطرف ناجمًا عن عملية من عمليات التحول إلى الراديكالية بما فيها العنف والحدة فى التفكير التى فيها يحتشد الأفراد المتشابهون فى التفكير معًا ، فإن الرد على هذا التطرف يكون بإدخال أصوات معارضة أو منشقة عليهم، ويا حبذا لو كانت من أصوات المصادر الموثوق بها. وفى المنعزلات الإسلامية، أى فى جماعات المسلمين المنعزلة عن غيرها من المسلمين وغير المسلمين. "تكون المعركة أحادية الجانب تمامًا ". فالمؤمنون الصادقون، وهم الذين يشغلون جميع الأماكن فى جلسات النقاش الراديكالية، يقومون بفرض إرادتهم، وهم فى نوبة حادة من الهوس بدون أن يكون موجودًا بينهم صوت معتدل ليهدئهم. ويؤدى هذا الوضع إلى التزايد المستمر فى التحول إلى الراديكالية من جانب المشاركين فى جلسات النقاش، الذين يتبنون أو يأخذون بوجهات نظر أصدقائهم شيئًا فشيئًا"[٣٤]. إن من لا يحصى عددهم من المسلمين الذين ينبذون العنف بحاجة إلى دخول هذه

الساحة والمشاركة فى هذه المناقشات ليسيطروا ويوقفوا ذلك الانزلاق نحو التحول المتزايد باتجاه "الراديكالية" (٣٥)، المتسمة بالحدة والتطرف والإجراءات العنيفة.

- الديمقراطية التشاورية وحكمة الحشود

فى العقود الأخيرة، أولى قدر كبير من الاهتمام بفكرة "الديمقراطية التشاورية" (٣٦)؛ والفكرة المحورية هنا هى؛ أن النظم الديمقراطية التى تقوم بدورها على خير وجه لا تعتمد على ما يتردد فى أوساط الرأى العام من تصورات عابرة تنقصها الروية أو على ما يرى معظم الناس أنه ينبغى عمله. وبدلاً من ذلك، تحاول هذه النظم أن تجمع بين التشاور، والتبرير المنطقى، والمساءلة. وتصر هذه النظم على أنه ينبغى على الجمهور أن يتبع عملية يقوم فيها الأفراد بتبادل المعلومات والأفكار.

إن فهمنا لظاهرة استقطاب الجماعة ليثير بعض التنبيهات التحذيرية الخطيرة فيما يتصل بالديمقراطية التشاورية. فمن الغباء أن نحتفى بالتشاور فى حد ذاته أو أن نعتقد أن الجماعات سوف تصل إلى الحقيقة أو حتى إلى حسن الفهم للأمور. ذلك أن تبادل المعلومات والأفكار يمكنه أن يولد التطرف غير المبرر، كما أنه يقوم بهذا العمل فعلاً. فغالبًا ما يختلط الأمر على الجماعات لأنها - تحديدًا - تضفى على التشاور الداخلى بين أعضائها قيمة عالية غير اعتيادية.

تأمل، فى ضوء هذا الكلام، ما ظهر حديثًا من حماسة لحكمة الحشود أو حكمة الجماهير(٣٧). وتتمثل الدعوى الأساسية هنا فى أنه إن تأخذ وجهة النظر الوسطى لجماعة من الناس، فإن وجهة النظر هذه ستكون فى الأغلب

دقيقة بصورة مذهلة، فهى أدق بمراحل كثيرة من وجهة نظر الغالبية العظمى لأعضاء الجماعة. وإن، بالإمكان فى أغلب الأحوال تفسير الدقة فى الأحكام الصادرة عن الجماعات الإحصائية بالرجوع إلى نظرية عـالم الرياضـيات كوندورسيه المسماة "نظرية هيئة المحلفين"، والتى تقدم واحدة من أهم النتائج فى النظرية الاجتماعية الحديثة (٣٨)، ولإدراك كيف تعمـل نظريـة هيئـة المحلفين، افترض أن أفرادًا يجيبون عن نفس السؤال بإجـابتين ممكنتـين، إحداهما خطأ والأخرى صحيحة. وافترض، كذلك، أن احتمال أن يجيب كل صاحب صوت أى كل فرد إجابة صحيحة يزيد على ٥٠ فى المائة. تقـول نظرية هيئة المحلفين: إن احتمال الوصول إلى إجابـة صـحيحة، بواسـطة أغلبية الجماعة، تتزايد فى اتجاه ١٠٠ فى المائة كلمـا تزايـد حجـم هـذه الجماعة. والقضية الأساسية هنا هى؛ أن الجماعات ستتصرف بطريقة أفضل مما يتصرف الأفراد، وأن الجماعات الكبيرة سوف تتصرف بأفـضل ممـا تتصرف الجماعات الصغيرة، وذلك طالما استوفى شرطين هما: أن تطبـق قاعدة الأغلبية، وأن يترجح احتمال أن يكون كل فرد مصيبًا فى إجابته على احتمال أن يكون مخطئًا.

تقوم نظرية هيئة المحلفين على أساس فرع بسيط تمامًا من فروع علم الحساب. افترض، مثلاً ، أنه توجد جماعة مكونة من ثلاثة أشـخاص لكـل عضو فيها احتمال أن يكون صائبًا بنسبة ٦٧ فى المائة. حينئذ يكون احتمال أن يؤدى تصويت الأغلبية إلى الوصول للإجابة الصحيحة، يكون بنسبة ٧٤ فى المائة (٣٩)، وكلما ازداد حجم هذه الجماعة، فإن هذا الاحتمـال يـزداد، كذلك. وينبغى أن يكون واضحًا أنه كلما يزداد احتمال صدور إجابة صحيحة

من الأعضاء بصفتهم الفردية، فإن احتمال صدور إجابة صحيحة من هذه الجماعة يزداد كذلك، على الأقل إذا طبقت قاعدة الأغلبية. وإن يكن احتمال صحة إجابة أعضاء الجماعة بنسبة ٨٠ فى المائة، وإن تكن هذه الجماعة تضم عشرة أشخاص أو أكثر، فإن احتمال وصول الأغلبية إلى الإجابة الصحيحة يكون مرتفعًا ارتفاعًا شديدًا، بحيث يكون قريبًا جدًا من ١٠٠ فى المائة.

ترى نظرية هيئة المحلفين أن بإمكان الجماعات الكبيرة أن تكون حكيمة فى أغلب الأحوال. إلا أنه يوجد جانب مظلم لنظرية هيئة المحلفين، كما أن لها، كذلك، دلالات ضمنية مهمة. افترض أن كل فرد من أفراد جماعة ما يزداد رجحان خطئه على صوابه. فإن يكن الأمر كذلك، فإن احتمال اتخاذ أغلبية الجماعة للقرار الصحيح يهبط إلى الصفر كلما تزايد حجم هذه الجماعة!

تخيل أن منظمتنا تتكون من عدد من الأفراد، وأن احتمال أن يخطئ كل واحد منهم مقداره ٥١ فى المائة. قد تكون هذه المنظمة حزبًا سياسيًا، أو جماعة دينية، أو كلية جامعية، أو جماعة إرهابية. حينئذ يقترب احتمال وقوع هذه المنظمة فى الخطأ من ١٠٠ فى المائة كلما تزايد حجم هذه الجماعة. وقد أشار كوندورسيه صراحة إلى هذا الاحتمال وإلى مصدره، فقال: "فى الواقع، عندما يهبط احتمال صحة اختيار صاحب صوت إلى ما تحت أى تحت ٥٠ فى المائة، فلابد من وجود سبب يفسر لماذا يكون اختياره أقل جودة مما تكون عليه حال المرء العادى الذى يختار عشوائيًا. وهذا

السبب يمكن العثور عليه فقط فى أشكال التحيز أى الأحكام المسبقة التى يكون صاحب هذا الصوت معرضًا لها [٤٠]. ولا يقتصر الأمر على أن الأخطاء تنجم عن "أشكال التحيز" فقط، بل إنها تنجم كذلك من تشوش الفهم أو التباس التصور أو افتقاد الدراية اللازمة لسلامة الحكم. ففى حالة الإجابة عن مسائل الحساب التى تتطلب مهارة كبيرة، لا يوجد مبرر لأن نتصور أن الإجابة المتوسطة الصادرة من جماعة كبيرة العدد ستكون صحيحة. وهكذا، أيضًا، يكون الأمر فى القضايا المعقدة التى تحوى اعتبارات سياسية. وحتى لو كان الأفراد أكفاء، أى لديهم ما يؤهلهم لسلامة الحكم، فإن احتمال خطئهم ممكن إلى حد كبير، خاصة إذا كانوا معرضين "للتحيزات" أو إذا كانوا يعالجون قضايا ذات مستوى فنى مرتفع.

والآن، لنعد إلى موضوع التشاور الداخلى بين أفراد الجماعة فنقول: حتى لو أن وجهة النظر المتوسطة لجماعة كبيرة الحجم، كان من المحتمل أن تكون صائبة، فقد تؤدى عملية من عمليات التشاور إلى اعوجاج الأحكام التى ينتهى إليها الأفراد، مما يؤدى إلى الوقوع فى أخطاء كبيرة. فنظرًا لأن بالإمكان أن يؤثر الأفراد بعضهم على بعض، فقد يتسلل نوع من التحيز إلى تفكير هذه الجماعة، مؤديًا إلى صرفها عن طريق الصواب. وقد التقينا بشواهد كثيرة على ذلك. وفى ظل بعض الظروف يتسبب التشاور فعلاً فى إحداث تشويه حاد للحقائق. فالغالب على الجماعات أنها تتصرف بشكل جيد إلى حد كبير إذا أخذت بالإجابة الوسطى، وبدون تشاور، وفى ظل الظروف السيئة، تزداد الإجابة الوسطى سوءًا بعد أن يتكلم أفراد هذه الجماعة مع بعضهم بعضًا.

لكننى لا أعنى بذلك أن أعترض على المفاهيم التشاورية للديمقراطية فى هذا الشأن، أو أن أقترح أن شركات الأعمال والعائلات، والمنظمات الدينية، والنقابات العمالية من شأنها أن تتصرف بشكل جيد بمجرد القيام باستطلاع رأى أعضائها. إذ إن فهمًا لظاهرة استقطاب الجماعة لا يبرر تلك النتيجة الراديكالية. فهو، أى هذا الفهم يوحى - فحسب - بأننا بحاجة إلى التحديد الدقيق لفكرة التشاور، وليس الترحيب بها فى حد ذاتها. إن من الأرجح أن يعمل نظام من التشاور بشكل جيد إذا كان يضم أفرادًا متباينين، أعنى بذلك، إن كان به درجة من التعددية فيما يتصل بالاتجاهات، والمعلومات، والمواقف الفكرية [٤١]. فالتعددية المعرفية أمر لابد منه لنجاح الديمقراطية التشاورية ولنظائرها فى القطاع الخاص.

- ملحوظة عن استقطاب الجماعة وصلته بالحرب

كان "لوثر جوليك: Luther Galick" من كبار المسئولين فى إدارة روزفلت أثناء الحرب العالمية الثانية. وفى سنة ١٩٤٨، بعد سنوات قليلة من انتصار الحلفاء، ألقى جوليك سلسلة من المحاضرات، وكان عنوانها الذى يفتقد الخيال هو" تأملات إدارية من الحرب العالمية الثانية"، والتى قدمت، فى تفصيل ممل إلى حد ما، مجموعة من الملاحظات المتعلقة بالبنية البيروقراطية والإصلاح الإدارى[٤٢]. وفى خاتمة موجزة وبعيدة عن الملل لإحدى المحاضرات، شرع جولى فى المقارنة بين قدرات الأنظمة الديمقراطية على خوض الحرب بقدرات أعدائها من الأنظمة القاسية.

بدأ جوليك بالإشارة إلى أن التقييم الأوّلى للولايات المتحدة، بين قادة ألمانيا واليابان، كان تقييمًا "خاليًا من المدح والإطراء" [٤٣]. فقد كنا، فى

نظرهم، "عاجزين عن القيام بالعمل القومى السريع أو الفاعل حتى فى مجال الدفاع الخاص بنا، لأننا تحت تأثير الديمقراطية نكون مقسمين أو منقسمين بسبب مجتمعنا المتعدد اللغات، وأننا تحت تأثير الرأسمالية نكون فى حالة إخفاق تام فلا نصل إلى تفاهم وتسوية للخلافات بسبب اهتماماتنا الخاصة المتصارعة" (٤٤)، قال أعداؤنا إننا لا نستطيع أن نقاتل. وكانوا مؤمنين بما يقولونه. كما أن الأنظمة الديكتاتورية يبدو عليها فعلاً أنها تتمتع بمزايا حقيقية. فهى فى منجاة من أشكال التأخير والتعويق، والجمود، والانقسامات الداخلية الحادة. وهى لا يلزمها أن تعتمد، بصفة دائمة، على آراء جماهير المواطنين، الذين منهم ذوو التعليم القليل والذكاء القاصر. كما أن الأنظمة الديكتاتورية تستطيع كذلك أن تعتمد على قائد واحد وعلى نظام تدرجى موحد، مما يسهل عليها تطوير الوحدة والحماسة القوميتين، وأن تتغلب على ما تتعرض له من هجوم مفاجئ، وأن تتصرف بقوة وبسرعة. إلا أنه تبين أن هذه الدعاوى الخاصة بمزايا أنظمة الحكم الديكتاتورية أو الشمولية دعاوى زائفة.

فقد تصرفت الولايات المتحدة وحلفاؤها على نحو أفضل بمراحل من ألمانيا، وإيطاليا، واليابان. وقد ربط جوليك تفوق الولايات المتحدة وحلفائها ربطًا مباشرًا بالديمقراطية نفسها. وقد أكد خاصة على أهمية "نوع المراجعة والنقد اللذين لا يتحملهما إلا النظام الديمقراطى فقط" (٤٥). أما فى حالة نظام الحكم الديكتاتورى، فإنه "يتم وضع الخطط فى سرية على يد مجموعة قليلة من الرجال ذوى المعلومات الجزئية القاصرة التى يتم بعد ذلك العمل بمقتضاها من خلال السلطة الديكتاتورية"(٤٦). وإن من الأرجح أن

تحتوى أمثال تلك الخطط على نقاط ضعف مميتة. وعلى النقيض من ذلــك، يتيح النظام الديمقراطى وجود النقد والمناقشات على نطاق واسع، مما يحول دون وقوع "كارثة" أما فى النظام الشمولى أو الديكتاتورى، فإن الانتقــادات والاقتراحات لا يكون مرغوبًا فيها ولا يهتم بها أحد. "بل إن القادة أنفــسهم يميلون لتصديق الدعاية التى روجوا لها بأنفــسهم. ويــسير تيــار الــسلطة والمعلومات بأسره من القمة للقاعدة"، حتى إنه عندما يتطلب الأمر إحــداث تغيير ما، لا يكون القائد الأعلى على دراية بضرورة هذا التغيير. أمــا فــى النظام الديمقراطى، "فإن الجمهور والصحافة لا يترددان عن رصد وانتقــاد أول دليل على الفشل بمجرد أن يوضع برنامج ما موضع التنفيذ"[٤٧]. وفــى النظام الديمقراطى أو الدولة الديمقراطية تتدفق المعلومات داخل الحكومــة - بين الموجودين فى أدنى المستويات وأعلاها - وعبر الرأى العام.

وبأسلوب ربط فيه جوليك بين الماليتحوليا أى الكآبــة أو الانقباضــية والهجوم المباغت، أشار إلى أن الولايات المتحدة وحلفاءها لــم يبــديا مــن الوحدة أكثر مما أبدته ألمانيا واليابان وإيطاليا. "مــن الواضــح أن الــدوافع الاجتماعية التى تحرك البشر فى جميع أنحاء العالم، والتى تتسم بسمة دوافع القطيع أو السرب هى نفسها إلى أبعد حد، متسببة بذلك فى إحداث نفس ردود الأفعال المتمثلة فى الولاء للجماعة عندما يكون البــشر معرضــين لــنفس الأخطار الحقيقية أو المتوهمة التى تهدد الجماعة" [٤٨]. قامــت إدارة القــادة الألمان واليابانيين برفع معنويات الجماهير، والتى جرت بأسلوب التوجيهات الصادرة من القمة إلى القاعدة، بعملها فعلاً. ولا يرجع السبب فى أن الأنظمة الديكتاتورية أقل نجاحًا فى الحروب، إلى أن الجماهير فيها أقل ولاءً لقادتهــا

أو أكثر ارتيابا فيهم. بل إنها أقل نجاحًا لأن قادتها لا يرحبون بالمراجعات والتصويبات التى توفرها العمليات الديمقراطية.

إن جوليك يطرح فى هذا المقام دعوى تتصل بكيفية قيام المؤسسات بوظائفها بصورة أفضل، عندما تكون التحديات أو الافتراضات الموجهة إليها متكررة، وعندما لا يكبح الناس غيظهم، وعندما تتدفق المعلومات بدون قيد عليها. ولا ريب أن جوليك يقدم تفسيره الشخصى لمجموعة معينة من الأحداث، كما أنه لا يبرهن - فى الواقع - على أن النجاح فى الحرب ثمرة للمؤسسات الديمقراطية. فالاتحاد السوفيتى، مثلاً ، حارب ببسالة وبشكل جيد، رغم أنه كان تحت طغيان ستالين. لكن الفكرة العامة لجوليك بها قدر كبير من الصدق أو الحقيقة. وتثبت الدراسات المدققة أن الأنظمة الديمقراطية تقوم بدورها بصورة جيدة خاصة فى الحروب القتالية[٤٩].

ومن أسباب ذلك أن الأنظمة الديمقراطية لا تبدأ الحروب إذا كان من المحتمل ألا تكسبها. ويوجد سبب آخر أشد إثارة للاهتمام، وهو مما يتماشى مع فكرة جوليك، وهو؛ أنه نظر للحرية الفردية، تتوافر للأنظمة الديمقراطية سبل أفضل للوصول إلى المعلومات الدقيقة، وبذلك تكون قادرة على تصحيح المسارات الخاطئة للعمل.

وهنا قضية ذات طابع أكثر عمومية. وهى أن المؤسسات يزداد احتمال نجاحها إلى حد بعيد إذا أخضعت القادة للفحص النقدى الدقيق، وإذا كفلت مواجهة مسارات العمل بالمراقبة والمراجعة اللتين يقوم بهما أفراد من خارج هذه القيادات، أو أقل باختصار: إذا استخدمت التعددية والاختلاف فى الرأى لتقليل مخاطر الخطأ الذى ينجم عن ظاهرة استقطاب الجماعة.

- التعددية والتوازن

إن فكرة الكوابح أو الضوابط والتوازنات فكرة قديمة، لكن بالإمكان استعمالها بطريقة مبتكرة. ففى الولايات المتحدة، يتم إقرار قدر كبير من السياسة القومية بواسطة ما يسمى باللجان التنظيمية المستقلة، مثل لجنة الاتصالات الفيدرالية، ولجنة التجارة الفيدرالية، ولجنة السندات والصرف، والهيئة القومية لعلاقات العمل. وتتألف هذه الهيئات، كما هو معهود ومتفق عليه، من خمسة أعضاء ممن يعيِّنهم رئيس الجمهورية وبمشورة وموافقة مجلس الشيوخ، وتستمر قائمة بوظيفتها لمدة محددة وهى سبع سنوات عادة، كما أنها تتخذ القرارات بناء على تصويت الأغلبية. ونظرًا للأهمية البالغة لهذه القرارات فإن أى رئيس من الحزب الديمقراطى يفضل إلى حد بعيد أن يكون قادرًا على ضمان أن تتكون هذه اللجان من أعضاء معينين من الديمقراطيين بصورة كاملة، أو تكاد تكون كاملة. ومن المؤكد أن رؤساء الجمهورية من الجمهوريين يميلون إلى تغيير السياسة لتسير فى اتجاهاتهم المفضلة عن طريق ضمان سيطرة أعضاء اللجان المعينين من الجمهوريين.

ومع ذلك، وبموجب القانون الحالى، تعتبر السيطرة الرئاسية التى يملكها رئيس الجمهورية على هذه اللجان مقيدة بشكل حاد، حتى لا يتحقق لحزب سياسى واحد أكثر من أغلبية ضئيلة جدًا فيها. وقد اشترط الكونجرس صراحة هذا الشرط وهو، ألا يكون لحزب سياسى واحد أكثر من أغلبية ضئيلة جدًا ، كما أن هذا الوضع، فى الحقيقة، أصبح هو النمط القياسى للهيئات المستقلة. لهذا، فإنه يتعين، مثلاً، أن تتكون الهيئة القومية لعلاقات العمل، ولجنة الاتصالات الفيدرالية إما من ثلاثة أعضاء جمهوريين

وعضوين من الديمقراطيين، أو من ثلاثة ديمقراطيين واثنين من الجمهوريين. ومن وجهة نظر رئيس الجمهورية، تنشأ مشكلة خاصة فى وقت التحول من إدارة إلى الإدارة التالية لها. فالرئيس الديمقراطى، مثلاً، يزعجه غالبًا أن يعلم أن الهيئات الموكول إليها تنفيذ السياسة التشريعية سيكون بها عضوان من الحزب الجمهورى على الأقل، ممن عيَّنهم رئيس الجمهورية السابق.

ينبغى أن يكون واضحًا أن هذا الشرط الخاص بتكون اللجان المستقلة من ممثلى حزبين يعمل بمثابة قيد يحد من استقطاب الجماعة ومن الحركات المتطرفة. شاهد ذلك أنه قد يؤدى وجود خمسة أعضاء معينين من الحزب الديمقراطى فى اللجنة القومية لعلاقات العمل- إلى حد كبير - إلى صدور قانون عمل قومى له توجهات جديدة دراماتيكية، أى مفاجئة أو مثيرة. إلى هذا الحد، فإن وجود عضوين ممثلين لحزبين فى اللجان القومية المستقلة يقوم بتحديد نطاق التغييرات المتطرفة التى لا مبرر لها فى مجال السياسة التنظيمية، وهى السياسة التى بموجبها يكون للحكومة إصدار قواعد ولوائح لها قوة القانون. ويمكننا أن نفهم هذا الشرط بوصفه مجهودًا يُبذل للوقاية من استقطاب الجماعة، أى أنه مجهود يبذل لتقليل المخاطر التى لا تنجم إلا عن التفاعلات الاجتماعية الجارية بين الأفراد المتشابهى التفكير، وحين ذلك، يتحرك قانون العمل منطلقًا فى مسارات خطيرة.

هل تنطبق الاعتبارات المتشابهة على السلطة القضائية؟ من اللمحة الأولى، تعد السلطة القضائية مختلفة تمامًا، وذلك لأن كثيرًا من الناس يعتقدون أنه ليس من المفترض أن تخضع للسياسة على الإطلاق. إلا أن هذا

الدليل يكشف الغطاء عن صورة أكثر تعقيدًا. فقد رأينا أن الحركات المتطرفة قد تجلت فى الهيئات الاستشارية المكونة من ثلاثة أعضاء من الديمقراطيين والهيئات الاستشارية المكونة من ثلاثة أعضاء من الجمهوريين، بمعنى أن القضاة، الموجودين فى مثل تلك الهيئات الاستشارية، يترجح - بصفة خاصة - أن يكون تصويتهم متماشيًا مع ما لديهم من صور إيديولوجية ثابتة فى أذهانهم.

من المعانى الضمنية التى تثير الخلاف، أنه ينبغى فى الدعاوى القضائية العويصة والحافلة بالاعتبارات الإيديولوجية، أى الاعتبارات المتعلقة بالمواقف الفكرية للأحزاب السياسية، نقول: ينبغى على من يسعون لاجتناب آثار استقطاب الجماعة أن يدخلوا فى اعتبارهم الهيئات الاستشارية القضائية المتعددة الآراء، وذلك كما هى الحال فى سياق اللجنة القومية لعلاقات العمل ولجنة الاتصالات الفيدرالية. وهذا المعنى الضمنى مثير للخلاف، لأن السلطة القضائية لا تفهم، باعتبارها مؤسسة صانعة للسياسة، وذلك لأن مثل هذا الفهم قد يعزز رؤية السلطة القضائية لنفسها ذات طابع سياسى، ولأن الجهود التى تبذل لضمان التعددية الإيديولوجية قد تفهم، وإلى حد بعيد، على أنها لا تتسق مع الالتزام بالحياد الذى يتمسك به القضاة. لكن هذه المناقشة الواردة هنا توحى بأن القضاة صناع سياسة من نوع متميز، وبأن الرأى الذى يدعو للتعددية، باعتباره وسيلة لمعادلة تأثير استقطاب الجماعة، لا يختلف، من حيث المبدأ، عن الرأى الوارد فى سياق اللجنة التنظيمية المستقلة. تذكر أنه فى الوقت الذى يتوجب فيه أن تتكون الهيئة القومية لعلاقات العمل إما من ثلاثة أعضاء ديمقراطيين وعضوين

جمهوريين أو من ثلاثة أعضاء جمهوريين وعضوين ديمقراطيين، فإن المحاكم ذات المستوى الأعلى كمحاكم الاستئناف والنقض ليست مقيدة بهذا القيد نفسه، وأن المصير النهائى للقرارات التى تتخذها الهيئة القومية لعلاقات العمل، والتى تصبح بعد ذلك هى قانون العمل القومى، وحتى لو كانت تتعلق بأشد المجالات أهمية، نقول: تذكر أن المصير النهائى لهذه القرارات سيكون فى أغلب الأحوال مختلفًا اختلافًا جذريًا لو أن المحكمة ذات المستوى الأعلى كانت مكونة من ثلاثة أعضاء جمهوريين فقط أو من ثلاثة أعضاء ديمقراطيين فقط، وخلافًا لذلك، يكون قضاة محاكم الاستئناف أكثر اعتدالاً بمراحل إذا كانت هيئة المحكمة مكونة من عضوين جمهوريين وعضو ديمقراطى أو من عضو جمهورى وعضوين ديمقراطيين.

ولهذا المثال دلالاته الضمنية العامة. ففى مجالات كثيرة، تتكون المؤسسات الخاصة والمؤسسات العامة من أفراد متشابهين فى التفكير، أى إنهم مماثلون لما ذكرناه من جماعات أجريت عليها تجارب فى مدينة بولدر، ومماثلون للهيئات القضائية أو الاستشارية المكونة من ثلاثة أعضاء جمهوريين، ومماثلون للبيت الأبيض أى الحكومة الأمريكية تحت رئاسة جورج دبليو بوش، بل مماثلون كذلك للشبكات الاجتماعية المكونة كلها من مسلمين ساخطين. وتحاول الجماعات التى تقوم بوظائفها على خير وجه أن تكفل وجود نوع من تعددية الآراء، ولو لم يكن ذلك إلا لتحمى نفسها من ارتكاب الحماقات والخلط بين الأمور. ولو أن فرق الأطباء تريد أن تقوم بإجراء فحوص دقيقة، وأنها سوف تشجع على وجود معيار ما للشك، حتى بين أعضائها من شباب الأطباء والأطباء ذوى الخبرة القليلة [٥٠]. ولو أرادت

الشركات أن تتفادى الكوارث، فإنها تبذل وسعها فى إنــشاء لجــان متعــددة الآراء لا تخضع للرئيس التنفيذى، أى رئيس مجلس إدارة الــشركة. يــشهد لذلك أن أحد الملاحظين المدققين الذين رصدوا حالات الإخفــاق المــشتركة ينتهى إلى نتيجة مفادها؛ أن أحد الحلول يكمن فى "مجموعات فاعلــة، ذات مستوى عال فى أداء مهامها يقوم أعضاؤها بالاعتراض على بعضهم بعضًا ويشتبكون اشتباكًا مباشرًا مع كبار المديرين فيما يتصل بالقــضايا الحاســمة التى تواجه المشكلات" (٥١). وتتمثل المشكلة فى أنه عندما يحدث للمــديرين ذوى التفكير المشترك، حتى لو كانوا أذكياء وذوى نفوذ كبير، أن يوضــعوا "داخل جماعات تعوق الخلاف فى الرأى"، فإنهم يبدأون، بشكل دائم تقريبًــا، فى التوافق معًا فيفوتهم الاطلاع على وجهات النظر المتعددة. ثم إن الرؤساء التنفيذيين للشركات الذين لا يرحبون بالخلاف فــى الــرأى، يحــاولون أن يختاروا أعضاء استشاريين ممن يقدمون آراء تتماشى مع آرائهــم. وهــذا الوضع يمثل مشكلة عسيرة لحملة الأسهم، لأن هذا الدليل المبرهن عليه فــى هذا الفصل يوحى بأن للشركات ذات المستوى الأعلى فى الأداء لديها مجالس إدارة ميالة بشكل مفرط للنزاع، حيث تعتبر الخلاف فى الرأى التزامًا تلتزم به، ولا يعالج أى موضوع باعتباره من الأمور التى لا تقبل المناقشة. ومــن ثم، فإن مجالس إدارة الشركات التى تقوم بأداء مهامها على خير وجه تــضم وجهات نظر متصادمة وقضايا متحدية.

إن هذه الآراء والملاحظات تعد نوعًا من التقدير والإجلال لقوة تــأثير أسلوب الكوابح والتوازنات، أى لقيمة إنشاء "فرق من المتنافسين"، حتى لــو كان ذلك فى المجالات التى اعتاد قادتها أن يبحثوا عن لاعبى فريق، أعنــى

بهم هؤلاء الذين يتماشون مع الحكمة السائدة، أى التى تفضل الوفـــاق فى الرأى على الاختلاف فيه. وإن يكن التطرف غير المبرر يمثل مـــشكلة، فإنه من المرجح أن يكون للفكرة القديمة الخاصة بالكوابح والتوازنات عـــدد من الاستعمالات الجديدة. وقد بدأنا – فحسب – بالتحقق مما فيها من بـــشائر واعدة بالنجاح.

الفصل الخامس

التطرف الإيجابى (الخيِّر)

من الواضح أن التطرف ليس شرًا دائمًا، وقد تكون الحركات المتطرفة فى بعض الأحيان خيِّرة، بل إنها قد تكون عظيمة. وعندما يتحول البشر من اللامبالاة إلى الاهتمام العميق بالمشكلات المحلية مثل الفقر والجريمة، فإن الاستقطاب الجمعى يكون فى هذه الحالة إنجازًا وليس مشكلة، ولقد كان "بارى جولد وتر: Barry Gold Water" محقًا عندما قال بأن التطرف "عندما يكون دافعًا عن الحرية فإنه لا يكون خطيئة". ويمكن النظر إلى الثورة الأمريكية، وحرية الحقوق المدنية، وسقوط كل من الشيوعية، ونظام التفرقة العنصرية على أنها جميعًا لها علاقة بالآليات التى نناقشها هنا. فطالما اعترفنا أن التطرف يمكن أن يكون مرغوبًا فيه، وأن الاستقطاب الجمعى يمكن أن يحرك الناس نحو الانخراط فى حل مشكلات خطيرة، طالما اعترفنا بذلك فإن التحليل يجب أن يعدل. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

- تنويعات

إن المجتمعات تكسب من الاستقطاب الجمعى، وبشكل خاص من الجيوب المتدبرة التى تتكون من جماعات لها عقول متشابهة. إن الناس يحتاجون إلى أماكن يمكن أن يجتمعوا مع بعضهم بعضًا لمناقشة قضايا تخصهم، ولنفكر مثلاً فى جماعات رجال الأعمال، والعلماء، والعجزة، ورجال الاقتصاد، وكبار السن. إن هذه الفضاءات تطور عملية التعلم،

والإبداع، والخلق. إنها توفر الراحة والاطمئنان. وهى ضرورية لكل من النمو الاقتصادى والديمقراطية. ولقد ذهب أستاذ القانون "هيثير جركن: "Heather Gerken" - فى مقال مهم إلى لفت الانتباه إلى ما سمَّاه "التنوع من الدرجة الثانية" أى هذا النوع من التنوع الذى يظهر عندما يتكون المجتمع من جماعات عديدة ليس بينها تنوع داخلى كبير (١). أما التنوع من الدرجة الأولى فقد كان محط اهتمامى هنا؛ إنه يشير إلى درجة التنوع داخل الجماعات وداخل التنظيمات. ويختلف التنوع من الدرجة الثانية عن ذلك كلية. إنه يشير إلى درجة التنوع عبر الجماعات والتنظيمات.

لقد استفادت الولايات المتحدة من موقف سمح فيه لولايات أوتوا، وكاليفورنيا، وماسا سوتش، بأن تحاول تطبيق خبراتها الخاصة فى الزواج، والرعاية والبيئة. ويمكن لنا الآن أن نرى ما الذى نجح من ذلك، وما الذى لا ينجح. وإذا ما كان هناك بعض أقسام الاقتصاد محافظًا وبعضها الآخر ليبراليًا، فإن المهنة، وبالتالى الأمة ككل سوف تتعلم من الأفكار والنظريات التى سوف تظهر. وقد ذهب جركن إلى أن ما نسعى إلى الوصول إليه فى مجالات عديدة، وما يجب أن نسعى إليه فى هذه المجالات هو نوع من التنوع من الدرجة الثانية. وقد روج "جون ستيوارت ميل: John Stuart Mill" لما سمّاه "بتجارب الحياة" (٢)، وأن أيًا من هذه التجارب سوف يؤكد أن الناس المتشابهين فى العقول سوف يقضون وقتًا أطول مع بعضهم. وعندما يظهر التنوع من الدرجة الثالثة، فإنه يخلق عددًا من الغرف التى يتردد فيها الصدى، وبالتالى الكثير من الاستقطاب الجمعى.

ويمكن أن يكون التنوع من الدرجة الثانية بالنسبة لأى أمة مهمًا، خاصة على المدى الطويل. فلو سمح لتنظيمات عديدة أن توجد، وإذا ما تكوَّن كل منها من أفراد متشابهين فى العقول، فإن الأمة سوف تستفيد من

عدد أكبر من الآراء والممارسات التى سوف تظهر هنا وهنــاك. وســوف يتحول العديد من هذه الجماعات بالضرورة إلى الموقف المتطــرف، ولكــن تطرفها سوف يثرى حصيلة الاتفاق، ويؤدى ذلك بدوره إلى حلول واقعيــة. كما يستفيد النظام الفيدرالى من التنوع من الدرجة الثانية؛ ويحدث ذلك بالمثل فى دراسة العلم، والأنثروبولوجيا، الأدب. إن حرية التجمع تؤكد وجود عدد كبير من الجماعات المتشابهة فى العقــول: مثــل التنظيمــات الكاثوليكيــة، والتنظيمات اليهودية، وجماعات حقوق الحيوان، ورابطة السلاح الوطنيــة، والجماعات المدافعة عن حقوق الشواذ، والجماعات المدافعة عن فلــسطين، والتنظيمات الإسلامية، والكثير والكثير غير ذلك. وإذا ما ظهر الاســتقطاب الجمعى فى بعض هذه الجماعات أو الكثير منها، فإننا سوف نجنى ثمارًا مما يظهر منها.

وثمة نقطة أخرى، فلو تحدث الناس إلى الآخرين الذين يتشابهون فــى العقول، فإنهم من المحتمل أن يشحنوا، ومن المحتمل أن يصبحوا أكثر نشاطًا من الناحية السياسية أو من أى ناحية أخرى [٣]. ولو استمع الناس للجانــب الآخر، واهتموا بالآراء المتنافسة فإنهم سوف يصبحون أكثــر قــدرة علــى احترام بعضهم بعضًا، وعلى التسامح، ولكنهم من المحتمل أيضًا أن يكونــوا سلبيين أو حتى لا مبالين.

إن الاستقطاب الجمعى يولد الانخراط فى السلوك؟ ويمكن للأحاديــث مع الآخرين المتعددين أن ينتج عدم القدرة على الفعل وشللاً (شللاً سلوكيًا أو فكريًا). ومن هنا فإن عملية سياسية بعينها يمكن أن تعتمد علــى موقــف تسعى فيه جماعات عديدة من ذوى العقول المتشابهة إلى دفع أعضائها إلــى البحث عن التغيير.

- الجيوب الفكرية والصمت الذاتى (إسكات الذات)

تقدم الجيوب الفكرية الكثير من الفوائد لأعضائها وللمجتمع بنفس القدر، ولقد تعلمت درسًا قويًا منذ عشرين سنة خلت فى بكين، حيث كنت أدرس لجماعة مكونة من نحو أربعين رجلاً وامرأة من المتعلمين تعليمًا عاليًا حول موضوع المساواة بين الجنسين والنزعة النسوية. وفى جلسة تستمر نحو ساعتين فى هذه الدروس لم يكن يتحدث إلا الرجال فقط. ولقد كان جلهم يعادون النزعة النسوية. ولم تقل أى امرأة أى كلمة. وبعد أن انتهت الجلسة سألت بعض النسوة لماذا صامتات. فقالت إحداهن "لقد تعلمنا فى الصين أن الحديث العلنى ليس شيئًا جميلاً" وظهر فى المناقشات الشخصية أن الكثيرات من النسوة فى الحجرة لديهن التزامات نسوية قوية، وهن يعتقدن أن الصين لم تطور شكلاً من أشكال المساواة بين الجنسين، وهن يوافقن على المسلّمات الأساسية للآراء النسوية. كما تعرف فى مدارس القانون الأمريكية. وتظهر هذه المواقف فى الجماعات الصغيرة. فهى لا تبدو للعلن فى الجماعات الأكبر، خاصة عندما يوجد عدد معقول من الرجال. ولكن هؤلاء النسوة يلعبن دورًا كبيرًا فى المجتمع الصينى اليوم.

ولا تقتصر هذه القصة على الصين. فحتى فى الولايات المتحدة، وكندا، وأوربا، فإن النساء يسكتن أنفسهن فى بعض الأحيان، على الرغم من النجاح الذى حققته الحركة من أجل المساواة. ويصدق نفس القول على أعضاء من جماعات كثيرة، مثل جماعة الأمريكيين من أصل أفريقى والمحافظين الدينيين. ويحدث هذا الصمت أذى كبيرًا لأعضاء الجماعة وللجمهور بعامة. فالصمت يحرم المجتمع من المعلومات التى يحتاجها. وفى هذا الصدد فإن ثمة ميزة خاصة مما نطلق عليه "التدبر العقلى داخل الجيوب

الفكرية" من حيث إنها تنمى المواقف التى يمكن أن تكون مختفية ومسكوتا عنها أو مستبعدة فى الحوار العام.

ويحدث فى سياقات عديدة أن تتحقق ميزة كبيرة من وراء ذلك. وقد ظهرت حركات اجتماعية عديدة عبر هذا الطريق، مثال ذلك حركة الحقوق المدنية، والحركة الريحانية، وحركة حقوق العجزة، وحركة مناصرة البيئة، وحركة مناصرة حقوق الشواذ، والحركات التى تنادى بضبط ملكية السلاح أو معارضة ملكية السلاح، ويمكن على نفس الطريقة فهم وتبرير جهود الجماعات المهمشة لاستبعاد الغرباء، أو حتى جهود الأحزاب السياسية على قصر الحقائب الوزارية على أعضائها. وحتى فى حالة وجود استقطاب جمعي – أو بسبب وجود هذا الاستقطاب – فإن الجيوب الفكرية يمكن أن تقدم عددًا كبيرًا من المنافع الاجتماعية إلى درجة أنها يمكن أن تثرى عدد الحقائق المتاحة والآراء المتاحة. وعندما يتحدث أعضاء مثل هذه الجماعات فى جماعات أكثر تنوعًا فإنهم يفعلون ذلك بدرجة من الوضوح والثقة. وتكون التنمية فى النهاية أن يحقق المجتمع معرفة أكبر عن ذى قبل.

وثمة نقطة إمبريقية مركزية مفادها؛ أن الأعضاء ذوى المكانة العليا فى الكيانات التى تدخل فى حالة نقاش أو التدبر، يميلون إلى المبادأة بالاتصال أكثر من الآخرين، وأن أفكارهم تكون أكثر تأثيرًا، ذلك لأن الأعضاء الأقل رتبة يفقدون الثقة فى قدراتهم، كما أنهم يخافون العاقبة (٤). وعلى سبيل المثال فإن أفكار النساء تكون أقل تأثيرًا وفى بعض الأحيان فإنها تجنب تمامًا فى الجماعات المختلطة بين الجنسين (٥). وفى الظروف العادية فإن الأقليات الثقافية يكون لها تأثير أقل على القرارات التى تتخذها جماعات مختلطة (٦). وفى مثل هذه الظروف يكون من المفيد تحريك الجيوب المفكرة

أو المتدبرة التى يمكن للأعضاء فيها والذين يمثلون جماعات متعددة من أن يتناقشوا معًا وأن يطوروا آراءهم.

ولكن هناك خطرًا داهمًا فى هذه الجيوب الفكرية، ويكمن الخطر فى أن أعضاء هذه الجيوب سوف يتحركون من خلال الاستقطاب الجمعى إلى مواقف تفتقر إلى التقدير أو الجدارة، ولكنها مواقف تعكس النتائج المتوقعة من ظروف خاصة من المفاوضات داخل الجيوب. ولقد رأينا من قبل كيف أن هذه المفاوضات أو التدابير يمكن أن تنتهى إلى العنف وتهدد الاستقرار الاجتماعى. ولذلك فمن المستحيل أن نقول، على المستوى المجرد، إن أولئك الذين يصنفون أنفسهم داخل جيوب يمكن بشكل عام أن يتحركوا فى اتجاه مفضل بالنسبة للمجتمع ككل أو اتجاه مفضل بالنسبة لهم. ومن السهل أن نفكر فى أمثلة مخالفة لذلك، ظهور النازية، وجماعات الكراهية، والمنظرين الذين يعتمدون على فكرة المؤامرة، والخلايا الإرهابية، وجماعات عديدة من أنواع مختلفة.

ويكون تهديد الاستقرار الاجتماعى مرغوبًا فيه فى بعض الأحيان. وكما كتب توماس جيفرسون: "فإن القلق والاضطراب يمكن أن ينتجا شيئًا خيرًا فهما يمنعان تكاسل الحكومة ويوجهان الانتباه العام نحو الشئون العامة، وأنا أعتقد أن قليلاً من الثورة يعد من وقت لآخر شيئًا حسنًا"(٧). إن أى حكم على المناقشات داخل الجيب أو الجيوب الفكرية من الصعب الوصول إليه دون الوصول إلى جوهر الأشياء، أى إلى الأمر الذى يفصل هذا الجيب عن المجتمع أصلاً. ويجب أن نلاحظ مرة أخرى أن الاستقطاب الجماعى أمر لا بأس به، فإذا ما تحول البشر إلى حالة الغضب بقدر دخولهم فى حديث ما، وإذا ما تزايدت الإثابات الممنوحة على التدمير العقابى، وإذا ما انتهى الناس

إلى التزام أكبر بالمواقف التى بدأوا منها، فإننا لا نخسر شيئًا. ونحن لا نستطيع أن ندين الحركات فيما يتصل بمواقف فكرية معينة دون أن نعرف عما إذا كانت هذه المواقف حسنة أم سيئة.

وإذا ما نظرنا إلى الموضوع من زاوية تخطيط مؤسساتنا أو حتى الحياة فى حياتنا العادية، فسوف تكون المشكلة منحصرة فى أن التدبر أو التفاوض داخل الجيوب الفكرية سوف يعمق الاستقطاب الجمعى بين عدد كبير من الجماعات وبعض هذه الجماعات ضرورى لتعميق العدالة، وبعضها يعمق عدم العدالة، ويبقى بعضها الآخر على درجة كبيرة من الخطورة. فحتى لو أدت الجيوب إلى مسارات حسنة، فإنه من غير المحتمل أن تتيح تغيرًا إذا لم يلتق أعضاؤها وجهًا لوجه، ومن هنا فإن أفضل طريق للاستفادة من التنوع من الدرجة الثانية فى المجتمع الديمقراطى هو؛ أن نؤكد على أن أيًا من هذه الجماعات لا ينتج عن وجهات نظر متنافسة، ومن ثم فإن هناك تبادلاً فى وجهات النظر بين أعضاء هذه الجيوب وبين الذين يختلفون معهم.

ولذلك فإن الخطر الحقيقى يكمن ليس فى عملية التدبر الجمعى أو الجماعى، ولكنه يكمن فى الانعزالية التامة أو شبه التامة لهذه الجماعات، ويحدث ذلك فى الغالب حتى فى حالة الارتباط غير المحظور أو حتى المميت بين التطرف والهامشية. ويظهر أهم درس من هذه الدروس المستفادة من ذلك على نحو عام. فمن الأهمية بمكان أن نخلق فضاءات للتدبر المنعزل داخل الجيوب دون أن نعزل أعضاء هذه الجيوب عن وجهات النظر المعارضة، ودون أن نعزل هؤلاء الذين يوجدون خارج الجيوب عن أولئك الذين ينتمون إليها. ولكن كيف يمكن أن نذهب أبعد من هذه التجريدات؟

- حرية التعبير، المنتديات العامة وصناعة السرنديبية (*)

نحن ندرك فى الفهم العام أن مبدأ حرية التعبير يمنع الحكومات من أن تفرض رقابة على الكلام الذى لا توافق عليه. أما فى الحالات المعروفة فإن الحكومة تحاول أن تفرض عقوبات مدنية أو جنائية، على الانشقاق السياسى، والقذف بالكلام، والإعلانات التجارية، والكلام الفاضح. ويكون السؤال هنا متعلقًا بما إذا كانت الحكومة مسموحًا لها أن تفرض قيودًا على صور التعبير التى تسعى إلى ضبطها؟ ولا يوجد مثل ذلك فى المجتمعات الحرة.

وذلك فى الحقيقة هو موضوع قانون حرية التعبير، ولكن فى الأمم الحرة يأخذ الجانب الأكبر من قانون حرية التعبير صورة أشد اختلافًا، من حيث إنه له جانب إيجابى أو وضعى، فالمحكمة العليا فى الولايات المتحدة على سبيل المثال قد حكمت بأن الشوارع والحدائق العامة يجب أن تظل مفتوحة أمام العامة لممارسة نشاط تعبيرى. وقد جاء فى حيثيات القضية الأولى التى عرضت أمام المحكمة، والتى ترجع إلى النصف الأول من القرن العشرين ما يلى: "بصرف النظر عن أسماء الشوارع أو الحدائق العامة فإنها كانت تستخدم دون تمييز من قبل الجمهور، ولقضاء وقت الفراغ، كما أنها كانت تستخدم لأغراض التجمع وتبادل الأفكار بين المواطنين ومناقشة القضايا العامة. ولقد كان هذا الاستخدام للشوارع والأماكن العامة منذ العصور القديمة جزءًا لا يتجزأ من المزايا والحصانات والحقوق والحريات

(*) السرنديبية: هى موهبة اكتشاف الأشياء النفيسة أو السارة مصادفة، وهى مشتقة من أسطورة أمراء سرنديبية الثلاثة.

التى يتمتع بها المواطن"[٨]. ولذلك فقد اضطرت الحكومة أن تسمح لحريـــة التعبير بالظهور فى الشوارع العامة والحدائق العامة، حتى وإن كان الكثيـــر من المواطنين يفضلون السلامة والهدوء، وحتى لو بـــدى الأمـــر معلقـــا أو مزعجًا عندما تمر أمام المعارضين والمنشقين، وأنت فى عودتك إلى المنزل، أو أثناء ذهابك إلى أحد المحلات فى المنطقة.

ولفهم العلاقة بين مذهب المنتدى العام ومذهب التطرف غير المبـــرر، فإنه ينبغى أن نلاحظ أن مذهب المنتدى العام يعمل علـــى تطـــوير بعـــض الأهداف الاجتماعية المهمة[٩].

فهو يؤكد أولاً على أن المتحدثين يمكن أن يصلوا إلى عدد أكبر مـــن الناس الذين لو تركوا وشأنهم فسوف يظلون أسرى الجيوب الفكرية الخاصة. فإذا ما أردت أن تدعى بأن الضرائب مرتفعة أو أن المعاملة القاسية للبوليس ضد الأمريكيين من أصل أفريقى تنتشر على نطاق واسع، وإذا كنت تريد أن تدعى هذا أو ذاك، فإنك سوف تكون قادرًا على نشر هذا الرأى على أعـــداد كبيرة من الناس الذين لن يسمعوا هذه الرسالة إذا لم تقم ببثها. ومن المحتمل أن يستمع الأفراد الذين يسيرون فى الشوارع والذين يستخدمون الحدائق إلى وجهات نظر المتحدثين حول الضرائب أو الشرطة؛ ويمكن لهـــم أيـــضًا أن يتعلموا شيئًا ما عن طبيعة الآراء التى يطرحها أقرانهم من المواطنين، ومدى عمق هذه الآراء. ويمكن لآراء بعض الناس أن تتغير بسبب ما تعلموه ؛ فهم ربما يصبحون أكثر تطلعًا إلى مزيد من بحث القضية بأنفسهم. ومن جانـــب المتحدثين فإن طريقة المنتدى العام تخلق بالتالى حقًا لهم للوصول إلى عـــدد من المواطنين غير المتجانسين.

وإذا نظر إلى الأمر من جانب المستمعين، فسوف نجد أن المنتدى العام لا يخلق حقًا وإنما يتيح فرصة، حتى وإن كانت فرصة غير مفضلة أو غير محببة: التعرض المشترك لمتحدثين متعددين لهم آراء متعددة وصور من الشكوى متعددة. ومن الأهمية بمكان أن نؤكد هنا أن عملية التعرض تكون مشتركة. وهناك أناس عديدون سوف يتعرضون بشكل تلقائي لنفس الآراء ونفس الشكاوى، وهم سوف يواجهون آراء وشكاوى قد يكون البعض منها قد رفضها في البداية، ومع ذلك فإن التعرض لهذه الآراء قد ينظر إليه في معظم الوقت على أنه شيء سيئ ومغلق.

وثانيًا فإن مذهب المنتدى العام يسمح للمتحدثين أن يصلوا ليس فقط إلى أعداد غير متجانسة من الناس، ولكن يسمح أيضًا للوصول إلى أشخاص بعينهم ومؤسسات بعينها يشاركونهم نفس المطالب ولكنهم قد يكونون منفصلين عنها أو غير مدركين لها. ولنفرض مثلاً بأنك تعتقد أن المجلس التشريعي للولاية قد تصرف بشكل غير مسئول فيما يتعلق بالرعاية الصحية للأطفال. ومن هنا فإن المنتدى العام يضمن لك أن تجعل آراء مشروعة من قبل المشرعين، وذلك بمجرد الاحتجاج أمام المجلس التشريعي نفسه.

وتنطبق نفس النقطة على المؤسسات الخاصة والعامة بنفس القدر. فإذا كان هناك محل للملابس يعتقد أنه يغش زبائنه أو أنه يسلك بطريقة عنصرية، فإن المتظاهرين تكون لديهم وسيلة للوصول إلى هذا المحل نفسه. وهم لا يفعلون ذلك لأنهم يملكون الحق في الاعتداء على الملكية الخاصة - فلا أحد يمتلك هذا الحق - ولكنهم يفعلونه لأن الشارع العام من المحتمل أن يكون قريبًا لهم، وأن قيامهم باحتجاج يتم تحديد مكانه بشكل إستراتيجي، سوف يجذب انتباه المحل والزبائن، ومن هنا فإن المتحدثين في مذهب المنتدى العام

يسمح لهم بالوصول إلى جماهير محددة، وأن هناك مستمعين معينين لا يمكن أن يتجنبوا الاستماع إلى المطالب التى توجه إليهم. وبعبارة أخرى فإن المستمعين لا تكون لهم من القوة ما يمكنهم من عزل أنفسهم.

ثالثًا: والأهم من ذلك، أن مذهب المنتدى العام يزيد من احتمالية أن الناس سوف يتعرضون عمومًا لمجموعة متنوعة من الأفراد والآراء. فإنك عندما تذهب إلى العمل أو تزور حديقة عامة، فسوف تصادف العديد من المواقف غير المتوقعة، سواء كانت مواقف عابرة أم غير متوقعة. وأنت لا تستطيع أن تتجنب أثناء ذهابك للعمل أو تناولك للغداء فى حديقة عامة، أن تعزل نفسك عن صور من الجدل والظروف التى لا تكون قد وردت على ذهنك من قبل، والتى سوف تحاول أن تتجنبها بقدر الإمكان. وهنا مرة أخرى نجد أن منتدى المذهب العام يميل إلى التأكيد على عدد من الخبرات التى يشارك فيها أعداد كبيرة من الناس - فالشوارع، والحدائق العامة هى ملكية عامة - وأيضًا التعرض لمجموعة من الآراء والظروف المتعددة.

ويعكس مذهب المنتدى العام نوعًا من الهندسة الاجتماعية، مأخوذة بالمعنى الحرفى للكلمة. فهو يعمل لمواجهة موقف يكون فيه أعضاء الجماعات المتفاوضة منخرطين فى درجة عالية من الانقسام الذاتى. وقد أشرت من قبل هندسة الطريقة السرنديبية وقارنتها حينئذ بهندسة الضبط. وتكشف هذه المقارنة عن أن مذهب المنتدى العام يعارض الضبط ويتوافق مع السرنديبية. فهو يؤكد على عدد كبير من المواقف غير المخططة وغير المتوقعة وغير المختارة. وبهذه الطريقة فإنه يعزز التنوع المعرفى. وأنه يجعل من الصعب على الناس المتشابهين فكريًا عزل أنفسهم عن أولئك الذين يفكرون بطريقة مختلفة. فمن المحقق أن هندسة السرنديبية جزء لا يتجزأ من

نسق ذى كفاءة وظيفية عالية من عملية المراجعة والتكيف، فهى تساعد على مراجعة الآثار المترتبة المنبثقة من خلال غرف النقاش المختلفة وتؤكد أن أولئك الذين يتعامون عن رؤية الأشياء أو أولئك الذين يفضلون الأكواد المعلوماتية أو القوانين المعلوماتية، فهى تؤكد أن، هؤلاء وأولئك يمكن أن يرون شيئًا آخر. وأن ما يرونه يمكن أن يغير عقولهم، بل حياتهم.

- المراجعة والتكيف فى كل مكان

هل من الممكن أن نعمم من قراءتنا لمذهب المنتدى العام؟ إن بإمكاننا أن نفكر فى ميادين أخرى؟ يمكن للأفراد من خلالها أن يستفيدوا من السرنديبية، والتى يمكن أن يتأكد من خلالها أن الهندسة الاجتماعية يمكن أن تثبت أن الناس الذين يقضون وقتًا طويلاً فى داخل الجيوب الفكرية يتعرضون أيضًا لآراء متنافسة. فالصحف اليومية، ومجلات الأخبار الأسبوعية، ومذيعو الراديو والتليفزيون، يمكن أن يقدموا إسهامات جمة فى هذا الصدد. فعندما يعمل كل أولئك على نحو جيد فإنهم يتجنبون التطرف غير المبرر، عبر التأكيد على أن الناس المتشابهين فى العقول سوف يرون من حين لآخر الأشياء التى تبدو غريبة، والتى يمكن أن تدفعهم إلى إعادة التفكير. وكلما كانت المؤسسات الخاصة على وعى بالمخاطر التى ناقشتها من قبل، فإنهم يحققون وظيفة ديمقراطية ومدنية بنفس المعنى الذى ينظرون به إلى أنفسهم على أنهم جزء لا يتجزأ من نظام المراجعة والتكيف. ففى الثمانينيات. قال لنا "مارك فولر: "Mark Fowler"، وهو رئيس لجنة الاتصال الفيدرالية: "إن التليفزيون ما هو إلا جهاز آخر من أجهزة المطبخ، فهو أشبه بالفرن الصغير الذى يموج الصور" وإذا ما نظرت وسائل الاتصال الجماهيرى إلى نفسها بهذا المعنى، فإنها يمكن أن تطور، لا أن تقلل من

المصاعب التى شرحتها هنا [١٠]. فمن المهام المركزية فى المجتمع الديمقراطى أن تتكيف وسائل الاتصال المقروءة والمسموعة، أولئك الذين يشاركون فى المواقف الإلكترونية، مع عملية انقسام ذاتى على أسس سياسية أو أسس أخرى.

ومن الأهمية بمكان أن نلقى نظرة جديدة على المؤسسات الأخرى التى تشجع العزلة الذاتية أو ترفضها. ولقد أشرت من قبل إلى الحقيقة التى مفادها؛ أن العضوية المتعددة تكون مطلوبة بالنسبة للمؤسسات الأكثر أهمية فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى مجلس علاقات العمل الوطنى، لجنة الاتصال الفيدرالى، لجنة التجارة الفيدرالية، ولجنة الأمن والتبادل. وإذا كان الهدف هو أن نقلل من شأن نظريات المؤامرة الزائفة، فإن إحدى الوسائل التى تحقق ذلك هى؛ أن نؤكد أن أولئك الذين يؤمنون بهذه النظريات يتعرضون إلى آراء مضادة، وهم لا يعيشون فى غرف خاصة منعزلة من تصميمهم الخاص[١١]. أما فى القطاع الخاص فإن الكوارث الاقتصادية التى تحدث للأفراد والجماعات الكبيرة تكون فى الغالب أحد نواتج المحادثات التى تدور بين الأفراد المتشابهين فكريًا، وهى المحادثات التى تؤكد على شكل معين من أشكال الاستثمار أو على مشروع معين بوصفه حصان الرهان. إن الأزمة الاقتصادية التى بدأت عام ٢٠٠٨ كانت نتيجة، فى الجزء الأكبر منها، لشكل من أشكال الاستقطاب الجمعى، الذى لم تسمع فيه أصوات المتشككين فى فوقعة الاستثمار العقارى، والذين كانوا متسلحين فى آرائهم ببيانات إحصائية، أو أن أصواتهم هذه قد تم إسكاتها بشكل ما. إن الشركات الأفضل والمستثمرين الأفضل هم أولئك الذين يستفيدون من عمليات المراجعة والتكيف[١٢].

لقد أكدت من قبل أن الحركات المتطرفة يمكن أن تكون مفضلة، حتى وإن نتجت عن آليات من تلك التى ناقشناها هنا. وحتى إذا لم تكن هذه الحركات مرغوبًا فيها، فإن المواقف المتطرفة يمكن أن يكون فيها خير كثير. فالمجتمعات تستفيد من التنوع من الدرجة الثانية، وذلك بسبب ما ينتجه هذا الشكل من التنوع من تجارب عديدة، والأعداد الكبيرة من المواقف المتنافسة. ونحن لم نقل شيئًا هنا يمكن أن يعنى إنكار هذه الادعاءات. ولكن إذا ما كان للحركات المتطرفة أن تظهر فإنها يجب أن تظهر لأنها على حق ولديها قدرة على الحساسية، وليس بسبب التأثيرات التى يمكن التنبؤ بها للتفاعل بين العقول المتشابهة.

ملحق: نتائج دراسات استقطاب الجماعة

ليس من الإنصاف أن يقال: إن الكتابات السابقة عن ظاهرة استقطاب الجماعة ضخمة أو كثيرة. ولإعطاء فكرة عما تتصف به النتائج الإمبريقية فى هذا المجال من تنوع، وللنطاق الكبير الذى تغطيه، نقدم قائمة ببعض أشهر التجارب اللافتة للنظر:

١- استقطاب الشباب الفرنسيين. بعد أن ناقش الشبان فى فرنسا آراءهم عن ديجول، رئيس جمهورية فرنسا فى أواخر ستينيات القرن العشرين، وعن الأمريكان، أصبحوا مستقطبين فى كلا الاتجاهين فى بداية الأمر، تحولت الآراء التى كانت تؤيد ديجول تأييدًا طفيفًا إلى آراء أكثر تأييدًا له، كما تحولت وجهة نظر أولية ناقدة أو مستخفة ترى أن المساعدة الأمريكية تستعمل دائمًا للأغراض السياسية إلى وجهة نظر أكثر سلبية أى أكثر انتقادًا.

Serge Moscovici and Marisa Zavalloni, The Group as a Polarizer of Attitudes,J. Personality & Soc. Psychol. 12 (1969): 125, 125-35.

٢- النسويون والشوفينيون. وهم المغالون فى النزعة الوطنية بعد مناقشة أولية لآرائهم المتعلقة بدور النساء، انقسمت جماعة مختلطة أو مكونة من الرجال والنساء إلى معسكرين أحدهما ليبرالى تحررى والآخر محافظ. بعد النقاش، أصبحت المجموعة المؤيدة للأفكار النسوية أكثر

تأييدًا لها، أما المجموعة التى كانت فى مبدأ الأمر "شوفينية"، فإنها أصبحت أكثر شوفينية، ولكن ليس بدرجة كبيرة إحصائيًا.

David G. Myers, Discussion-Induced Attitude Polarization, Hum. Rel. 28 (1975): 699, 707-11.

٣- التحيز أو التعصب العرقى. بعد سؤالهم عن التحيز أو التعصب العرقى، انقسم الأفراد إلى مجموعتين، ثم تناقشت المجموعة الأكثر تعصبًا مع المجموعة الأقل تعصبًا فى مسائل من أمثال: ما إذا كانت العنصرية البيضاء، أى عنصرية البيض مسئولة عن الظروف التى واجهها الأمريكيون الأفارقة الأصل فى المدن الأمريكية، بعد النقاش أصبحت كلتا المجموعتين أكثر استقطابًا نحو قطبيهما على الترتيب. أى زاد تعصب المجموعة الأكثر تعصبًا كما قل تعصب المجموعة الأقل تعصبًا، مما وسَّع من هوة الخلاف بينهما.

David G. Myers and George D. Bishop, Discussion Effects on Racial Attitudes, Science 169 (1970): 778, 778-79.

٤- المجازفة بين طلبة الدراسات التجارية. سئل طلبة ذكور ممن يدرسون شئون التجارة عن أدنى احتمال للنجاح الذى يحتاجون إليه من أجل توصية أحد عملائهم باتخاذ قرار مالى فيه شيء من الخطورة أو المجازفة. قدم الطلبة إجابة فردية ثم ناقشوا هذا القرار فى جماعات. جاء إجماع هذه الجماعات بعد المناقشة على قبول المجازفة التى تزيد عما كانت الأحكام الفردية قد أوصت به زيادة كبيرة بشكل ملحوظ.

James A. F. Stoner, A Comparison of Individual and Group Decisions Including Risk (July 31, 1961) (unpublished M.S. thesis,

Massachusetts Institute of Technology) (on file with the Massachusetts Institute of Technology Library), available at http://hdl.handle.net/ 1721. 1/11330.

٥- التحولات الحذرة فى قرارات الزواج. ينجم عن بعض المناقشات الجماعية تحولات حذرة وليست مجازفة. فقد لوحظ وجود تحول حذر عندما سئل أفراد عما إذا كان من الحكمة لإحدى الفتيات أن تتزوج خطيبها، وذلك فى ضوء معرفتهم بأن هذه الصديقة لم تكن علاقتها بخطيبها طيبة. جاءت الموافقة الإجماعية للجماعات بالتوصية بالزواج أقل فى ترجيحها لهذه التوصية من الأحكام الفردية.

انظر نفس المرجع، ص ٤.

٦- التحولات الحذرة والصديق المريض. كما تم تمييز تحول حذر عندما سئل بعض الأفراد، عما إذا كان ينبغى لأحد أصدقائهم، والذى كان بصدد السفر فى رحلة طويلة ولكنه مرض فجأة، سئلوا: هل ينبغى له أن يقوم بهذه الرحلة فعلاً أم لا. جاءت الأحكام التى أعقبت التشاور وتبادل الآراء أقل ترجيحًا للتوصية بالسفر.

James A. F. Stoner, Risky and Cautious Shifts in Group Decisions, J. Experimental Sac. Psychol. 4 (1968): 442, 442-59.

٧- التحولات الحذرة، والتحولات المجازفة، بين لصوص المنازل. عندما قام عدد من لصوص المنازل بتقييم مدى هشاشة أحد المواقع، أى مدى سهولة سرقته، عندما سئلوا عن ذلك فردًا فردًا، وجد هؤلاء اللصوص منفردين عن بعض أن هذا الموقع أكثر هشاشة، أى أسهل

فى السطو عليه مما وجدوه عندما تم تقييم الهشاشة فى جماعات. والظاهر أن أعضاء الجماعة يبعثون إلى بعضهم بعضًا بإشارات أو تلميحات تدل على المجازفة، ومن ثم يصبحون أكثر تخوفًا وقلقًا. وفى نفس الوقت، يبدو اللصوص وهم فى جماعات أرجح احتمالاً لأن يقوموا بأعمال أكثر فى خطورتها من الأعمال التى يقومون بها منفردين عن بعض.

Paul F. Cromwell et al., Group Effects on Decision-Making by Burglars, Psychol. Rep. 69 (1991): 579, 579-88.

٨- التعويضات الجزائية أو التعويضات العقابية عن إلحاق الضرر بالغير. تعتبر الأحكام التى تتعلق بالتعويضات الجزائية عن إلحاق الضرر بالغير، والتى تصدرها هيئات محلفين مقلدة وليست رسمية أو حقيقية أعلى من وجهة النظر الوسطى لأعضاء هذه الهيئات منفردين.

David Schkade et al., Deliberating about Dollars: The Severity Shift, Colum. L. Rev. 100 (2000): 1139, 1139-76.

٩- وجهة نظر هيئات المحلفين فى براءة المدعى عليه. إن قرارات هيئات المحلفين بشأن إدانة المدعى عليه أو براءته تصبح أحكامًا مستقطبة. قدمت لبعض الأشخاص صورًا مفصلة لحالات من الجرائم، وقد كتبت لتعطى دلالة قوية أو ضعيفة على الإدانة. سئل المبحوثون، واحدًا واحدًا بمفرده، أن يحددوا درجة الإدانة على مقياس يبدأ من الصفر وينتهى بدرجة عشرين، ثم قام المبحوثون بتمثيل دور التشاور وتبادل الرأى فى هيئة قضائية، أى محكمة مقلدة

غير رسمية أو حقيقية. فى الحالات التى حصلت على تقدير قبل ذلك فى مرحلة التقدير الفردى أو درجة مذنب إلى حد بعيد. ازداد حكم هيئة المحلفين عليها بالإدانة، مما يعنى أن من الأرجح أن يكون المدعى عليه مذنبًا أو مدانًا، وفى الحالات التى حكم عليها فى مرحلة التقديرات الفردية بالإدانة القليلة أو المنخفضة تناقص الحكم عليها بالإدانة.

David G. Myers and Martin F. Kaplan, Group-Induced Polarization in Simulated Juries, Personality & Soc. Psychol. Bull. 2 (1976): 63, 63-66.

١٠- قرارات الشراء عند الزوجات. سئل عدد من الزوجات عما إذا كن يرغبن فى شراء منتج ما فى حالة ما إذا لم يكن واضحًا أن هذا المنتج سيعمل بالصور المرجوة منه. فكن أكثر رغبة فى اتخاذ قرارات شراء مخاطرة بعد إجرائهن للمناقشة الجماعية.

Arch G. Woodside, Informal Group Influence on Risk Taking, J. Marketing Res. 9 (1972): 223, 223-25.

١١- التحولات المخاطرة والتحولات الحذرة بين لاعبى لعبة بلاك جاك من ألعاب الكوتشينة. إن من يتخذون - بصورة فردية - قرارات مخاطرة أو مجازفة وهم لاعبو بلاك جاك يتحولون فى اتجاه المزيد من المخاطر، إذا اتخذ اللاعبون الآخرون فى مجموعتهم قرارات أكثر خطورة من حيث تقديم أموال يراهن عليها فى هذه اللعبة، وهذا هو التحول المخاطر أو المجازف، كما أنهم يتحولون فى اتجاه المجازفة المتناقصة إذا قدم اللاعبون الآخرون فى مجموعتهم أموالاً أقل للمراهنة عليها، وهذا هو التحول الحذر.

Jim Blascovich et al., Blackjack, Choice Shifts in the Field. Sociometry 39 (1976): 274, 274-76.

١٢- النزعة الإيثارية أو النزعة الغيرية فى لعبة الديكتاتور. فى لعبة الديكتاتور التى تجرى بين فريقين، يقوم عضوان من جماعة مكونة من أربعة أعضاء بالحكم بتقسيم المال بين الأعضاء الأربعة بطريقة ديكتاتورية، أى من غير تشاور ولا تبادل رأى. تتميز هذه اللعبة عن لعبة الديكتاتور الفردى والتى فيها يتحكم عضو واحد من اثنين فى هذا التقسيم. يتبين أن الفريقين أكثر إيثارية أو أكثر غيرية من الأفراد، وبتعبير آخر نقول: إن عضو الفريق الأكثر إيثارية، وهو العضو الذى يميل - بمفرده - إلى إعطاء وتوزيع مقدار أكبر من المال، هو الذى يسيطر على عملية اتخاذ القرار من الفروض التى تذكر فى هذا الشأن أن الأفراد يكونون أكثر احتمالاً، لأن يتصرفوا بطريقة مرغوب فيها اجتماعيًا، أى: بطريقة إيثارية كلما ازداد عدد الأفراد الذين يلاحظون سلوكهم هذا.

Timothy N. Cason and Vai-Lam Mui, A Laboratory Study in Group Polarization in the Team Dictator Game, Econ. J. 107 (1997): 1465, 1465-83.

١٣- تحولات أكثر مخاطرة، وذات تأثيرات عنيفة. قدم القائمون على إحدى التجارب تقريرًا افتراضيًا عن قسوة رجال الشرطة فى معاملة الأمريكيين من ذوى الأصول الأفريقية، وبعد ذلك سألوا المبحوثين عن العمل الذى سيقومون به إزاء هذه القسوة،

مع وجود سبعة اختيارات تتراوح بين "عدم القيام بأى عمل" والقيام بالتظاهر" الذى يتوافر فيه احتمال وقوع إصابات بالمشاركين فيه. بعد المناقشة، ازداد احتمال قيام هذه الجماعة بعمل أكثر مخاطرة وأكثر احتمالاً لأن يكون عنيفاً.

Norris R. Johnson et al., Crowd Behavior aS "Risky Shift": A Laboratory Experiment, *Sociometry* 40 (1977):183, 183-87.

١٤- أعضاء الكنيسة يبدون نزعة تطرفية، أعطى ما يقرب من مائة من أعضاء إحدى الكنائس مسحًا به ست عشرة جملة تمثل آراء متعلقة بشئون الكنيسة، كالرأى الذى يقول: "ينبغى للكهنة أن يشعروا بالحرية فى اتخاذ موقف من الوعاظ فى إحدى القضايا السياسية". بعد ثلاثة أسابيع أعطى ١٦٩ عضواً آخر من أعضاء الكنائس إما بياناً بمتوسط إجابات هؤلاء المائة، أو بياناً بالتوزيع التكرارى لهؤلاء المائة، ثم طلب منهم أن يقدموا إجاباتهم الشخصية. وقد أبدوا مواقف أكثر تطرفاً من المائة عضو الذين بدأت بهم الدراسة.

David C. Myers et al., Attitude Comparison: Is There Ever a Bank wagon Effect?J. *Applied* soc. *Psychol.* 7 (1977): 341,341-47.

١٥- الارتباط بين تحولات الاختيارات وعدد الآراء المخاطرة أو المجازفة. عندما يعرض عدد كبير من الآراء المخاطرة أو المجازفة، أى التى يترتب على الأخذ بها مخاطر معينة على إحدى الجماعات، يزداد احتمال أن يكون ما تنتهى إليه الجماعة من إجماع ميالاً للمخاطرة. فى إحدى التجارب طلب من جماعات

أن تناقش آراء لنختار منها ما توافق عليه. وقد حدث فى تلك الجماعات التى ناقشت عددًا أكبر من الآراء المجازفة، أن ما انتهت إليه الجماعة من إجماع كان أكثر احتمالاً لأن يبدى تحولاً نحو المخاطرة بما يزيد على المواقف التى أبداها أعضاء الجماعة منفردين. وفى تجربة مشابهة، طلب من مبحوثين أن ينصتوا إلى مجموعة من الآراء التى تدور حول الأسئلة التى سبق أن وجهت إليهم، والتى قيل لهم إنها تمثل الآراء المستمدة من المناقشة التى دارت حول نفس الأسئلة وأجرتها جماعات مناظرة لهم. وقد وجد أنه كلما ازدادت نسبة الآراء المجازفة، ازداد الاستقطاب المتجه نحو المخاطرة.

Ebbe B. Ebbesen and Richard J. Bowers, Proportion of Risky to Conservative Arguments in a Group Discussion and Choice Shifts, J. Personality &Soc. Psychol. 29 (1974): 316, 317-27.

١٦- المخاطرة فى لعبة الشطرنج. عرض على بعض الأفراد حالة لاعب شطرنج متواضع المستوى يطلب الرأى فيما إذا كان يمكنه أن يقوم بلعبة مخاطرة أو مجازفة فى مواجهة لاعب آخر ذى مستوى عال. طلب منهم، منفردين عن بعض، تحديد أدنى احتمال للنجاح يمكنهم عنده أن ينصحوا هذا اللاعب بالقيام بهذه اللعبة المجازفة. ثم قاموا بمناقشة هذه الحالة فى جماعات. كان الإجماع الذى انتهت إليه الجماعات أكثر ميلاً للمجازفة من الأحكام الفردية.

David G. Myers and Helmut Lamm, The Group Polarization Phenomenon, Psychol. Bull. 83 (1976): 602-7.

١٧- المطالبة بالمال بعد التشاور وتبادل الرأى. طلب من بعض الأفراد أن يوزعوا ثمانى عشرة وحدة من وحدات الأرباح بين أنفسهم ومبحوث آخر. فى مبدأ الأمر، طالبوا، فى المتوسط، بنسبة ٦٤ فى المائة من قيمة هذه الأرباح، وبعد أن تشاوروا مع أفراد غيرهم ممن لم يكونوا فى حالة منافسة للحصول على نصيب فى هذه الأرباح زادت المطالبة فوصلت إلى نسبة ٧٠ فى المائة.

Helmut Lamm and Claudius Sauer, Discussion-Induced Shift toward Higher Demands in Negotiation, Eur.J Soc. Psychol. 4 (1974): 85, 85-88.

١٨- التحولات الحذرة فى مراهنات سباق الخيل. كانت بعض الجماعات التى تبادلت الرأى فيما تدفعه من أموال المراهنات على سباق الخيل أكثر حذرًا من الأفراد. وكان اتجاه المراهنين الأفراد، أى وهم منفردون عن بعض والسابق لتبادل الرأى، كان يفضل المراهنة على الخيول الممتازة، أى المجمع على أنها ستفوز عند اشتراكها فى سباقات المسافات الطويلة. وقد زاد هذا الاتجاه أو الميل بعد التشاور وتبادل الرأى.

Clark McCauley et al, Group Shift to Caution at the Race Track, J. Experimental Soc. Psychol. 98 (1973): 80, 80-86.

١٩- تقييمات الكليات الجامعية. عرض على جماعات شروح أو مواصفات مكونة من ٢٠٠ كلمة "للكلية الجامعية الجيدة" و"الكلية الجامعية الرديئة" بعد النقاش الجماعى، مالت الجماعات إلى إعطاء "الكلية الجيدة" درجة أعلى من متوسط الأحكام الفردية، وأعطتها مبالغ أكثر من المال، بينما أعطت الكليات

الجامعية الرديئة درجة أدنى، كما قل احتمال إعطاء الجماعات لها مزيدًا من المال.

Mycrs, Attitude Comparison.

٢٠- استقطاب المطالبات المالية فى مفاضات العمل. أعطى لفرق مكونة من ثلاثة أعضاء من نقابة العمال مركزًا تفاوضيًا افتراضيًا، وكان هذا المركز إما مركزًا قويًا جدًا أو مركزًا ضعيفًا جدًا، وذلك بالنسبة للطرف الآخر فى التفاوضات. حدث فى الجماعات التى لها مركز تفاوضى قوى أن طالب الأعضاء بعد المناقشة بأجور أعلى من المطالبات الفردية التى كان يطالب بها الأفراد قبل النقاش. ولكن فى الجماعات ذات المراكز التفاوضية الضعيفة، كانت هذه الجماعات أكثر حذرًا فى طموحاتها، أى فى توقعاتها ومطالبها مما كانت عليه بصفتها مكونة من أفراد منفردين عن بعض.

Jacob M. Rabbie and Lieuwe Visser, Bargaining Strength and Group Polarization in Intergroup Negotiations, Eur.J. Soc. Psychol. 2 (1972): 401-16.

٢١- التحولات المجازفة فى القرارات المهنية. طرح على إحدى عشرة جماعة، كل جماعة منها مكونة من طبيب نفسى، وعالم نفس، وأخصائى اجتماعى، عدة معضلات افتراضية ليختاروا من بينها ما يقومون بحله، وكان عددها اثنتى عشرة معضلة؛ نصفها له طابع إكلينكى، والنصف الآخر له طابع غير إكلينيكى، أظهرت الجماعات تحولاً نحو المجازفة فى حل كل الحالات إلا حالة واحدة، كما لم يشاهد فارق ملحوظ بين الحالات الإكلينيكية وغير

الإكلينكية من حيث الميل إلى المجازفة فى حلها. لم تظهر القوة المفترضة للأطباء النفسيين بشكل واضح فى قرارات الجماعة.

Sheldon Siegel and Robert B. Zajonc, Group Risk Taking in Professional Decisions, *Sociometry* 30 (1967): 339, 339-49.

٢٢- مقدار الآراء المطروحة. كلما زاد عدد الآراء المتعلقة بالمواقف الفكرية الأولى لجماعة ما، زاد مقدار التحولات، سواء أكانت فى اتجاه المجازفة أم فى اتجاه الحذر.

Eugene Burnstein et al., interpersonal Comparison versus Persuasive Argumentation: A More Direct Test of Alternative Explanations for Group-Induced Shifts in Individual Choice, J. experimental Soc. Psychol 9 (1973) 236,236-45,

٢٣- حكم الجماعة على الممثلين بناءً على ضميرها الخلقى. طلب من نحو ٢٠٠ مبحوث تجريبى أن يقارنوا بين اثنين من الممثلين، وأن يقسموا مبلغاً من المال بينهما. كان يوجد متغيران، أولهما: ما إذا كان المبحوثون يتوقعون حدوث تفاعل فى المستقبل مع الممثلين أم لا، والثانى يتعلق بما إذا كانوا أصدروا أحكامهم عليهما بصورة فردية أم فى جماعات تتكون الواحدة منها من خمسة أفراد. عندما لم يكن التفاعل المستقبلى متوقعًا، كانت النتيجة واضحة، فقد مال الأفراد إلى تخصيص قدر أكبر من المال للمثل الذى له إنتاج فنى أكثر، وفى إحدى الجماعات تم استقطاب هذه النتيجة، مما أحدث زيادة واضحة فى النسبة المئوية للمبلغ المخصص للممثل ذى الإنتاج الفنى الأكثر. وعندما كان التفاعل

المستقبلى متوقعًا، كانت النتيجة مختلفة بشكل لافت للانتباه. فقد وزع الأفراد المال بالتساوى بين الممثلين، بينما وزعت الجماعات المال بناءً على الاحتكام إلى ضميرها الخلقى، وذلك بإعطائها الممثل ذا الإنتاج الفنى الأكثر مقدارًا أكبر من المال. ويضاف إلى ذلك، أبدى الأفراد من الثقة بعدالة الإجماع الجماعى قدرًا أكبر من الثقة بأحكامهم الفردية.

Jerald Greenberg, Group VS Individual Equity Judgments: Is There a Polarization Effect? J. experimental soc, Psychol 15 (1979): 504, 504-12.

٢٤- الاستقطاب بعد التعلم من جماعة منافسة. طلب من مجموعة من المنتسبين لإحدى المدارس الفرنسية التقدمية فى مجال الهندسة المعمارية أن يقارنوا مدرستهم بمدرسة أخرى تحظى بمكانة أعلى ولكنها أكثر محافظة. وذلك، عن طريق القيام، أولاً، بإصدار الأحكام بصورة فردية على مقياس مدرج يبدأ بدرجة "أعترض بشدة" على الحكم المتعلق بخصائص هذه المدرسة، وينتهى بدرجة "أوافق بقوة" كما طلب منهم أن يصلوا بعد ذلك إلى موافقة جماعية أو إجماع. وبعد ذلك، قامت هذه المجموعة، للمرة الثانية، بإصدار الأحكام الفردية. وكما هو متوقع، فإن الإجابات التى قدمت بعد النقاش عكست الاستقطاب، أى بيّن أنه موجود. إلا أنه توجد فى هذا الشأن نتيجة ملحوظة بصورة مماثلة. ذلك أنه بعد أن ووجه الدارسون المنتمون للمدرسة التقدمية برأى نظائرهم المنتمين إلى المدرسة المنافسة فى مدرستهم هم، أى فى المدرسة التقدمية، أصبح الدارسون التقدميون أكثر استقطابًا، وهذا التحول

نحو المزيد من الاستقطاب حدث فيما يتصل بالمجالات التى كانوا يرون- فى أول الأمر- مدرستهم تتفوق فيها على المدرسة الأخرى، وفى المجالات التى كانوا يرون - فى أول الأمر - أن المدرسة الأخرى تتفوق فيها على مدرستهم. بناء على ذلك، فإن اطلاع المرء على رأى تؤمن به مجموعة تضمها جماعته الكبيرة يميل استقطاب الرأى بدرجة أكثر مع ذلك.

Willem Doise, Intergroup Relations and Polarization of Individual and Collective Judgments, J. personality & Soc. Psycho, 12 (1969): 136, 136-43.

٢٥- الاستقطاب نحو الآراء الحديثة أو الغربية. عرض على مشاركين آراء قصد منها أن تحدث تحولات مجازفة أو تحولات حذرة. كانت هذه الآراء قد وضعت لها درجات تقديرية من قبل مبحوثين تجريبيين بناءً على بعدين، هما: إما أن تعتبر صحيحة أو غير صحيحة، وإما أن تعتبر غربية أو غير غربية، وبعد ذلك سئل هؤلاء المبحوثون عن مدى ما تتسم به هذه الآراء من القوة الإقناعية. وجد أن أشد الآراء إقناعية كانت غربية وذات درجة عالية من الصحة. بالإضافة إلى ذلك أنه عندما ووجه هؤلاء المبحوثون برأيين صحيحين، مالوا للاستقطاب فى اتجاه الرأى الأشد غرابة.

Amiram Vinokur and Eugene Burnstein, novel Argumentation and Attitude Change: The Case of Polarization Following Group Discussion. 8 Eur.J. soc. Psycho. (1978): 335, 335—48.

٢٦- النزعة العسكرية فى مواجهة النزعة السلمية. أعطى لجماعة كبيرة من الدارسين اختبار سبق إعداده، وكان يتناول قضايا متعلقة بالقوات المسلحة، وذلك حتى يمكن تقسيم هذه الجماعة بين "الصقور" و "الحمائم". وقد طلب من هؤلاء المبحوثين، بعد تقسيمهم إلى هاتين المجموعتين، أن يتناقشوا ويصلوا إلى إجماع بشأن عدد من القضايا العسكرية الافتراضية، ثم أعطوا تقييمات فردية بعد المناقشة وكما هو متوقع، أصبح الحمائم أكثر سلمية بعد المناقشة، ومع ذلك، فإن الصقور، وعلى عكس التوقعات، أصبحوا أكثر سلمية بالمثل. ومع ذلك ظل الصقور بعد المناقشة أكثر صقورية، أى أكثر ميلاً للحرب من الحمائم قبل المناقشة أو بعدها. وهذه النتيجة غير المتوقعة، بالنسبة للصقور، قد تكون نتيجة ظاهرة اللا تماثل المؤثر على النفوس. ففى هذه الجماعات ذات الصلة، من الممكن أن تكون المعايير الاجتماعية قد عززت حدوث نوع من التحول نحو النزعة السلمية .

David G. Myers and Paul J. Bach, Discussion effects on .militarism Pacifism: A Test of the Group Polarization Hypothesis, J. personality □ Soc. Psychol. 30 (1974): 741, 741-47.

٢٧- استقطاب الجماعة فى هيئات التحكيم أو هيئات المحلفين التسلطية. تم تصنيف نحو ٢٥٠ دارسًا إلى أفراد ذوى نزعة تسلطية مرتفعة، وأفراد ذوى نزعة تسلطية منخفضة. بناء على أحد المسوح، ثم طلب منهم الاستماع إلى محاكمة لجريمة قتل. طلب من الدارسين أن يحكموا على الذنب المنسوب إلى المدعى عليه، وعلى العقوبة التى يحكم بها عليه، ثم وضعوا فى هيئات محلفين

تتكون الهيئة الواحدة من ستة أشخاص وكما هو متوقع، وصل المحلفون ذوو النزعة التسلطية العالية إلى أحكام أشد بإدانة المدعى عليه وسعوا إلى إنزال عقوبات أقسى مما كانت عليه حال المحلفين ذوى النزعة التسلطية المنخفضة. يضاف إلى ذلك، أن تغير الأحكام بين ما قبل المناقشة، وما بعد المناقشة كان أكثر ظهورًا عند ذوى النزعة التسلطية المرتفعة منه فى حالة ذوى النزعة التسلطية المنخفضة.

Robert M. Bray and Audrey M. Noble, Authoritarianism and Decisions of Mock Juries-Evidence of Jury Bias and Group Polarization, J. Personality □ Soc. Psycho. 36 (1978): 1424,1424-30,

٢٨- الاستقطاب والسن. تم إعطاء تقديرات لمشاركين من ثلاث فئات عمرية (المراهقين، والشبان، والكبار أو الراشدين) إما بصورة فردية وإما مع اثنين من النظراء الذين من نفس السن، وكانت هذه التقديرات تدور حول تفضيلاتهم ذات النزعة المجازفة من خلال مزيج من الاستبيانات بجانب لعبة من ألعاب الفيديو. وجدت الدراسة أن من كانوا فى جماعات من النظراء اتخذوا قرارات أكثر مجازفة مما فعل الأفراد، كما وجدت أن استقطاب الجماعة تناقص مع السن ولكنه لم يختف.

Margo Gardner and Laurence Steinberg, Peer Influence on Risk Taking, Risk Preference, and Risky Decision Making in Adolescence and Adulthood: An Experimental Study, development tal psycho.41 (2005): 625, 625-35.

الهــوامش

هوامش الفصل الأول

(1) Serge Moscovici and Marisa Zavalloni, The Group as a Polarizer of Attitudes J. *Personality & Soc. Psych.* 12 (1969): 125.

(٢) انظر:

Roger Brown, *Social Psychology: The Second Edition* (New York: Free Press, 1985), 203-226.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٢٠٤ .

(4) David G. Myers and George D. Bishop, Discussion Effects on Racial *Attitudes, Science* 169 (1970): 778-79.

(5) David G. Myers, Discussion-Induced Attitude Polarization, Hum. Rel. 16 (1975): 699, 707—11 (finding increase in support for feminism among women inclined to show feminist attitudes).

(٦) انظر:

Albert Breton and Silvana Dalmazzone, Information Control, Loss of Autonomy, and the Emergence of Political Extremism, in *Political Extremism and Rationality* (Albert Bretton et al., eds., Cambridge: Cambridge University Press, 2002), 53-55.

(٧) انظر:

Marc Sageman, *Leaderlessjihad* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2008).

(٨) انظر:

Reid Hastie, David Schkade, and Cass R. Sunstein, What Happened on Deliberation Day? *Cal. L. Rev.* 95 (2007): 915.

(٩) أخذت هذه الأمثلة من:

Cass R. Sunstein et al., *Are Judges Political? An Empirical Investigation* (Washington, D.C.: Brookings, 2005).

(١٠) انظر:

Cass R. Sunstein et al., *Punitive Damages: How Juries Decide* (Chicago: University of Chicago Press, 2007).

(١١) انظر:

James A. F. Stoner, A Comparison of Individual and Group Decisions Involving Risk (July 31, 1961) (unpublished MS thesis, Massachusetts Institute of Technology), on file with the Massachusetts Institute of Technology Library, available at http://hdl.handle.net/i721.1/11330.

(١٢) انظر:

Lawrence Hong, Risky Shift and Cautious Shift: Some Direct Evidence on the Culture Value Theory, *Social Psych.* 41 (1978): 342.

(١٣) انظر: المرجع السابق.

(14) Moscovici and Zavalloni, The Group as a Polarizer of Attitudes.

(١٥) مرجع سابق.

Brown, *Social Psychology*, 210-12.

(١٦) انظر:

Hong, Risky Shift and Cautious Shift.

(17) John C. Turner et al., *Rediscovering the Social Group*: A Self-Categorization Theory 142-170 (New York: Basil Blackwell, 1987).

(١٨) المرجع السابق، ص ١٥٣.

(١٩) المرجع السابق.

(20) Paul Cromwell et al., Group Effects on Decision-Making by Burglars, *Psychol.* Rep. 69 (1991): 579, 586.

(21) Norbert L. Kerr et al., Bias in Judgment: Comparing Individuals and Groups, *Psychol.* Rev. 103 (1996): 687, 689, 691-93 (citing studies).

(٢٢) انظر:

Norris Johnson et al., Crowd Behavior as "Risky Shift": A Laboratory Experiment, *Sociometry* 40 (1977): 183

(٢٣) المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٢٤) انظر:

E. Allan Lind et al., The Social Construction of Injustice: Fairness Judgments in Response to Own and Others' Unfair Treatment by Authorities, *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 75 (1998): 1.

(٢٥) المرجع السابق، ص ١٦.

هوامش الفصل الثانى

(١) انظر:

Brown, *Social Psychology*, 200—45.

(٢) انظر:

Robert Baron et al., Social Corroboration and Opinion Extremity, J. *Experimental Soc. Psych.* 32 (1996): 537.

(٣) انظر:

Mark Kelman et al., Context-Dependence in Legal Decision Making,*J. Legal Stud.* 25 (1996): 287, 287-88.

(4)Baron et al., Social Corroboration.

(٥) انظر:

Chip Heath and Richard Gonzales, Interaction with Others Increases Decision Confidence but Not Decision Quality: Evidence against Information Collection Views of Interactive Decision Making, *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 61 (1997): 305-26.

(٦) انظر:

Sageman, *Leaderless Jihad.*

(٧) المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(٨) المرجع السابق.

(٩) انظر:

Joseph Henrich et al., Group Report: What Is the Role of Culture in Bounded Rationality? *in Bounded Rationality: Tlie Adaptive Toolbox* (Gerd Gigerenzer and Reinhard Selten, eds., Cambridge, Mass.: MIT Press, 2001), 353—54.

للتعرف على نظرة عامة ممتعة تتصل بقرارات اختيار الطعام .

(10) Edward Glaeser, Psychology and Paternalism, *U. Chi. L. Rev.* 73 (2006): 133

(١١) لقد قيل دائماً إن الأغلبية تكسب دائماً لأن الناس لا يرغبون فى المخاطرة أو أن يخسروا مزايا وجود أعداد كبيرة من الناس، وعندما يكون للأقلية تأثير، فإن ذلك يكون بسبب أنهم ينتجون تغييرًا جذريًا. انظر: Baron et al., Social Corroboration, 82.

(١٢) المرجع السابق.

(13) Cecilia L. Ridgeway, Social Status and *Group Structure*, in Group Processes (Michael A. Hogg and R. Scott Tindale, eds., 2001), 352, 354 (collecting studies).

(١٤) انظر:

Gwen M. Wittenbaum et al., Mutual Enhancement toward an Understanding of the Collective Preference for Shared Information, *J. Personality & Soc. Psych.* 77 (1999): 967, 967-78.

(١٥) انظر: Scott McClellan, *What Happened* (New York: Public Affairs, 2008).

(١٦) المرجع السابق، ص ٢٥٣.

(١٧) انظر:

Doris Kearns Goodwin. *Team of Rivals* (New York: Simon & Schuster, 2005).

(18) Jean Hatzfeld, *Machete Season* (New York: Farrar, Straus & Giroux, 2005), 71.

(١٩) المرجع السابق ، ص ٣٨.

(٢٠) انظر:

Timur Kuran, *Public Lies, Private Truths* (Cambridge: Harvard University Press, 1998).

(21) Catherine Hafer and Dimitri Landa, Deliberation as Self-Discovery and Institutions for Political Speech, *J. Theoretical Politics* 19 (2007): 329.

(٢٢) المرجع السابق.

(٢٣) من أجل التعرف على وجهة نظر رسمية انظر:

Edward I. Glaeser and Cass R. Sunstein, Extremism and Social Learning, J. Legal Analysis (forthcoming 2009).

(٢٤) انظر:

Russell Hardin, The Crippled Epistemology of Extremism, in *Political Rationality and Extremism* (Albert Breton et al., eds., Cambridge: Cambridge University Press, 2002).

(٢٥) انظر:

Glaeser and Sunstein, Extremism and Social Learning.

(٢٦) انظر:

http://www.orgnet.com/divided.html.

(٢٧) توجد أفضل مناقشة بهذا الموضوع فى المرجع التالى:

Henry Farrell et al., Self-Segregation or Deliberation? Blog Readership, Participation, and Polarization in American Politics (unpublished manuscript 2008).

(٢٨) انظر:

Bill Bishop, *The Big Sort: Why the Clustering of Like-Minded America Is Tearing Us Apart* (New York: Houghton Mifflin. 2007).

(٢٩) انظر:

David Schkade et al., Deliberating about Dollars: The Severity Shift, Colum. L. Rev. 100 (2000): 1139, 1152, 1155-56.

(٣٠) المرجع السابق ، ص ص ١١٦١،١١٦٢.

(٣١) انظر:

Caryn Christensen and Ann S. Abbott, Team Medical Decision Making, in *Decision Making in Health Care* (Gretchen B. Chapman and Frank A. Sonnenberg, eds., Cambridge: Cambridge University Press, 2000), 267, 269, 272— 76.

وهو يناقش تأثير المكانة على تبادل المعلومات فى التفاعل الجمعى.

(32) Timothy Cason and Vai-Lam Mui, A Laboratory Study of Group Polarisation in the Team Dictator Game. *Econ.J.* 107 (1997): 1465.

(٣٣) انظر: المرجع السابق.

(٣٤) المرجع السابق، ص (١٤٦٨-١٤٧٢).

(٣٥)ظهر هذا الدرس من دراسة أشكال العقاب التى تلحق أذى، حيث مالت الجماعـات التى حصلت على متوسطات متطرفة إلى أكبر درجة من التحول. انظر:

Schkade et al., Deliberating about Dollars, 1152. For other evidence, see Turner et al., Rediscovering the Social Group, 158.

(٣٦) انظر:

Maryla Zaleska, The Stability of Extreme and Moderate Responses in Different Situations, in *Group Decision Making* (H. Brandstetter, J. H. Davis, and G. Stocker-Kreichgauer, eds., London: Academic Press, 1982), 163, 164.

(٣٧) انظر:

Russell Hardin, The Crippled Epistemology of Extremism, in *Political Rationality and Extremism* (Albert Breton et al., eds., Cambridge: Cambridge University Press, 2002), 3, 16.

(٣٨) انظر:

Scott McClellan, *What Happened.*

(39) Dominic Abrams et al., Knowing What to Think by Knowing Who You Are, *Br.J. Soc. Psych.* 29 (1990): 97, 112.

(٤٠) انظر:

John Turner et al., *Rediscovering the Social Group* (London: Blackwell, 1987), 154—59, which attempts to use this evidence as a basis for a synthesis, called "a self-categorization theory of group polarization" (154).

(41) Russell Spears, Martin Lee, and Stephen Lee, De-Individuation and Group Polarization in Computer-Mediated Communication, *Br. J. Soc. Psych.* 29 (1990): 121.

(42) Abrams et al., Knowing What to Think.

(43) Sageman, *Leaderless Jihad.*

(44) Albert Hirschman, Exit, *Voice, and Loyalty: Responses to Decline in Firms, Organizations, and States* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1972).

(٤٥) المرجع السابق، ص٤٦.

(٤٦) من أجل مناقشة مفصلة انظر:

Cass R. Sunstein, I I!fotojJia (New York:Oxford University Press, 2006).

(47) R. L. Thorndike, The Effect of Discussion upon the Correctness of Group Decisions, When the Factor of Majority Influence Is Allowed For, J. *Soc. Psych.* 9 (1938): 343.

(٤٨) انظر:

H. Burnstein, Persuasion as Argument Processing, in *Group Decision Making*, Brandstetter et al., eds.

(49) Brown, *Social Psychology*, 225.

(٥٠) انظر:

L. Ross, M. R. Lepper, and M. Hubbard, Perseverance in Self-Perception and Social Perception: Biased Attributional Processes in the Debriefing Paradigm," *J. Personality & Soc. Psych.* 32 (1975): 880-92; Dan Kahan et al., Biased Assimilation, Polarization, and Cultural Credibility: An Experimental Study of Nanotechnology Risk Perceptions (unpublished manuscript, 2008).

(٥١) انظر: المرجع السابق:

Geoffret Munro and Peter Ditto, Biased Assimilation, Attitude Polarization, and Affect in Reactions to Stereotype-Relevant Scientific Information, *Personality & Soc. Psych.* 23 (1997): 636.

(٥٢) انظر:

Brendan Nyhan and Jason Reifler, When Corrections Fail: The Persistence of Political Misperceptions (unpublished manuscript, 2008).

(53) Sageman, *LeaderlessJihad*, 99.

(٥٤) المرجع السابق.

(٥٥) انظر:

James S. Fishkin, *The Voice of the People: Public Opinion and Democracy* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1995).

(٥٦) المرجع السابق ، ص ص(٢٠٦،٧).

(57) James S. Fishkin and Robert C. Luskin, Bringing Deliberation to the Democratic Dialogue, in *The Poll with a Human Face* (Maxwell McCombs and Amy Reynolds, eds., (New York: Lawence Erlbaum, 1999), 3, 29, 31.

(٥٨) انظر: المرجع السابق ،ص ص ٢٢-٢٣.

(وهو يوضح قفزة على مقياس من (١-٤) درجات ، من ٣,٥١ إلى ٣,٥٨ فـي درجـة عمق الالتزام بتقليل التصور) وكذلك قفزة على مقياس من صفر إلى ٣ مـن ٢,٧١ إلـى

٢,٨٥ فى شدة تأييد مزيد من الإنفاق على التعليم ، كما يوضح قفزة على مقياس من ١-٣ بمقدار يصل من ١,٩٥ إلى ٢,١٦ فى درجة الالتزام بتقديم مساعدات أمريكية أجنبية.

(٥٩)المرجع السابق، ص ٢٣. انظر: المرجع السابق ص ٢٢ أيضًا (الذى يوضح زيادة على مقياس متدرج من ١-٣ تتراوح ما بين ١,٤ إلى ١,٥٩ ، فى الالتزام بالإنفاق على المساعدات الخارجية ، كما توضح انخفاضاً ما بين ٢,٣٨ إلـــى ٢,٢٧ علـــى مقياس مشابه فيما يتعلق بالإنفاق على الأمن الاجتماعى.

(٦٠) انظر:

Brown, *Social Psychology*.

(٦١) انظر:

James Miller, *Democracy Is in the Streets* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1994).

(٦٢) انظر:

Sageman, *Leaderless Jihad*.

(63) Valuable discussions are Kuran, *Public Lies, Private Truths*; Marc Granovetter, Threshold Models of Collective Behavior, *Am. J. Soc.* 83 (1978): 1420.

(٦٤) انظر:

Kuran, Public Lies, Private Truths.

(٦٥) انظر: المرجع السابق.

Susanne Lohmann, The Dynamics of Informational Cascades, *World Politics* 47 (1994): 42; Susanne Lohmann, Collective Action Cascades: An Informational Rationale for the Power in Numbers, *Journal of Economic Surveys* 14 (2000): 655.

(٦٦) انظر:

Stanley Milgram, *Obedience to Authority* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1974); Stanley Milgram, Behavioral Study of Obedience, in *Readings about the Social Animal* (Elliott Aronson, ed., New York: W. H. Freeman, 1995), 23.

(67) Milgram, Behavioral Study of Obedience, 27.

(٦٨) المرجع السابق، ص ٢٩.

(٦٩) المرجع السابق، ص ٣٠.

(٧٠) انظر:

Milgram, *Obedience to Authority*.

(٧١) المرجع السابق ، ص ٢٣.

(٧٢) المرجع السابق.

(٧٣) المرجع السابق، ص ص(٥٥-٥٧).

(٧٤) المرجع السابق، ص ٣٤.

(٧٥) ظهر هذا التفسير غير التقليدى فى:

Thomas Blass, The Milgram Paradigm after 35 Years: Some Things We Now Know about Obedience to Authority, in *Obedience to Authority: Critical Perspectives on the Mailgram Paradigm* (Thomas Blass, ed., New York: Lawrence Erlbaum Associates, 1999), 35, 38-44; Robert Shiller, *The Subprime Crisis* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2008), 150-51.

(76) Blass, The Milgram Paradigm, 42-44.

(77) Milgram, *Obedience to Authority*, 113—22.

(٧٨) المرجع السابق.

(٧٩) انظر:

Philip Zimbardo, *The Lucifer Effect* (New York: Random House, 2007).

(٨٠) المرجع السابق.

(٨١) المرجع السابق.

(٨٢) انظر: المرجع السابق .

(٨٣) انظر:

Hatzfeld, *Machete Season*, 71-72.

(٨٤) المرجع السابق، ص ٧٤.

(85) Tzvetan Todorov, *Facing the Extreme* (Holt: New York, 1996), 123.

(٨٦) المرجع السابق ، ص ص (١٢٣- ١٢٤).

(٨٧) انظر:

Zimbardo, *The Lucifer Effect.*

(٨٨) المرجع السابق، ص ٣٩٦.

(٨٩) المرجع السابق.

(٩٠) المرجع السابق.

(٩١) تم اقتباسها من برنامج تليفزيونى عام ١٩٧٩ فى:

Robert V. Levine, Milgram's Progress, American Scientist Online, July-August 2004.

(٩٢) انظر:

Philip Gourevitch and Errol Morris, *Standard Operating Procedure* (New York: Penguin, 2008).

(٩٣) المرجع السابق، ص ١١٧.

(٩٤) المرجع السابق، ص ٢١١.

(95) Quoted in Zimbardo, *The Lucifer Effect*, 15.

(96) Gourevitch and Morris, *Standard Operating Procedure*, 100.

(٩٧) المرجع السابق.

(٩٨) انظر: المرجع السابق، ص ص (١٦٦، ١٦٧).

(٩٩) انظر:

Hatzfeld, *Machete Season*, 50.

(١٠٠) ناقشت هذه القصة فى:

Cass R. Sunstein, Republic.com 2.0 (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2007).

(١٠١) انظر:

Arnold Jacobs, *Race, Media, and the Crisis of Civil Society* (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), 144.

(102) Sageman, *LeaderlessJihad.*

(١٠٣) انظر:

Patricia Wallace, *The Psychology of the Internet* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), 73—84

(104) Sageman, *Leaderless Jihad*, 121.

(١٠٥) المرجع السابق.

(١٠٦) المرجع السابق.

(١٠٧) المرجع السابق، ص ١٢٣.

(١٠٨) انظر:

Miller McPherson et al., Birds of a Feather: Homophily in Social Networks, *Annu. Rev. Soc.* 27 (2001): 415.

(١٠٩) المرجع السابق، ص ٤٢٩.

(١١٠) المرجع السابق، ص ٤٢٥.

(١١١) انظر:

Noah Mark, Culture and Competition: Homophily and Distancing Explanations for Cultural Niches, *Am. Soc. Rev.* 68 (2003): 319.

(١١٢) المرجع السابق، ص ٣٢٦.

(١١٣) انظر:

Irvingjanis, *Groupthink* (2nd ed.) (Boston: Houghton Mifflin, 1982).

(١١٤) المرجع السابق، ص ص (١٩٨- ٢٤١).

(١١٥) المرجع السابق، ص ص(١٨٧-١٩١).

(116) Marlene Turner and Anthony Pratkanis, Twenty Years of Groupthink Theory and Research: Lessons from the Evaluation of a Theory, *Organizational Behavioral and Human Decision Processes* 73 (1998): 105. 107.

(١١٧) انظر:

Scott McClellan, *What Happened*.

(١١٨) المرجع السابق، ص ١٧٥.

(١١٩) المرجع السابق، ص ص (١٧٤، ١٧٥).

(١٢٠) المرجع السابق ، ص ص (٢٦٢، ٧١).

(121) James Esser, Alive and Well after Twenty-Five Years: A Review of Groupthink Research, *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 73 (1998): 116.

(١٢٢) انظر:

Sally Riggs Fuller and Ramon J. Aldag, *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 73 (1998): 163.

(١٢٣) المرجع السابق، ص ١٦٧.

(124) Randall Peterson et al., Group Dynamics in Top Management Teams: Groupthink, Vigilance and Alternative Models of Organizational Failure and Success, *Journal of Organizational Behavior and Human Decision Processes* 73 (1998): 272.

(١٢٥) المرجع السابق، ص ٢٧٨.

(١٢٦) انظر:

Esser, Alive and Well, 118-122.

(127) Philip Tetlock et al., Assessing Political Group Dynamics, J. *Personality & Soc. Psych.* 63 (1992): 781.

(128) Esser, Alive and Well, 130-31.

(١٢٩) المرجع السابق، ص ١٣١.

(١٣٠) المرجع السابق، ص ص (١٣١، ٣٢).

(١٣١) المرجع السابق، ص ١٣٢.

(١٣٢) انظر:

Shiller, *The Subprime Crisis*.

(١٣٣) اعتمدت هنا على:

David Hirshleifer, The Blind Leading the Blind: Social Influence, Fads, and Informational Cascades, in *The New Economics of Human Behavior* (Mariano Tommasi and Kathryn Ierulli, eds., Cambridge: Cambridge University Press, 1995), 188, 193-95; and on the discussion in Cass R. Sunstein, *Why Societies Need Dissent* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2003), 55-73.

(١٣٤) انظر:

Shiller, *The Subprime Crisis.*

(١٣٥) انظر:

Matthew J. Salganik et al., "Experimental Study of Inequality and Unpredictability in an Artificial Cultural Market," Science 311 (2006).

(١٣٦) انظر:

Fabio Lorenzi-Cioldi and Alain Clemence, Group Processes and the Construction of Social Representations, in *Group Processes*, Hogg and Tindale, eds., 311, 315-17.

(١٣٧) انظر:

Duncan Watts, *The Kerry Cascade*, available at http://slate. msn.com/id/2099593/.

هوامش الفصل الثالث

(١) انظر:

Sharon Groch, Free Spaces: Creating Oppositional Spaces in the Disability Rights Movement, in *Oppositional Consciousness* (Jane Mansbridge and Aldon Morris, eds., Chicago: University of Chicago Press, 2001), 65, 67-72.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ٩٥.

(٣) انظر:

Dennis Chong, *Collective Action and the Civil Rights Movement* (Chicago: University of Chicago Press, 1991).

(٤) انظر:

Brooke Harrington, *Pop Finance* (Princeton, NJ.: Princeton University Press, 2008).

(٥) انظر:

Robert Shiller, *Irrational Exuberance* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2000); Robert Shiller, *The Subprime Solution* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2008).

(6) Shiller, *The Subprime Solution*, 41.

(٧) المرجع السابق، ص ٤٦ .

(٨) انظر:

Robert Shiller, *Irrational Exuberance*, 2nded. (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2004).

(٩) انظر:

Robert Shiller, How the Bubble Stayed under the Radar, *New York Times*, March 2, 2008, available at http://www.nytimes.com/20o8/03/02/business/O2view.html?ex=i362ii4OOO&en=f45Oeei8de5cde6o&ei=5i24&partner=permalink&exprod=permalink.

(١٠) انظر:

Gordon Wood, *The Radicalism of the American Revolution* (New York: Vintage, 1993) .

(١١) انظر: لدراسات مثيرة:

Arnold Dashefsky, *Ethnic Identification among American Jews* (Washington, D.C.: University Press of America, 1993); Flore Zephir, *Trends in Ethnic Identification among Second-Generation Haitian Immigrants in New York City* (Westport, Conn: Bergin & Garvey, 2001).

(١٢) انظر:

Timur Kuran, Ethnic Norms and Their Transformation through Reputational Cascades, *J. Legal Stud.* 27 (1998): 623.

(١٣) المرجع السابق.

(١٤) اعتمدت هنا على:

Cass R. Sunstein and Adrian Vermeule, Conspiracy Theories: Causes and Cures, *J. Polit. Phil.* (forthcoming 2009).

(١٥) انظر:

Richard Hofstadter, The Paranoid Style in American Politics, in *The Paranoid Style in American Politics and Other Essays* (New York: Vintage, 2008); Robert S. Robins and Jerrold M. Post, *Political Paranoia: The Psychopolitics of Hatred* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1997).

فهناك أفكار شائعة تنظر إلى نظريات المؤامرة على أنها شكل من أشكال البارانويا الجمعية.

(16) Russell Hardin, The Crippled Epistemology of Extremism, in *Political Rationality and Extremism* (Albert Breton et al., eds., Cambridge: Cambridge University Press, 2002), 3, 16.

(١٧) انظر: المرجع السابق، وصحيح أيضًا أن الكثير من المتطرفين قد أصبحوا متطرفين أو ظلوا كذلك بعد تعرضهم لكمية كبيرة من المعلومات من زوايا عديدة.

(١٨) انظر:

Alan Krueger, *What Makes a Terrorist?* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2006), 75-82.

(١٩) انظر: المرجع السابق، ص (٨٩،٩٠).

(٢٠) انظر: على سبيل المثال:

James Fetzer, *The 9/11 Conspiracy* (Chicago: Open Court, 2007); Mathias Broeckers, *Conspiracies, Conspiracy Theories, and the Secrets of 9/11* (Joshua Tree, Calif: Progressive, 2006).

باع الكتاب الأخير أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسخة في ألمانيا.

(٢١) انظر:

Diane Goldstein. *Once upon a Virus* (Salt Lake City: University of Utah Press. 2004).

(٢٢) انظر:

Leon Festinger, *A Theory of Cognitive Dissonance* (Stanford. Calif: Stanford University Press, 1957).

(٢٣) انظر: لدراسة حالة كلاسيكية:

Leon Festinger et al., *When Prophecy Fails* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1956). For a general treatment, see Carol Tavris and Elliot Aronson, *Mistakes Were Made (but Not by Me)* (New York: Harvest, 2007).

(٢٤) انظر: مناقشة لأهمية الحدود في:

Marc Granovetter, Threshold Models of Collective Behavior, *Am. J. Soc.* 83 (1978): 1420. Marc Granovetter, Threshold Models of Collective Behavior, Am.J. Soc. 83 (1978): 1420.

(٢٥) انظر:

Robert Repetto, ed., *Punctuated Equilibrium and the Dynamics of U.S. Environmental Policy* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 2006); Timur Kuran and Cass R. Sunstein, Availability Cascades and Risk Regulation, *Stan. L. Rev. 51* (1999): 683.

(٢٦) انظر:

Chip Heath, Chris Bell, and Emily Sternberg, Emotional Selection in Memes: The Case of Urban Legends,J. *Personality & Soc. Psych.* 81 (2001): 1028.

(٢٧) المرجع السابق، ص ص (١٠٣٧، ١٣٩).

(٢٨) المرجع السابق، ص ١٠٣٩.

(٢٩) المرجع السابق، ص ١٠٤٠.

(٣٠) المرجع السابق، ص ١٠٤١.

(٣١) انظر:

Cass R. Sunstein, Some Thoughts on Indignation and Law, *Vermont L. Rev.* (forthcoming 2009).

(٣٢) انظر:

Cass R. Sunstein et al., *Punitive Damages: How Juries Decide* (Chicago: University of Chicago Press, 2002), 32-33.

(٣٣) انظر:

Schkade et al., Deliberating about Dollars, 1152 .

وتتضح هنا أنه من المتوسط لحالات الغضب الخمس ينحرف ١١٪ أعلى من أى جماعة أخرى. ويظهر هذا حتى بالنسبة للدولار (انظر: المرجع السابق) حيث تتحول الإثابات إلى أعلى بنسب دالة. وترتبط النتائج بعضها بالبعض الآخر. فالمتطرفون عليه أن يتحولوا بناء على المناقشات مع الآخرين. انظر:

John Turner et al., *Rediscovering the Social Group* (London: Blackwell, 1987), 154-59.

(٣٤) انظر:

Krueger, *What Makes a Terrorist?* and Sageman, *Leaderless Jihad.*

(٣٥) انظر:

Sageman, *Leaderless Jihad.*

(٣٦) انظر:

Krueger, *What Makes a Terrorist?*

(٣٧) انظر:

Sageman, *Leaderless Jihad.*

(٣٨) المرجع السابق.

(39) Giles Foden, Secrets of a Terror Merchant, *Melbourne Age, September* 14, 2001.

(40) Jeffeey Bartholet, Method to the Madness, *Newsweek*, October 22, 2001, 55.

(41) Stephen Grey and Dipesh Gadher, Inside Bin Laden's Academies of Terror, *Sunday Times* (London), October 7, 2001, 10.

(42) Vithal C. Nadkarni, How to Win over Foes and Influence Their Minds, *Times of India*, October 7, 2001.

(٤٣) انظر:

Sageman, *Leaderless Jihad*, 69.

(٤٤) المرجع السابق.

(٤٥) المرجع السابق.

(٤٦) المرجع السابق.

(٤٧) المرجع السابق، ص ٨٧.

(٤٨) انظر:

Hardin, The Crippled Epistemology of Extremism.

(٤٩) المرجع السابق .

(٥٠) انظر:

Glaeser and Sunstein, Extremism and Social Learning.

(٥١) انظر:

Robert Pape, The Strategic Logic of Suicide Terrorism, *Am. Polit. Sci. Rev.* 97 (2003): 1; Robert Pape, *Dying to Win: The Strategic Logic of Suicide Terrorism* (Chicago: University of Chicago Press, 2006).

(52) Pape, The Strategic Logic of Suicide Terrorism, 2.

(٥٣) المرجع السابق.

(٥٤) انظر:

Harrington, *Pop Finance*.

(٥٥) انظر:

janis, *Groupthink*.

(٥٦) انظر:

Ronald Wintrobe, *Rational Extremism* (Cambridge: Cambridge University Press, 2007).

(٥٧) انظر:

Neil Weinstein, Unrealistic Optimism about Future Life Events, J. Personality and Soc. Psych. 39 (1980): 806.

(٥٨) انظر:

Shelley Taylor, *Positive Illusions* (New York: Basic Books, 1991), 10.

(٥٩) انظر:

Dominic Johnson, *Overconfidence and War: The Havoc and Glory of Positive Illusions* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2006).

(٦٠) انظر:

Kuran and Sunstein, Availability Cascades, 683.

(61) Paul Slovic, *The Perception of Risk* (London; Sterling, Va.: Earthscan, 2000), 40.

هوامش الفصل الرابع

(1) Edmund Burke, Reflections on the Revolution in France, in *The Portable Edmund Burke* (Isaac Kramnick, ed., New York: Penguin, 1999), 442.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥١.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٢٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٥١.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق.

(٧) انظر:

Gregory Moschetti, Individual Maintenance and Perpetuation of a Means-Ends Arbitrary Tradition, *Sodometry* 40 (1977): 78.

(٨) انظر:

Timur Kuran, *Private Truths, Public Lies* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1998).

(٩) للمناقشة انظر:

Cass R. Sunstein, *A Constitution of Many Minds* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2009, forthcoming).

(١٠) المرجع السابق.

No. 14 (James Madison), 72.

(١١) المرجع السابق.

(12) Letter from Thomas Jefferson to Samuel Kercheval (July 12, 1816), in *The Portable Thomas Jefferson* (Merrill D. Peterson, ed., New York: Penguin, 1975), 552, 559. Note, however, that Jefferson is speaking of experience, not of a priori reasoning (or "book-reading").

(13) Blaise Pascal, Preface to the Treatise on Vacuum, in *Thoughts, Letters, and Minor Works* (Charles W. Eliot, ed., M. L. Booth et al., trans., Cambridge, Mass.: Harvard University Press 1910), 444, 449.

(14) Jeremy Bentham, *Handbook of Political Fallacies* 43-53 (Harold Larabee ed., New York: Octagon Books, 1952).

(١٥) المرجع السابق، ص ٤٤.

(١٦) المرجع السابق، ص ٤٥.

(١٧) انظر:

Dan Kahan. The Secret Ambition of Deterrence. *Harv. L. Rev.* 113 (1999): 413.

(١٨) المرجع السابق.

(١٩) انظر:

Cass R. Sunstein, *Risk and Reason* (New York: Cambridge University Press, 2000).

(٢٠) انظر:

Matthew Adler and Eric Posner, *New Foundations for Cost-Benefit Analysis* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2006); Sunstein, *Risk and Reason*.

(٢١) يعد المرجع التالى مرجعًا أساسيا حول هذا النقاش:

Nicholas Stern, *The Economics of Climate Change* (Cambridge: Cambridge University Press, 2007).

(٢٢) انظر:

William Nordhaus, *The Challenge of Global Warming: Economic Models and Environmental Policy* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 2008); a dated but still helpful treatment is William Nordhaus and Joseph Boyer, *Warming the World* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 2000).

(23) *The Complete Antifederalist* (H. Storing, ed., Chicago: University of Chicago Press, 1980), 2:269.

(24) [Alexander Hamilton], The Federalist No. 70, in *The Federalist Papers* (Clinton Rossiter, ed., New York: Signet, 1961), 426-37.

قارن ما ذهب إليه أش Asch، عندما قال: "إن صدام وجهات النظر المختلفة تولد أحداث ذات آثار بعيدة. ولقد دفعت لكى أخذ موقفا معينا، لكى أرى فعلى كما يراه الآخر. والآن أجدنى أحمل وجهتين من النظر، وجهة نظرى، ووجهة نظر الآخر، وكلاهما الآن جزء من تفكيرى. وبهذه الطريقة فإننى أتجاوز نقاط الضعف فى تفكيرى عن طريق أفكار الآخرين. إننى الآن مفتوح الأفق.

Solomon Asch, *Social Psychology* (New York: Prentice-Hall, 1952), 131-32.

ولقد كتب جون راولس (J. Rawls) من وجهة نظر تخصص آخر: "يكون تبادل الآراء فى الحياة اليومية يجعلنا نراجع خصوصيتنا ويعمق موقفنا؛ إننا نتمكن من أن نرى الأشياء من وجهة نظر الآخرين، وأن نرى أوجه القصور فى نظراتنا. إن الاستفادة من المناقشات تكمن فى حقيقة أنه حتى المشرعين الممثلين لا يملكون سوى معرفة محدودة

وقدرة ضعيفة على التفكير. فلا أحد منهم يعرف كل ما يعرفه الآخرون، أو أن يلم بكل الآراء التى تقال. فالمناقشة هى طريقة لتجميع المعلومات وتوسيع وجهة النظر" .انظر:

John Rawls, *A Theory of Justice* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1971), 358-59.

ويمكن أن نرجع وجهة النظر هذه إلى أرسطو الذى أكد أنه "عندما تجتمع الجماعات المختلفة معًا، فإنهم يمكن أن يتجاوزوا، بشكل جماعى وليس بشكل فردى. كونهم قلة. وخاصة عندما يوجد عدد كبير يمكن أن يسهم فى عملية التفكير والمناقشة، حيث يطرح كل فرد ما لديه من قضية. ويتقبل البعض فكرة بعينها ويتقبل آخرون فكرة أخرى. وهم جميعًا يلتقون معًا. انظر:

Aristotle, *The Politics of Aristotle* (E. Barker, trans., London: Oxford University Press, 1972), 123.

ولقد حاولت هنا أن أشرح الظروف التى يمكن أن تتحقق فيها هذه الوجهة من النظر.

(25) Max Farrand, ed., *The Records of the Federal Convention of 1787* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1966), 3:21, 359.

(26) James Wilson, Lectures on Law, in *The Works of James Wilson* (Robert Green McCloskey, ed., Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1967), 1:291.

(٢٧) انظر:

The Pocket Veto Case, 279 U.S. 655, 678 (1929)

ولقد ذهب إلى القول "من الشروط الدستورية التى تحصن ضد إصدار تشريعات غير حكيمة وسريعة، أن يأخذ الرئيس وقتا كافيًا لكى يقرر ما الذى يوافق عليه وما لا يوافق عليه، وذلك لصياغة الاعتراضات التى سوف ينظر فيها الكونجرس بشكل دقيق. انظر:

The Works of James Wilson, 1:290, 432

التى تؤكد على أن استخدام الرئيس لحق الاعتراض سوف يكفل درجة إضافية من الدقة والمراجعة فى عملية إصدار القوانين.

(28) U.S. Const., Art. 1, section 8, clause 11.

(29) Philip Kurland and Ralph Lerner, eds., *The Founders' Constitution* (Chicago: University of Chicago Press, 1992), 94.

(٣٠) المرجع السابق.

(٣١) المرجع السابق.

(٣٢) المرجع السابق.

(٣٣) انظر:

Vincent Blasi, The Checking Value in First Amendment Theory, *American Bar Association Research Journal* 2 (1977): 523.

(34) Sageman, *Leaderless Jihad*, 160.

(٣٥) المرجع السابق.

(٣٦) انظر: على سبيل المثال:

Jon Elster, ed., *Deliberative Democracy* (Cambridge: Cambridge University Press, 1997).

(٣٧) انظر:

Scott Page, *The Difference* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2007); Cass R. Sunstein, *Infotopia* (New York: Oxford University Press, 2006).

(٣٨) انظر:

William P. Bottom et al, Propagation of Individual Bias through Group Judgment: Error in the Treatment of Asymmetrically Informative Signals, J. *Risk & Uncertainty* 25 (2002): 147, 152-54.

(٣٩) ولنفترض من الناحية الحسابية أن جماعة لها عدد (N) من الأصوات، وهم يختارون بين بديلين: وكل ناخب يمتلك نفس الاحتمال (أ) أن يكون اختياره صحيحًا، ويتراوح الاحتمال ما بين ٥٠٪ و ١٠٠٪ . ويمكن أن نفترض أيضًا أن كل عضو من أعضاء الجماعة له نفس الاحتمال بأن يختار اختيارًا دقيقًا، وأن كل رأى لكل عضو هو رأى مستقل إحصائيًا. ويكون الاحتمال هنا أن الجماعة سوف تصل إلى القرار الصائب بقاعدة الأغلبية التى يمكن صياغتها على النحو التالى:

واعتمدت هنا على:

Dennis C. Mueller, *Public Choice III* (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), 129; Robert E. Goodin, *Reflective Democracy* (Oxford: Oxford University Press, 2005), 95-96. Thanks to David Weisbach for help.

(40) Condorcet, *Selected Writings* (Keith Michael Baker, ed., Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1976), 62. This point is emphasized in David Estlund, *Democratic Authority: A Philosophical Framework* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2007).

(٤١) انظر:

Page, *The Difference*.

(42) Luther Gulick. *Administrative Reflections from World War II* (New York: Greenwood, 1948).

(٤٣) المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٤٤) المرجع السابق، ص ١٢١.

(٤٥) المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٤٦) المرجع السابق.

(٤٧) المرجع السابق.

(٤٨) المرجع السابق.

(٤٩) انظر:

Dan Reiter and Allan Stam, *Democracies at War* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2002).

(50) Caryn Christensen and Ann S. Abbott, Team Medical Decision Making, in *Decision Making in Health Care* (Gretchen B. Chapman and Frank A. Sonnenberg, eds., Cambridge: Cambridge University Press, 2000), 267, 272-76 (discussing effects of status on exchange of information in group interactions).

(51) Jeffrey A. Sonnenfeld, What Makes Great Boards Great, *Harvard Business Review* (September 2002).

هوامش الفصل الخامس

(١) انظر:

Heather Gerken, Second-Order Diversity and Disaggregated Democracy, *Harv. L. Rev.* 118 (2005): 1099.

(2) For a superb discussion, see Elizabeth Anderson, John Stuart Mill and Experiments in Living, *Ethics* 102 (1991): 2.

(٣) انظر:

the important discussion in Diana Mutz, *Hearing the Other Side* (Cambridge: Cambridge University Press. 2006).

(٤) انظر:

Christenson and Abbott, Team Medical Decision Making, 273.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٧٤.

(6) C. Kirchmeyer and A. Cohen, Multicultural Groups: Their Performance and Reactions with Constructive Conflict, *Group and Organization Management* 17 (1992): 153-

(٧) انظر:

Letter to Madison (January 30, 1798), reprinted in *The Portable Thomas Jefferson* (M. Peterson, ed., New York: Viking, 1975), 882.

(8) *Hague v. CIO*, 307 US 496 (1939).

ولسنا بحاجة هنا أن نناقش مذهب المنتدى العام على نحو تفصيلي. ويمكن للقارئ الرجوع للمصدر التالي:

Geoffrey Stone et al., *The First Amendment* (Boston: Aspen, 1999), 286-330.

(٩) انظر:

the excellent discussion in Noah D. Zatz, Sidewalks in Cyberspace: Making Space for Public Forums in the Electronic Environment, *Harv.J. Law & Tech.* 12 (1998): 149.

(١٠) انظر:

Kathleen Hall Jamieson and Joseph Capella, *Echo Chamber* (New York: Oxford University Press, 2008).

(١١) انظر:

Sunstein and Vermeule, Conspiracy Theories.

(١٢) انظر:

Sonnenfeld, What Makes Great Boards Great; Harrington, *Pop Finance*.

المؤلف فى سطور

كاس. ر. سينشتاين

أستاذ القانون فى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية، ومؤلف العديد من الكتب التى تعالج قضايا التطرف والانقسام والديمقراطية والحرية. وتتميز كتاباته باللغة السهلة المبسطة التى تجعل من كتبه أكثر انتشارًا وقراءة.

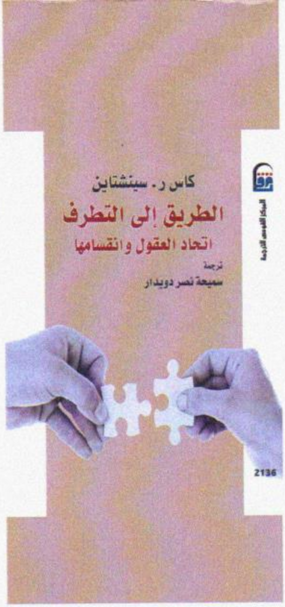
المترجمة فى سطور

سميحة نصر دويدار

أستاذة علم النفس، ورئيس شعبة بحوث الجريمة والسياسة الجنائية بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، وقامت بالعديـــد من الأبحاث التى تعالـــج قضايا العنف، منها العنف فى الحياة اليومية فى المجتمع المصرى، العنف والمشقة، العنف بين طلاب المدارس، العنف بين طلاب المدارس وبعض متغيرات الشخصية، عنف الشباب، العنف ضد المرأة، عنف المرأة وجرائم الكمبيوتر والإنترنت وحوادث المرور، والاتجار بالبشر فى المجتمع المصرى.

التصحيح اللغوى: وجيـــــه فاروق

الإشراف الفــنى: حســـن كامـــــل



أوضح المؤلف فى هذا الكتاب بلغة سهلة وبسيطة كيف يظهر التطرف والاستقطاب بين الأفراد فى حياتهم الاجتماعية؛ ليس فقط فى التنظيمات الدينية، وإنما فى كل التجمعات بدءا من مجالس الإدارة حتى المجالس النيابية، حيث تعمل المناقشات والمداولات العلنية على دفع العقول إما إلى الاتحاد أو الانقسام فى ميول تطرفية ظاهرة. ويكشف الكتاب عبر تحليله للتطرف كيف يكون الأفراد اتجاهاتهم ومعتقداتهم، وكيف يغيرونها، والظروف التى تتغير فى ضوئها، وقد بدأ الكتاب فى فصله الأول بشرح مفهوم الاستقطاب وكيفية حدوثه، ثم انتقل فى الفصل الثانى إلى شرح مفهوم التطرف والأسباب الكامنة خلفه والظروف التى يظهر فيها. ثم عرج بعد ذلك إلى دراسة الحركات وكيفية تشكيلها وكيفية ظهور التطرف فيها، وانتهى إلى تحليل الطرق التى يمكن من خلالها الحماية من التطرف مؤكدا فى الفصل الأخير أهمية التنوع والتعدد لحياة الأفراد والشعوب .

تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح